ماركس الأخير (1881-1883)

سيرة فكرية

مارشيللو موستو

ترجمة: أحمد حسن

المحتويات

إهداء

استهلال

مدخل: "النضال!"

- الفصل الأول: عبء الحياة اليومية وآفاق بحثية جديدة

1) الغرفة في طريق ميتلاند بارك

2) بين الأنثروبولوجيا والرياضيات

3) مواطن العالم

- الفصل الثاني: السياسة الأممية والجدل حول الرأسمالية في روسيا

1) التساؤل حول مستقبل المشاعة الريفية

2) هل الرأسمالية مرحلة ضرورية للوصول إلى المجتمع الشيوعي؟

3) الطريق الآخر المحتمل

- الفصل الثالث: متاعب السيد "نيك" العجوز

1) الانتشار المبكر لرأس المال في أوروبا

2) تقلبات الحياة

3) وفاة زوجته والرجوع إلى دراسة التاريخ

- الفصل الرابع: رحلة مور الأخيرة

1) الجزائر وانطباعات حول العالم العربي

2) جمهوري في الإمارة

3) "المؤكد أني لست ماركسيًا"

- خاتمة: الأسابيع الأخيرة
- ملحق: من أجل الخبز والورود
- تسلسل زمني: 1881–1883
- تعريف بالمؤلف والكتاب
- المراجع

استهلال

على إثر تفجر الأزمة الأخيرة للرأسمالية في 2008، راج كارل ماركس مجددًا. فعلى نقيض التوقعات التي قالت عقب سقوط حائط برلين إن النسيان سيطويه، رجعت أفكار ماركس مرةً أخرى موضوعًا للتحليل والتطوير والمناقشة، وبدأ كثيرون في طرح أسئلة جديدة حول مفكر تم تصنيفه زورًا في أحيان كثيرة كملهم لـ"الاشتراكية المتحققة بالفعل"، ثم نُحي جانبًا بعد 1989.

وصفت صحف ودوريات مرموقة، ولها جمهور عريض من القراء، ماركس بأنه منظر جدّ معاصر وبعيد النظر. وقد صار الآن، تقريبًا في كل مكان ، موضوعًا رائجًا في الدراسات الجامعية والمؤتمرات الدولية. وعادت أعماله، التي أعيد طبعها أو ظهرت في طبعات جديدة، إلى الظهور من جديد على رفوف المكتبات. وبعد عشرين عامًا أو أكثر من الإهمال، حققت دراسة أعماله زخمًا جديدًا ومتزايدًا، منتجًة في بعض الأحيان أبحاثًا مهمة ورائدة.[1]

وقد كان لمواصلة نشر "الأعمال التاريخية–النقدية الكاملة لماركس وإنجلز" (MEGA) في 1998 قيمة خاصة في مجال إجراء إعادة تقييم شاملة لإنجاز ماركس. ظهر حتى الآن ستة وعشرون مجلدًا، وهناك مجلدات أخرى في طور الإعداد. تحتوي هذه المجلدات على نسخ جديدة من بعض أعماله (مثل "الأيديولوجيا الألمانية")، وكل مخطوطاته التحضيرية لـ"رأس المال"، والرسائل التي أرسلها (وكذلك مختارات من الرسائل التي تلقاها) خلال مراحل هامة في حياته، وحوالي مائتي دفتر ملاحظات تضم مقتطفات من الأعمال التي كان يقرأها والانطباعات التي كان يدونها حول تلك القراءات. وتعد هذه الأخيرة بمثابة الورشة التي طور فيها نظريته النقدية، كما أنها تبين لنا خط السير المعقد لإنتاج أفكاره، والمصادر التي اعتمد عليها في تطويرها.

تقدم لنا هذه المادة التي لا تقدر بثمن، وغير المتاح أغلبها إلا باللغة الألمانية، مما يحصر الاطلاع عليها داخل دوائر محدودة من الباحثين، كاتبًا مختلفًا تمامًا عن ذلك الذي قدمه لنا عدد كبير من ناقديه، وكذلك عن ذلك الذي قدمه لنا كثير من أنصاره المزعومين لوقت طويل. الحقيقة أن ما تنطوي عليه تلك الأعمال الكاملة من نصوص جديدة، يتيح لنا أن نقول إن من بين كلاسيكيات الفكر السياسي والفلسفي، كان ماركس هو الشخص الذي تغيرت صورته أكثر من غيره في السنوات الأخيرة. لقد ساعدت معطيات المشهد السياسي في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي على تحرير ماركس من دور رمز جهاز الدولة السوفييتية الذي نسبوه له هناك.

---

[1] لاستعراض الدراسات المنشورة عن ماركس مؤخرًا، انظر Marx's Global Reception Today, in Marcello Musto (ed.), *Marx for Today*. London: Routledge, 2012, pp. 170-234. Cf. also Marcello Musto (ed.), *The Marx Revival*. Cambridge: Cambridge University Press, forthcoming 2018.

يشير تقدُم البحث، جنبًا إلى جنب مع الظروف السياسية المتغيرة، إلى أن التجديد في تأويل أفكار ماركس ظاهرة مقدر لها الاستمرار. والاحتمال الأكبر أن جزءًا كبيرًا من هذا الاهتمام سيركز على المرحلة الأخيرة من إنتاجه النظري، أي على "ماركس الأخير". الدراسة الحالية، أيضًا، وهي معدة كـ"سيرة فكرية" لماركس، سوف يتبعها ويكملها بحث حصري شامل لفكره.

ينهي تحليل المخطوطات التي كتبها ماركس في السنوات الأخيرة من حياته كليةً الأسطورة التي تقول إنه فقد فضوله الفكري وتوقف عن العمل في تلك السنوات. فالحق أنه لم يقتصر في تلك المرحلة فقط على مواصلة بحثه، بل توسع به إلى مجالات معرفية جديدة.

قام ماركس خلال عامي 1881 و1882 بدراسة معمقة للاكتشافات الأخيرة في الأنثروبولوجيا، فيما يتعلق بالأشكال المشاعية للملكية في المجتمعات ما قبل الرأسمالية، والتغيرات التي أعقبت إلغاء القنانة في روسيا، وميلاد الدولة الحديثة. كما أنه تابع عن قرب الأحداث الرئيسية في السياسة العالمية، كما يمكن أن نرى من خلال خطاباته التي عبر فيها عن دعمه الحاسم للنضال الإيرلندي التحرري، ومعارضته الثابتة للاضطهاد الاستعماري في الهند ومصر والجزائر. يمكنك أن تقول عن ماركس ما شئت، عدا أنه ذو نزعة مركزية–أوروبية أو ميول اقتصادوية، أو أن تركيزه كان منصبًا على الصراع الطبقي فقط.

اعتقد ماركس أن دراسة صراعات سياسية جديدة وموضوعات ومناطق جغرافية جديدة أمرًا جوهريًا لنقده المستمر للنظام الرأسمالي. فقد مكنه ذلك من الانفتاح على خصوصية البلدان المختلفة، ومن التفكير في إمكانية وجود مقاربة للاشتراكية تختلف عن تلك التي طورها من قبل.

وأخيرًا، فإن "ماركس الأخير" هو الأكثر حميمية: فهو لم يخف هشاشته في الحياة بل استمر يناضل، لم يتجنب الشك بل واجهه بوضوح، واختار أن يغوص أكثر في البحث بدلا من الركون إلى اليقين الذاتي والمدائح غير النقدية من "الماركسيين" الأوائل. هذا الـ"ماركس" شديد الندرة، هدام بشكل جذري، متكاثر، مغاير كليًا لصورة أبي الهول القرن العشرين الجرانيتية التي تشير إلى المستقبل بيقين دوجمائي. إنه يشير إلى نوع جديد من الباحثين والنشطاء السياسيين، الذين يتبنون ويواصلون النضال الذي كرس، هو ومثله كثيرون من قبل ومن بعد، كل وجوده من أجله.

مدخل: "النضال!"

في أغسطس 1880 كان چون سوينتون (1829–1901)، وهو صحفي أمريكي واسع التأثير وذو رؤى تقدمية، في رحلة إلى أوروبا.[2] وقد قام أثناء تواجده هناك بزيارة إلى مدينة رامسجيت، وهي مدينة ساحلية صغيرة في مقاطعة كِنت تقع على بعد كيلومترات قليلة من أقصى جنوب شرق إنجلترا. كانت الهدف من الرحلة هو إجراء مقابلة صحفية لصالح جريدة الصن –التي كان يرأس تحريرها، والتي كانت آنذاك من بين الأكثر انتشارًا بين القراء في الولايات المتحدة الأمريكية– مع الرجل الذي كان قد أصبح أحد الممثلين الرئيسين للحركة العمالية الدولية: كارل ماركس.

ورغم أن ماركس كان ألمانيًا بالميلاد، إلا أنه أصبح بلا جنسية بعد أن طردته حكومات فرنسا وبلجيكا وبروسيا أثناء وأدها الحركات الثورية التي ظهرت في بلدانها بين عامي 1848 و1849. وعندما قدم طلبًا للحصول على الجنسية في بريطانيا في 1874، رُفض طلبه لأن تقريرًا من جهاز سكوتلاند يارد وصفه كـ"محرض ألماني سيئ السمعة ومناصر للمبادئ الشيوعية... لا يتسم بالولاء لملكه أو حكومته".[3]

كان ماركس مراسلًا لجريدة نيويورك تريبيون على مدى أكثر من عقد من الزمان. وفي عام 1867 نشر نقدًا تأسيسيًا لنمط الإنتاج الرأسمالي تحت عنوان "رأس المال". ولمدة ثماني سنوات، بداية من 1864، كان الشخصية القيادية في "رابطة العمال الدولية" (International Workingmen Association). وفي عام 1871 ظهر اسمه على صفحات أكثر الصحف الأوروبية انتشارًا، وذلك بسبب دفاعه عن كوميونة باريس في كتاب "الحرب الأهلية في فرنسا"، وهو الأمر الذي دعا الصحافة الرجعية إلى تعميده تحت اسم "دكتور الإرهاب الأحمر".[4]

في صيف 1880 كان ماركس مع عائلته في رامسجيت مأمورًا من الطبيب بـ"عدم القيام بأي عمل أيًا كان نوعه"[5] وذلك "لإنعاش جهازه العصبي المتداعي". كانت صحة زوجته جيني أكثر سوءًا من صحته. إذ كانت جيني فون وستفالين تعاني من السرطان، وقد تدهورت حالتها فجأة إلى درجة تهدد باقتراب نهاية مفجعة.[6] كان هذا هو الوضع الذي تعرف فيه سوينتون –رئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمز طوال ستينيات القرن التاسع عشر– على ماركس ورسم له صورة متعاطفة ومكثفة ومتقنة.

---

[2] انظر 'John Swinton, Crusading Editor', in Sender Garin, *Three American Radicals: John Swinton, Charles P. Steinmetz, and William Dean Howells*. Boulder: Westview Press, 1991, pp. 1-41.

[3] انظر تقرير الشرطة '[Declaration by Karl Marx on His Naturalisation in England]', in MECW, vol. 24, p. 564.

4 انظر Karl Marx to Friedrich Sorge, 27 September 1877, in MECW vol. 45, p. 27.

5 Karl Marx to Ferdinand Nieuwenhuis, 27 June 1880, in MECW, vol. 46, p. 16.

6 Karl Marx to Nikolai Danielson, 12 September 1880, in MECW, vol. 46, p. 30.

وصف سوينتون ماركس على المستوى الشخصي هكذا: "رجل في ستيناته، ذو رأس ضخمة، كريم، ودود، دمث، له كتل من الشعر الرمادي الكثيف والطويل، يعرف بشكل لا يقل اكتمالًا عن فيكتور هوجو فن أن تكون جدًا لأحفاد".[7] أما عن حديثه، الـ"حر جدًا، والمكتسح بقوة، والمبدع للغاية، والقاطع تمامًا، والصادق إلى أبعد مدى"، فقد ذكّر سوينتون بسقراط "بلمساته الساخرة، وفكاهاته اللامعة، وبهجته المسلية". وقد لاحظ سوينتون أيضًا أن ماركس "رجلًا ليست لديه ميول استعراضية أو رغبة في الشهرة، وخال تمامًا من الاهتمام بالمظاهر وعلامات النفوذ".

على أن هذا لم يكن ماركس الذي سيصفه سوينتون لقرائه. فالحوار الذي نشر في الصفحة الأولي من جريدة الصن في 6 سبتمبر 1880، قدم، بصفة رئيسية، الوجه العام –وليس الشخصي– لماركس: "واحد من أكثر الأشخاص الذين يجذبون الانتباه اليوم. لعب دورًا غامضًا، ولكنه واسع الأثر، في السياسة الثورية خلال الأربعين عامًا الماضية".

كتب سوينتون عن ماركس: "ليس متعجلًا وليس خاملًا؛ رجل ذو عقل نشط ورحب ورفيع المستوى، جعبته ممتلئة بالمشاريع طويلة المدى والمناهج المنطقية والأهداف العملية؛ لقد وقف ولا زال خلف أغلب الزلازل التي رجت أممًا ودمرت عروشًا، وهو الآن يهدد ويرعب رؤوسًا متوجة ومحتالين ذوي نفوذ أكثر من أي إنسان آخر في أوروبا".[8]

أقنع النقاش مع ماركس الصحفي القادم من نيويورك أنه أمام رجل "متعمق في الواقع الراهن" ويده الممتدة "من نهر النيفا إلى نهر السين، ومن جبال الأورال إلى جبال البرانس"، تمهد الطريق لمجيء العصر الجديد. لقد انبهر الصحفي بماركس بسبب قدرته على "استعراض العالم الأوروبي بلدًا بعد الآخر، مشيرًا إلى الخصائص والتطورات والشخصيات فوق السطح أو تحته".

ثم واصل ماركس الحديث عن: "القوى السياسية والحركات الشعبية في مختلف بلدان أوروبا: التدفق الواسع لروح روسيا، وحركات العقل الألماني، والنشاط الفرنسي، والجمود الإنجليزي. وتحدث بأمل عن روسيا، وبتفلسف حول ألمانيا، وبابتهاج عن فرنسا، وبشكل مغموم عن إنجلترا، مشيرا بازدراء إلى الإصلاحات شديدة التفاهة التي يبدد فيها ليبراليو البرلمان البريطاني وقتهم".[9]

تفاجأ سوينتون أيضًا بمعرفة ماركس بالولايات المتحدة. كان مراقبًا يقظًا و"ملاحظاته حول بعض القوى التكوينية والتأسيسية في الحياة الأمريكية منشطة للذهن جدًا".

انقضى اليوم في سلسلة من المناقشات المفعمة بالحيوية. وبعد الظهر اقترح ماركس السير بمحاذاة البحر إلى الشاطئ ليقابل أسرته، التي وصفها سوينتون، بأنها "جمع مبهج– حوالي عشرة أشخاص". وعند حلول

[7] Karl Marx, '[Account of an Interview with John Swinton, Correspondent of The Sun]', 6 September 1880, in MECW, vol. 24, pp. 583-4.

[8] المرجع السابق، ص 583.

[9] المرجع السابق.

المساء استمر صهرا ماركس، تشالرز لونج (1839–1903) وبول لافارج (1842–1911)، في رفقتهما. ودار الحديث حول "العالم والإنسان والعصر الحاضر والأفكار، بينما رنين الكؤوس يقرع على الشاطئ".

في لحظة كتلك، غامر الصحفي الأمريكي، بينما كان "التفكير في هذيان ودمار العصر الحاضر يدور في رأسه"، وبينما كان مستغرقًا في أعماق "حديث اليوم ومشاهد المساء"، بسؤال الرجل العظيم سؤالًا "يمس القانون النهائي للوجود". وقتها، وبعد دقيقة من الصمت، قام الصحفي "باستجواب الثوري والفيلسوف في مسألة مصيرية: ما هو "قانون الوجود"؟" شعر سوينتون أن عقل ماركس قد "زاغ لوهلة بينما راح ينظر إلى البحر الصاخب أمامه والهدير الهائج للمياه على الشاطئ". وأخيرًا أجاب في نبرة عميقة ومهيبة "النضال!".[10]

ظن سوينتون في البداية أنه يسمع في تلك الإجابة "صدى اليأس". ولكنه وافق فيما بعد: "النضال فعلًا هو قانون الحياة الذي حاولت البشرية دائمًا أن تفهمه".[11]

[10] المرجع السابق، ص585.

[11] المرجع السابق.

الفصل الأول

أعباء الحياة وآفاق بحثية جديدة

1. الغرفة في طريق ميتلاند بارك

بعد شهور قليلة من لقاء سوينتون، وفي إحدى أمسيات يناير 1881، جلس رجل ذو لحية تقترب من البياض الكامل في غرفته في شمال لندن يقرأ في كوم من الكتب ويدون بعناية الفقرات الأكثر أهمية. بدأب يشبه دأب العامل في دوامه اليومي، كان يواصل القيام بمهمته في الحياة: أن يوفر للحركة العمالية الأسس النظرية اللازمة للقضاء على نمط الإنتاج الرأسمالي.

كانت عقود من العمل اليومي الشاق في القراءة والكتابة قد تركت بصماتها على جسد الرجل. فعلى ظهره وفي أماكن أخرى من جسده، تركت الدمامل المروعة التي تكونت خلال السنوات التي عمل فيها على كتابة "رأس المال" ندوبًا لم تُمح. أما روحه، فقد أثخنتها جروحًا أخرى بسبب حياة تكتنفها المصاعب ويملؤها الشقاء، ويلطفها من آن لآخر الرضا الذي تسببه الضربات التي كان يوجهها إلى رموز الطبقة الحاكمة وإلى خصومه السياسيين داخل المعسكر نفسه.

كان جسده ضعيفًا وواهنًا في الشتاء، حيث قلص التقدم في العمر طاقته المعتادة، وكان منطقيًا أن تشعر زوجته بالقلق المتزايد على صحته. لكنه ظل هو نفسه. فبالحماس نفسه الذي كان عليه دائمًا، استمر يبذل أقصى ما لديه من طاقة من أجل قضية تحرر الطبقة العاملة؛ استمر يبذل هذا الجهد وبالطريقة نفسها التي تبناها منذ أيامه الأولى في الجامعة: بصرامة شديدة دون أدنى تهاون.

يقوم بعمله على مدى سنوات طيلة النهار وإلى وقت متأخر من الليل، جالسًا على كرسي خشبي أمام طاولة متواضعة لا تزيد مساحتها عن ثلاثة أقدام في قدمين.[12] تكاد الطاولة تضيق بما عليها: مصباح مظلل بالأخضر، وأوراق الكتابة، وحفنة من الكتب كان يعمل عليها وقتها. لم يكن بحاجة إلى شيء آخر.

كانت غرفة مكتبه في الطابق الأول، ولها نافذة تطل على الحديقة. اختفت رائحة التبغ بعد أن منعه الأطباء من التدخين، لكن الغلايين المصنوعة من الصلصال التي استخدمها في التدخين لسنوات عديدة ظلت موجودة لتذكره بالليالي التي قضاها دون نوم وهو يفكك كلاسيكيات الاقتصاد السياسي.

[12] للحصول على وصف لدراسة ماركس السابقة في رقم 1 طريق منتزه ميتلاند، انظر Paul Lafargue, in Institute of Marxism-Leninism (Ed.), *Reminiscences of Marx and Engels*. Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1957, pp. 73-4.

وعلى صف يصعب اختراقه من الرفوف التي تحجب الحائط، تقبع كمية من الكتب والجرائد أكثر مما يمكن تصوره. لم تكن مكتبته مهيبة كمكتبات المثقفين البرجوازيين في نفس مكانته –تحديدًا الأكثر ثراءً. في أشد سنوات ماركس فقرًا، كان اعتماده في الأغلب على المراجع التي يطالعها في قاعة القراءة بالمتحف البريطاني. ولكنه فيما بعد استطاع أن يجمع ما يقرب من ألفي مجلد[13]، أغلبها عن الاقتصاد، ولكن كان هناك أيضًا كثير من الأعمال الكلاسيكية في النظرية السياسة، ودراسات تاريخية (خاصة باللغة الفرنسية)، وأعمال فلسفية تعود بصفة رئيسية إلى التراث الفلسفي الألماني، كما احتلت العلوم الطبيعية أيضًا مساحة جيدة في مكتبته.

هذا وقد جارى تنوع اللغات التنوع في الفروع العلمية. كتب بالألمانية رُصَّت بطريقة فظة تعادل تقريبًا ثلث المكتبة، والإنجليزية حوالي الربع، مع عدد أقل قليلًا من الكتابات الفرنسية، وكانت هناك أيضًا أعمال بلغات رومانتيكية أخرى مثل الإيطالية. لكن بدءًا من 1869، عندما بدأ تعلم اللغة الروسية ليدرس التغيرات التي حدثت في الإمبراطورية القيصرية، احتلت الكتب بالأبجدية السيريلية مساحة معتبرة لنفسها.

إلا أن الرفوف لم تكن قاصرة على الكتابات الأكاديمية فقط. فقد وصف مراسل مجهول الاسم لجريدة شيكاجو تريبيون، زار غرفة مكتب ماركس في عام 1878، محتوياتها على النحو الآتي:

يمكن الحكم بوجه عام على الإنسان من خلال الكتب التي يقرأها، وباستطاعتك الوصول إلى استنتاج يخصك عندما أخبرك أن إطلالة سريعة كشفت عن وجود شكسبير، ديكنز، ثاكري، موليير، راسين، مونتان، بيكون، جوته، فولتير، بين؛ وكذلك كتب إنجليزية، وأمريكية، وفرنسية، وكتب زرقاء (تقارير إنجليزية رسمية مدموغة بالأزرق–المترجم)، وأعمال سياسية وفلسفية بالروسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، إلخ.[14]

أعطى بول لافارج تقديرًا مماثلًا بخصوص الاهتمامات الأدبية والمعرفة واسعة النطاق لدى ماركس. متذكرًا غرفة مكتبه –التي قال عنها "يجب على المرء أن يتعرف على تلك الحجرة التاريخية حتى يكون في إمكانه النفاذ إلى الشق الحميمي للحياة الروحية لماركس"– كتب لافارج:

يعرف ماركس هاينه وجوته عن ظهر قلب، وكثيرًا ما استخدم مقتطفات من أعمالهما في نقاشاته. كان قارئًا نهمًا للشعراء بكل اللغات الأوربية. يقرأ كل عام أعمال اسخيلوس في أصلها اليوناني. كان يرى أنه هو وشكسبير أعظم عباقرة كتاب الدراما الذين أنجبتهم البشرية... ويعد دانتي وروبرت برنز من ضمن شعرائه المفضلين. كما كان قارئًا عظيما للأدب الروائي، مفضلا أعمال الروائيين من القرن الثامن عشر،

---

[13] انظر Hans-Peter Harstick, Richard Sperl and Hanno Strauß, 'Einführung', in Karl Marx and Friedrich Engels, Die Bibliotheken von Karl Marx und Friedrich Engels, MEGA², vol. IV/32, p. 73. هذا المجلد المكون من أكثر من 730 صفحة، هي محصلة خمسة وسبعين عامًا من البحث، يتضمن فهرسًا به 1450 كتابًا (أي ما يساوي 2100 مجلدًا). ثلثا هذا العدد ينتمي إلى ماركس وإنجلز (2100 كتابًا، أي ما يساوي 3200 مجلدًا)، بالإضافة إلى قائمة بكل صفحات الكتب التي أضاف إليها ملاحظات. ويتضمن أيضًا إحالات إلى تعليقات ماركس في هوامش 40 ألف صفحة من 830 نص.

[14] s.n., '(Account of Karl Marx's Interview with the Chicago Tribune Correspondent)', Chicago Tribune, 5 January 1879, in MECW, vol. 24, p. 569.

خصوصًا توم جونز لفيلدينج. أما الروائيون الأكثر معاصرة الذين وجدهم جدّ مهمين فكانوا بول دي كوك، وتشارلز ليفر، والكسندر دوما الأب، وولتر سكوت، الذي اعتبر ماركس عمله "موت قديم" (Old Mortality) تحفة فنية. كان لديه تفضيل أكيد لقصص المغامرات والفكاهة. صنف ماركس أعمال بلزاك وسيرفانتس في مستوى يفوق كل الروائيين الآخرين. ورأى في "دون كيشوت" ملحمة موت الفروسية التي أصبحت فضائلها موضعًا لسخرية وتهكم العالم البرجوازي الصاعد. كذلك كان معجبًا ببلزاك بقوة لدرجة أنه فكر في كتابة مقال عن عمله العظيم "الكوميديا البشرية" ما أن يفرغ من كتابه في الاقتصاد... كان بمقدرة ماركس القراءة بكل اللغات الأوربية... وكان يحب أن يكرر القول إن "اللغة الأجنبية هي سلاح في صراع الحياة"... ووضع على عاتقه تعلم اللغة الروسية، وخلال ستة أشهر كان يجيدها بما يكفي لأن يستمتع بقراءة أعمال شعرية وكتابات نثرية لكتاب روس، وكان تفضيله هو أعمال جوجول، وبوشكين، وشيدرين.[15]

كما تطرق لافارج إلى علاقة ماركس بكتبه، التي:

لم تكن موضوعات للرفاهية بل أدوات للعقل. لقد اعتاد القول إنهم عبيدي ويجب أن يخدمونني كما أريد. فهو... يثني حواف الصفحات ويضع علامات بالقلم الرصاص في الهامش وخطوطًا أسفل سطور بأكملها. لم يكتب أبدًا على الكتب، إلا أنه أحيانًا لم يكن يستطيع منع نفسه من وضع علامة تعجب أو استفهام إذا أحس أن المؤلف يبالغ. كانت طريقته في التخطيط أسفل الأسطر تساعده في العثور على أية فقرة يحتاجها في أي كتاب.[16]

لقد أولي كتبه عناية فائقة إلى حد أنه عرّف نفسه كـ"آلة محكوم عليها أن تلتهم الكتب ثم تقذف بها، في صورة متغيرة، في وجه مزبلة التاريخ".[17]

ضمت مكتبة ماركس أيضًا مؤلفاته، التي لم تكن في النهاية غزيرة كما خطط، حيث ترك الكثير منها غير مكتمل بسبب الانشغال الذهني المكثف. كانت هناك نسخًا من "العائلة المقدسة" (1845) و"فقر الفلسفة" (1847)، وبالقطع نسخًا كثيرة من "بيان الحزب الشيوعي" (1848) –المكتوب بالمشاركة مع إنجلز والمنشور في وقته المناسب قبيل اندلاع ثورات 1848، ولكن الذي بدأ ينتشر بشكل واسع بدءًا من سبعينيات القرن التاسع عشر. اصطفت الكتابات عن تاريخ فرنسا، مثل "الثامن عشر من برومير – لوي بونابرت" (1852)، بجوار نصوص سياسية مثل كتابه ذي الطابع السجالي "قصة حياة اللورد بالمرستون" (1853–1854)، وكراساته حول موضوعات بعينها مثل "كشوفات بصدد المحاكمة الشيوعية في كولون" (1853) أو "التاريخ الدبلوماسي السري للقرن الثامن عشر" (1856–1857)، بالإضافة إلى كتبه

---

[15] Lafargue, in Institute of Marxism-Leninism (ed.), *Reminiscences of Marx and Engels*, op. cit., pp. 4-73. وحول الاهتمامات الأدبية والمعرفية الواسعة لماركس، انظر Siebert S. Prawer, *Karl Marx and World Literature*. London: Verso, 2011, in particular pp. 384-5.

[16] انظر لافارج، مرجع سبق ذكره ص (4 -73).

17 Lafargue, in Institute of Marxism-Leninism (ed.), *Reminiscences of Marx and Engels*, op. cit., pp. 4-73.

المعروفة بدرجة أقل مثل "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" (1859) و"السيد فوجت" (1860). ومن بين الأعمال التي كان يفخر بها أكثر من غيرها، هناك "رأس المال" طبعًا، الذي كان قد ترجم وقتها إلى الفرنسية والروسية، وأهم الخطابات والقرارات الخاصة بـ"الرابطة الدولية للعمال".

كذلك، في مكان ما، كانت هناك نسخًا مرزمة من الصحف والدوريات التي حررها أو نشر فيها في مرحلة شبابه: "الحوليات الألمانية الفرنسية" و"الجريدة الرينانية الجديدة"، الصحيفة اليومية التي نشر عددها الأخير كله، قبيل انتصار الثورة المضادة (مايو 1849)، بالحبر الأحمر؛ وكذلك نسخًا من "الجريدة الرينانية الجديدة" في إصدارها الشهري، ومن "المجلة السياسية–الاقتصادية" التي ظهرت في العام التالي (1850).

ضمت أقسام أخرى من المكتبة دزائن من الكراسات التي تحتوي على مقتطفات مقتبسة ومخطوطات غير كاملة، على الرغم من أن أغلب الكراسات من هذا النوع تم وضعه بالمخزن العلوي الذي احتوى على كل الأعمال التي بدأها في مراحل مختلفة من حياته ولم يتمكن من إتمامها أبدًا. هذه الكومة المكدسة من النصوص، المتروك بعضها "لقرض الفئران"[18]، ضمت عددًا ضخمًا من الدفاتر والأوراق المتناثرة.[19]

تضمنت هذه الأوراق ما سوف يعرف لاحقًا باسم "مخطوطات 1844 الفلسفية والاقتصادية"، و"الأيديولوجيا الألمانية" (1845– 1846)، وهما عملان من أكثر أعمال ماركس النظرية قراءة وإثارة للحوار في القرن العشرين. إن ماركس الذي "لم ينشر أبدًا أي عمل قبل مراجعته عدة مرات حتى يصل به إلى أنسب صيغة"، و"الذي كان يفضل حرق مخطوطاته على تركها غير مكتملة"،[20] كان بالقطع سيفاجأ ويشعر بالأسف عندما يجد أن تلك الأعمال –التي لم تخضع لمراجعته– قد طبعت فعلًا.

كانت المخطوطات الأكبر والأكثر أهمية هي تلك المرتبطة بالمسودات التمهيدية لكتاب "رأس المال"، ممتدة من "أسس نقد الاقتصاد السياسي"، أو ما يعرف بالجروندريسة (1857–1858)، إلى الملاحظات النهائية التي كتبها في 1881. أما معظم مراسلات ماركس وإنجلز، والتي اصطلح على تسميتها "أرشيف الحزب"، فقد كانت في الواقع محفوظة في منزل إنجلز.

وفي منتصف غرفة مكتب ماركس المكدسة، كانت هناك أريكة جلدية يتمدد فوقها من وقت إلى آخر بغرض الراحة. كانت التمشية في الغرفة أحد طقوسه المعتادة للاسترخاء. ووفقًا للافارج: "يمكن للمرء حتى أن يقول إنه كان يعمل وهو يسير في غرفته، ثم يجلس لوهلات قصيرة فقط كي يكتب ما توصل إليه من أفكار أثناء سيره". ويتذكر لافارج أيضًا أن ماركس "كان يحب أن يصعد وينزل الدرج أثناء

18Karl Marx, *A Contribution to the Critique of Political Economy*, in MECW, vol. 29, p. 264.

[19]بعد عام من وفاة ماركس، كتب إنجلز إلى لورا لافارج في 16 فبراير 1884: "لقد فحصنا المخزن القديم، وفي نهاية الفحص وجدنا الكثير من الأشياء التي تستحق البقاء، لكن هناك أيضًا حوالي نصف طن من الصحف القديمة التي من المستحيل فرزها، ومن بين المخطوطات وجدنا النسخة الأولى من رأس المال (1861-1863)، وكذلك عدة مئات من الصفحات حول: نظريات فائض القيمة. (MECW 46, p. 104).

[20] انظر لافارج، مرجع سبق ذكره، ص.74 .

التحدث، ويثبت في مكانه بين الحين والآخر عندما يصبح الشرح أكثر حيوية أو الحوار أكثر جدية." أما أحد الذين كانوا يتصلون به كثيرًا في ذلك الحين، فقد قال إنه "كانت لديه العادة عندما يكون مهتمًا بالنقاش أن يسير جيئة وذهابًا بنشاط في الغرفة كأنه شخص يذرع سطح مركب شراعي بهدف التريض".[21]

في مواجهة مكتبه انتصبت طاولة أخرى. وأي زائر عابر كان غالبًا سيتحير من فوضى الأوراق فوقها، لكن من يعرف ماركس جيدًا كان سيدرك أن الفوضى فقط ظاهرية:

كل شيء كان حقيقة موضوعًا في مكانه، حيث كان في مستطاعه أن يمد يده ليلتقط بسهولة الكتاب أو الدفتر الذي يحتاجه. حتى أثناء الحوارات، كان كثيرًا ما يتوقف ليعرض مقتبسًا من كتاب أو رقم ذكره لتوه. هو وغرفة مكتبه كانوا شيئًا واحدًا: الأوراق والكتب بها كانوا تحت سيطرته تمامًا كأطرافه.[22]

أما آخر قطعة أثاث في غرفة المكتب، فقد كانت خزانة خشبية متعددة الأدراج. هنا وضع ماركس صورًا لأشخاص يعتز بهم مثل الرفيق وليم وولف، الذي أهدى له كتاب "رأس المال". ولوقت طويل كان بالمكتب تمثال نصفي للإله جوبيتر وقطعتين من حائط منزل جوتفريد لايبنيز (1717–1738) –كلاهما مهدى من طبيبه وصديقه العزيز لسنوات طويلة، لودفيج كوجيلمان؛ الأولى أهديت له في احتفالات أعياد الميلاد عام 1867، والثانية أهديت في عيد ميلاده الثاني والخمسين في 1870، بعد أن هُدم منزل فيلسوف ألمانيا الأعظم في القرن الثامن عشر (لايبنيز) في هانوفر.

عاش ماركس وعائلته في بيت يقع ضمن صف من البيوت المتلاصقة، في 41 شارع ميتلاند بارك في شمال لندن. وقد انتقل هو وعائلته إلى هذا المنزل في 1875، بعد أن كان يستأجر منزلًا أكبر وأغلى في البناية رقم واحد في الشارع نفسه على مدى السنوات العشرة السابقة[23]. آنذاك، كانت العائلة الصغيرة تتكون من ماركس وزوجته جيني وابنته الأصغر إيليانور، بالإضافة إلى هيلين ديموث، وهي المربية المتفانية التي عاشت معهم ما يقرب من أربعين عامًا. كان هناك أيضًا ثلاثة كلاب كان ماركس مولعا بها أيما ولع. تودي وويسكي وكلب ثالث مجهول الاسم كانوا "حيوانات ليست من سلالات معروفة، (لكنهم) كانوا أعضاء مهمين في الأسرة".[24]

---

[21] Henry Hyndman, Record of an Adventurous Life. London: Macmillan, 1913, p. 250.

[22] انظر: لافارج مرجع سبق ذكره، ص74 .

[23] انظر Asa Briggs and John Callow, Marx in London: An Illustrated Guide. London: Lawrence and Wishart, 2008, pp. 62-5.

[24] Marian Comyn, 'My Recollections of Marx', in The Nineteenth Century and After, vol. 91, January 1922, p. 165.

وفي 1870، بعد أن تقاعد إنجلز عن العمل وترك منزله في مانشستر، أخذ سكنًا في 122 شارع ريجنت بارك، على بعد ما لا يزيد عن كيلو متر واحد فقط من منزل الرفيق الذي شاركه النضال السياسي وعلاقة الصداقة الأكثر إخلاصًا منذ عام 1844.[25]

وبسبب المشكلات الصحية المتعددة التي عانى منها ماركس، "منعه مستشاروه الطبيون قطعيًا لسنوات طويلة من العمل الليلي"؛[26] إلا أنه استمر بلا كلل يشغل نهاراته بالبحث، أساسًا حتى يتمكن من الانتهاء من كتاب "رأس المال"، الذي كان جزؤه الثاني قيد الإعداد منذ نُشر الجزء الأول عام 1867.

كان ماركس يتابع نقديًا أيضًا الأحداث السياسية والاقتصادية العالمية المعاصرة، محاولًا توقع السيناريوهات الجديدة التي قد تقود إليها تلك التطورات في شأن تحرير الطبقة العاملة. وفي النهاية ساقته دماغه الموسوعية، بدافع من فضوله الذي لا يشبع، إلى الاستمرار في تحديث معلوماته ومتابعة آخر التطورات العلمية. نتيجة لهذا، سود ماركس في سنواته الأخيرة دزائن من الدفاتر بالملاحظات والمقتطفات من مجلدات عديدة في مجالات مختلفة، مثل الرياضيات والفسيولوجيا والجيولوجيا والتعدين والزراعة والكيمياء والفيزياء. وبجانب المقالات المنشورة في الدوريات، نقب ماركس سجلات برلمانية ومواد إحصائية وتقارير ومطبوعات حكومية، كما في حالة الكتب الزرقاء. ونادرًا ما كان يقطع الوقت الذي كرسه ماركس لهذه الدراسات، بلغات مختلفة، شيء آخر. حتى إنجلز نفسه كان آسفًا لذلك، قائلًا إنه "فقط بصعوبة شديدة" كان يمكنه "إقناع ماركس بمغادرة غرفته".[27] ولكن بعيدًا عن تلك الحالات الاستثنائية، لم يكن ماركس يغادر غرفته إلا لأخذ القسط المعتاد من الراحة، أو لإجراء اللقاءات.

وقبيل الغروب، كان ماركس يرتدي معطفًا ويتوجه إلى متنزه ميتلاند المجاور حيث كان يحب التنزه مع حفيده الأكبر جوني، أو إلى هامستيد هيث الأبعد قليلاً، حيث أمضى العديد من أيام الآحاد المبهجة مع عائلته.

ببلاغة وصفت إحدى صديقات ابنته الصغرى، الممثلة ماريان كومين، الصورة التي غالبًا ما كانا يشاهداها:

مرات كثيرة، عندما كنا إليانور وأنا نجلس على السجادة أمام موقد غرفة الاستقبال، نتحدث في وقت الغسق، كنا نسمع الباب الأمامي يغلق بلطف، وبعدها مباشرة تظهر صورة الدكتور (ماركس) مرتديًا معطفًا أسود وقبعة لينة (وشكله يبدو للعالم كله، كما لاحظت ابنته، كواحد من ضمن جوقة للمتآمرين)، وهو يمر بجانب النافذة، ولا يرجع حتى حلول الظلام.[28]

---

[25] في يوليو عام 1870، قام إنجلز بصفته أحد الورثة في معمل "وارمين اند إنجلز" لصناعة الخيوط، ببيع حصته والحصول على المال الكافي لضمان حياة كريمة له ولأسرة ماركس.

[26] Karl Marx to Nikolai Danielson, 19 February 1881, in MECW, vol. 46, p. 61.

[27] انظر Karl Kautsky, in Hans Magnus Enzensberger (ed.), Gespräche mit Marx und Engels. Frankfurt/Main: Insel Verlag, 1973, p. 556.

[28] كومين، مرجع سبق ذكره، ص163 .

أحد أوقات الاسترخاء الأخرى كان ذلك الذي يقضيه ماركس في اجتماعات ما يطلق عليه نادي دوجبيري، وهذا اسم مأخوذ من إحدى شخصيات مسرحية "ضجيج كثير حول لا شيء" لويليام شكسبير (1564–1616). كانت تلك الاجتماعات تتضمن قراءات من أعمال شكسبير ووجبات عشاء تعد لإنجلز وغيره من أقرب الأصدقاء، بالإضافة إلى أصدقاء بنات ماركس".[29] أما السخرية التي استخدمها ماركس لوصف ما يشعر به خلال تلك الأمسيات، فلم تكن أقل حدة من تلك التي اعتاد على استخدامها في هدم خصومه النظريين: "إنه لأمر غريب أن المرء لا يستطيع أبدًا العيش بدون رفقة، ثم عندما تحصل على الرفقة، تحاول بقوة تخليص نفسك منها".[30]

لم تمنع الصعوبات في منزل ماركس العائلة من الانفتاح على الزوار من مختلف البلدان، الذين جاءوا للتحدث وجها لوجه مع الاقتصادي البارز والثوري الشهير. شملت قائمة الزوار في عام 1881 نيكولاي زايبر المولود في شبه جزيرة القرم (1844–1881)، وأستاذ جامعة موسكو نيكولاي كابلوكوف (1849–1919)، والصحفي الألماني وعضو الرايخستاج في المستقبل لويس فيريك (1851–1921)، والاشتراكي الديمقراطي القديم فريدريك فريتشيه (1825–1905)، والشعبوي الروسي ليو هارتمان (1850–1908). وهناك آخرون كانوا يترددون على منزل ميتلاند بارك، مثل كارل هيرش (1842–1900)، وهو صحفي منتم إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وهنري هيندمان (1842–1921) الذي أسس الاتحاد الديمقراطي في إنجلترا في وقت سابق من ذلك العام (1881)، وكارل كاوتسكي (1854–1938) وهو شاب اشتراكي من براج جاء إلى لندن لتعميق معرفته بالسياسة من خلال علاقاته مع ماركس وإنجلز، وقد كان مقدرًا له أن يصبح واحدًا من المنظرين المؤثرين في الحركة العمالية.

لم يتمكن أحد ممن تواصلوا مع ماركس من مقاومة سحر شخصيته أو الإفلات من الاندهاش من هيئته الجسمانية. السياسي الإسكتلندي ماونتستيوارت الفيينستون (1829–1932) الذي التقى به في بداية عام 1879، وجد أن: "نظرته قاسية إلى حد ما، لكن التعبير الآتي من عينيه مريحًا إلى حد كبير، ليس بأي حال كذلك الآتي من رجل اعتاد على افتراس الأطفال في مخادعهم– وهو ما أجرؤ على القول إنها رؤية الشرطة له".[31]

كان إدوارد برنشتاين (1850–1932) أيضا مفتونًا بإنسانية ماركس وتواضعه: "توقعت أن أتعرف على رجل عجوز محبط سريع التهيج، غير أني وجدت نفسي أمام رجل أبيض الشعر، عيناه القاتمتان تبتسمان ابتسامة ودية، وحديثه مليء بالمحبة".[32]

---

[29] انظر كومين، مرجع سبق ذكره، ص 161.

[30] Karl Marx to Jenny Longuet, 11 April 1881, in MECW, vol. 46, p. 82.

[31] s.n., '(Sir Mountstuart Elphinstone Grant Duff's Account of a Talk with Karl Marx: From a Letter to Crown Princess Victoria)', 1 February 1879, in MECW, vol. 24, p.

[32] Edward Bernstein, My Years of Exile. London: Leonard Parsons, 1921, p. 156.

ويتذكر كاوتسكي أن "ماركس كانت له نظرة جليلة كنظرة البطريرك"[33]، وأنه كان يطلق "ابتسامة رقيقة تبدو تقريبًا أبوية".[34] وأنه على عكس إنجلز الأنيق دومًا، لم يكن "يهتم بالأناقة المظهرية".[35]

وقد وصفت ماريان كومين سماته بدقة: "كانت شخصيته قوية ومهيمنة بشكل استثنائي. رأسه كبير، يغطيه شعر رمادي طويل يتوافق مع لحية وشارب أشعثين؛ العيون السوداء رغم صغرهما، متفحصتان، حادتان، وساخرتان، وبهما ومضة من البهجة... كان لطيفًا كمستمع، غير منتقد أبدًا، ودائمًا يقفز إلى قلب أي طرفة، يضحك عندما يسمع شيئًا يبدو له فكاهيًا إلى أن تتساقط دموعه على وجنتيه. كان الأكبر سنًا بيننا، لكن روحه كانت شابة مثل أي شخص فينا".[36]

إذا كان منزل ماركس يعج بالحيوية، فإن صندوق بريده كذلك كان متخمًا دائمًا برسائل ترد إليه أسبوعيًا من الناشطين والمفكرين من مختلف البلدان. كان مرسلو تلك الرسائل يأملون في استشارة قائد رابطة العمال الدولية بخصوص الأحداث السياسية الكبرى الجارية ويطلبون اقتراحاته بشأن قرارات أو خطوات عمل معينة.

في خلفية حياة ماركس كان يكمن مناخ إنجلترا الرمادي الممطر. فكما كتب لنيكولاي دانيلسون (1844–1918) في فبراير 1881، أنه رغم أن صحته "كانت تتحسن بشكل عام منذ عودته من رامسجيت، إلا إن الطقس الرهيب، الذي استمر عدة أشهر، كان سببًا في إصابته بحالة برد مستمر وسعال كان يجبره على عدم النوم."[37] ومما كان يدعو إلى القلق أن صحة جيني ساءت أكثر في هذا الشتاء، ومع عودة الربيع اضطر ماركس إلى استدعاء أخصائي جديد، هو برايان دونكين (1842–1927) على أمل العثور على علاج لزوجته.

اطلع ماركس صديقه الروسي دانيلسون على حدث آخر سبب له شعورًا بالإحباط. فقد سمح عفو حكومي فرنسي صدر في يوليو 1880 بعودة مئات من الثوريين الذين فروا إلى الخارج هربًا من قمع ما بعد الكوميونة (1871). ورغم أن الخبر في حد ذاته كان بالقطع مدعاة لسعادة ماركس، إلا أن تداعياته الشخصية كانت مؤلمة بلا شك. وذلك لأن زوج ابنته الكبرى جيني على مدى عشرة سنوات، الصحفي تشارلز لونج، عُرض عليه منصب محرر مشارك لجريدة العدالة، وهي جريدة ثورية أسسها جورج كليمنصو (1841–1929)، وهو ما يعني أنه قد أصبح بإمكانه الرجوع هو وأطفاله إلى العاصمة الفرنسية. وقد سبب هذا الفراق حزنًا كثيرًا لماركس وزوجته، حيث أن "أحفادهما الثلاثة (...) كانوا مصادر لا تنضب للمتعة، وللحياة".[38]

---

[33] Karl Kautsky, in Enzensberger (Ed.), Gespräche mit Marx und Engels, op. cit., p. 556.

[34] المرجع السابق، ص 558.

[35] المرجع السابق، ص 556.

[36] كومين، مرجع سبق ذكره، ص 161.

[37] Karx Marx to Nikolai Danielson. 19 February 1881, in MECW, vol. 46, p. 60.

[38] المرجع السابق ص 61.

كان هناك شعور دائم بغياب الأحفاد خلال الأشهر التالية، وتناوبت على ماركس مشاعر الفرح والحزن. وفي رسائله إلى جيني كان يسألها دائمًا عن أخبار الأطفال:

ينتابني شعور دائم بالملل منذ أن غادرتي- بدونك أنت وجوني وهارا والسيد شاي (Mr Tea)![39] أحيانًا أجري إلى النافذة عندما أسمع أصوات أطفال تشبه صوت أطفالنا، وأنسى للحظة أن الصغار الثلاثة هناك وراء الضفة الأخرى من القناة.[40]

وفي نهاية أبريل، عندما وضعت جيني حفيدته الرابعة، هنأها ماركس ممازحًا وكتب أن "الإنسانية المؤنثة (womankind) توقعت أن يزيد القادم الجديد من أعداد النصف الأجمل من السكان". وأضاف: "من جهتي، أفضل الجنس الذكوري للأطفال الذين يولدون في هذه اللحظة الفاصلة في التاريخ. ففي انتظارهم أكثر اللحظات التي مرت بها البشرية ثورية".[41]

نجم عن تلك الاعتبارات، التي تختلط فيها الآمال السياسية بالتصورات المسبقة التي كانت تمثل قاسمًا مشتركًا لدى الرجال في عصره، انشغالان رئيسيان. الأول شخصي تمامًا، وقد تسبب فيه شعوره بالأسف لأنه غير قادر على مساعدة ابنته جيني التي كانت تعاني آنذاك مشقة الحياة في باريس، الأمر الذي ذكره بمعاناته هو شخصيًا لفترة طويلة. وفي رسالته إليها، مرر ماركس لابنته أمنيات زوجته بحدوث "كل الأشياء الجيدة الممكنة"، لكنه لم يرى أن تلك "الأمنيات" كانت جيدة في أي شيء سوى أن "تساعد المرء على الهروب من شعوره بالعجز". أما الانشغال الثاني فهو سياسي، وقد ارتبط بإدراكه أنه لن يعيش ليشارك في تجربة النضالات الجديدة والمفعمة بالحماس للحركة العمالية الدولية: "الشيء المؤسف الآن هو أن تكون عجوزًا إلى درجة أنك تستطيع فقط أن تتنبأ بدلًا من أن تشاهد".[42]

لكن لسوء الحظ، ازدادت جميع المشكلات سوءًا. ففي بداية شهر يونيو، أخبر ماركس سوينتون أن مرض زوجته "يأخذ طابعًا مميتًا أكثر فأكثر".[43] أما هو نفسه، فقد استمر يعاني من اضطرابات جديدة، واضطر أن يتحمل الحمامات التركية بسبب ساقه المصابة بالروماتيزم.[44] وكانت لديه أيضًا نوبات برد "أبدي" مقرف، على الرغم من أنها الآن تقريبًا "تنتهي بسرعة". كذلك، افتقد ماركس كثيرًا ابنته الكبرى

---

[39] هذه كانت أسماء التدليل التي أطلقها ماركس على أحفاده الثلاثة: جان وهنري وإدجار لونج. وقد ذكر الحفيد الأصغر في وقت لاحق أن جده "كان يلعب مع الأطفال كما لو كان هو نفسه طفلًا، دون أن يخشى بأي درجة أنه قد يفقد هيبته. وفي شوارع الحي كان يطلق عليه "بابا ماركس". كان يحمل دائما الحلوى في جيبه ليعطيها للأطفال. في وقت لاحق، نقل هذا الحب إلى أحفاده (Edgar , Longuet, in Enzensberger (ed.), Gespräche mit Marx und Engels. op. cit., p. 579.) يذكر بيبل أن ماركس كان يعرف كيف يلعب مع الأحفاد وأنه كان يكن لهم مقدارا كبيرا من الحب. أغسطس بيبل، المرجع السابق، ص 528؛ Liebknecht إن "مرافقة ماركس للأطفال كانت بالنسبة له بمثابة احتياج: أمر ينعش روحه ويجددها"، Liebknecht، في المرجع السابق، ص 541؛ وهيندمان أن "الأطفال أحبوه ولعبوا معه كأحد أصدقاءهم"، هيندمان، سيرة حياة مغامر، مرجع سابق، سبق ذكره، ص 259.

[40] Karl Marx to Jenny Longuet, 11 April 1881, in MECW, vol. 46, p. 81.

[41] Karl Marx to Jenny Longuet, 29 April 1881, in MECW, vol. 46, p. 89.

[42] المرجع السابق.

[43] Karl Marx to John Swinton, 2 June 1881, in MECW, vol. 46, p. 93.

[44] Karl Marx to Jenny Longuet, 6 June 1881, in MECW, vol. 48, p. 95.

وأحفاده: "لا يكاد يمر يوم دون أن أفكر فيك وفي أطفالك الرائعين". وقد أرسل إلى حفيده جوني نسخة من "الثعلب رينارد" من أعمال يوهان فولفجانج فون جوته (1749–1832) وتساءل إذا كان "هذا المسكين" لديه "شخص ما يقرأه له". مر النصف الأول من عام 1881 وسط هذه الصعوبات. أما النصف الثاني، فسيكون أسوأ من ذلك.

2. بين الأنثروبولوجيا والرياضيات

لكن ماركس استمر يعمل كلما أتاحت الظروف. فعلى خلاف زعم بعض رواة سيرته أن فضوله الذهني وفطنته النظرية شحبا في سنواته الأخيرة، إلا أن الحق أنه لم يستمر في بحثه حتى ذلك السن فحسب، بل اقتحم حقولًا بحثية جديدة.[45]

وفي فبراير كتب ماركس إلى دانيلسون: "إن مديونية هائلة من المراسلات (يقصد رسائل عديدة هو مدين لكتابها بالرد عليهم –المترجم) تحدق في وجهي". والسبب في ذلك كان، بدرجة كبيرة، انغماسه في دراسات جديدة وتصميمه "على الكدح في قراءة كتب زرقاء كثيرة ارسلت من دول مختلفة، بالذات من الولايات المتحدة".[46]

تركزت اهتمامات ماركس البحثية بين ديسمبر 1880 ويونيو 1881 على فرع معرفي آخر: الأنثروبولوجيا. بدأ بكتاب "المجتمع القديم"، وهو عمل لعالم الأنثروبولوجيا الأمريكي لويس مورجان (1818–1881)، رجع به الإثنولوجى الروسي ماكسيم كوفاليفسكي (1851–1916) من رحلته إلى أمريكا الشمالية وأرسله إلى ماركس بعد عامين من نشره.

ما لفت انتباه ماركس كانت الطريقة التي عالج بها مورجان الإنتاج والعوامل التكنولوجية كشروط مسبقة للتقدم الاجتماعي، وهو ما دفعه لتسويد مائة صفحة دسمة من الملاحظات والتعليقات. تشكل هذه

---

[45] في عام 1918، وصف فرانز ميهرنج في كتابه Karl Marx: The Story of His Life. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1962 الزعم بأن العقد الأخير من حياة ماركس كان "موتا بطيئًا" هو أمر "مبالغ فيه جدا"، ص 501. لكنه عاد وأكد أيضًا، بشكل خاطئ، أن ماركس "منذ عام 1878 لم يقم بأي عمل لاستكمال عمله الرئيسي"، ص 526. أما ديفيد ريازانوف، فقد قال في عام 1923 إنه "على الرغم من أن ماركس فقد في 1881-1883 بعضا من قدرته على العمل المبدع، وانخفضت قدرته على الإبداع، لكنه لم يفقد أبدًا رغبته وقدرته على البحث" (Neueste Mitteilungen über den literarischen Nachlaß von Karl Marx und Friedrich Engels', in Archiv für die Geschichte des Sozialismus und der Arbeiterbewegung, vol. 11 (1925), p. 386.). وفي عام 1929، وفي كتابه عن كارل ماركس، قال كارل فورلاندر إن بالنسبة لرجل نضج في وقت مبكر جدًا، ولكنه عانى الكثير من الاختبارات، ينمو أيضا العمر الجسدي في وقت مبكر عن كثير من الناس" (ص248)، مضيفًا أنه: "من 1878 شعر في كثير من الأحيان وبدرجة أكبر من أي وقت أنه غير قادر على العمل" (ص261). بعد ذلك بعقد من الزمان، ردد (أشعيا برلين) قائلًا: "لقد صار يكتب أقل كثيرًا وينمو لديه أسلوب أسوأ وأكثر غموضًا". بعد ذلك بعقد من الزمان، ردد أشعيا برلين أن ماركس "كتب أقل فأقل، ونما أسلوبه أكثر غموضا وتفككا" (Karl Marx: His Life and Environment. London: Oxford University Press, 1963, p. 280.). كانت الفترة الأخيرة من عمل ماركس صعبة بالتأكيد، وغالبًا أيضًا متعرجة، ولكنها كانت مهمة جدًا نظريًا.

[46] Karl Marx to Nikolai Danielson, 19 February 1881, in MECW, vol. 48, p. 61.

الصفحات الجزء الأكبر مما يعرف باسم "الدفاتر الإثنولوجية"[47] التي تحتوي كذلك على مقتطفات من أعمال أخرى –مثل: "جاوا أو كيف تدير مستعمرة" (1861) من تأليف جيمس موني، وهو محام وخبير في شئون إندونيسيا؛ "القرية الآرية في الهند وسيلان" (1880) لجون فيير (1825–1905) رئيس المحكمة العليا في سيلان، "محاضرات حول التاريخ المبكر للمؤسسات" (1875) للمؤرخ هنري مين (1822–1888)– وهو ما يضيف لتلك الدفاتر مائة صفحة أخرى.[48] إن التقييمات المقارنة التي قام بها ماركس لأعمال هؤلاء المؤلفين، تقود المرء إلى الافتراض بأنه جمع كل هذه المواد في فترة قصيرة نوعًا ما في محاولة لهضمها بالكامل.

كان ماركس قد فحص في دراساته السابقة الأشكال الاجتماعية والاقتصادية السابقة (على الرأسمالية) وعلق عليها بشكل مكثف، وذلك في الجزء الأول من "الأيديولوجيا الألمانية"، وفي القسم الطويل من "الجروندريسة" المعنون "الأشكال السابقة على الإنتاج الرأسمالي"، وفي المجلد الأول من "رأس المال". وفي 1879، قادته قراءته للنسخة الروسية من كتاب "الملكية الجماعية للأرض" (1879) لكوفاليفسكي إلى الموضوع مجددًا. ولكنه لم ينخرط في بحث عميق ومحدّث لهذه المسألة إلا أثناء كتابته للدفاتر الإثنولوجية.

كان دافع ماركس لهذا البحث العميق هو توسيع معرفته بالمراحل التاريخية والمناطق الجغرافية والمواضيع النوعية التي اعتبرها ضرورية حتى يتقدم في نقده للاقتصاد السياسي. علاوة على ذلك، مكنت تلك البحوث ماركس من اكتساب معلومات محددة حول الخصائص الاجتماعية والمؤسسات التي تواجدت في الماضي البعيد، وهو ما أدى إلى إلمامه بمواد لم تكن بحوزته عندما كتب مخطوطات خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر. وأخيرًا، ساعدت هذه البحوث ماركس على الاطلاع على أحدث النظريات التي قدمها أبرز العلماء المعاصرين.

كرس ماركس نفسه لهذه الدراسات، التي استهلكته إلى حد كبير، خلال الفترة نفسها التي كان يهدف فيها إلى استكمال المجلد الثاني من "رأس المال". هو لم يشغل نفسه بالأنثروبولوجيا فقط لإشباع فضوله المعرفي، بل كان له هدف نظري سياسي عميق. إذ أنه أراد أن يعيد بناء التسلسل التاريخي الأكثر احتمالًا لتعاقب أنماط الإنتاج المختلفة. اعتقد ماركس أن هذا البحث من شأنه أن يعطي نظريته حول التحول الشيوعي المحتمل للمجتمع أسسًا تاريخية أقوى.[49]

---

[47] وُضع هذا العنوان بعد وفاة ماركس من قبل لورانس كرادر محرر هذه المخطوطات. في الواقع، يرتبط محتوى هذه الدراسات بشكل أكثر دقة بالأنثروبولوجيا، ولهذا السبب لا يشير المؤلف إلى الإثنولوجيا.

[48] Karl Marx, The Ethnological Notebooks of Karl Marx, Lawrence Krader (ed.). Assen: Van Gorcum, 1972. لم يقم ماركس بتأريخ هذا العمل. لكن الباحث الرئيسي في تلك النصوص، كرادر، يزعم أن ماركس تعرف أولًا على كتاب مورجان ثم قام بتجميع المقتطفات. انظر أيضًا شهادة كاوتسكي، من رحلته إلى لندن في مارس - يونيو 1881. "دراسات ما قبل التاريخ والإثنولوجيا كانوا محل اهتمام مكثف من ماركس"، نقلا عن in Enzensberger (ed.), Gespräche mit Marx und Engels, op. cit., p. 552.

[49] حول تلك النقطة، انظر- the observations in Pierre Dardot and Christian Laval, *Marx, prénom Karl*. Paris: Gallimard, 2012, p. 667.

لهذا وضع ماركس في الكراسات الإثنولوجية تجميعات وملاحظات مثيرة للاهتمام حول ما قبل التاريخ، وتطور الروابط الأسرية، ووضع المرأة، وجذور علاقات الملكية، والأنشطة المجتمعية في مجتمعات ما قبل الرأسمالية، وتشكّل وطبيعة سلطة الدولة، ودور الفرد، وكذلك حول مسائل أقرب زمنيًا مثل الدلالات العنصرية لبعض المقاربات الأنثروبولوجية وآثار الاستعمار.

وبخصوص موضوع ما قبل التاريخ وتطور الروابط الأسرية، استخلص ماركس من أعمال مورجان عددًا من المؤشرات التي لا تقدر بثمن. فكما يذكر هيندمان: "عندما برهن لويس هنري مورجان في كتابه "المجتمع القديم"، إرضاءً لماركس، أن العشيرة[50]، وليست الأسرة، كانت الوحدة الاجتماعية المكوّنة للأنظمة القبائلية القديمة وللمجتمع القديم عمومًا، تخلى ماركس فورًا عن آرائه السابقة".[51]

كانت بحوث مورجان حول البنية الاجتماعية للشعوب البدائية هي التي أتاحت له تخطى حدود التفسيرات التقليدية للقرابة، بما في ذلك التفسير الذي قدمه المؤرخ الألماني بارتولد نيبور (1786–1831) في كتابه "التاريخ الروماني" (12–1811). فعلى النقيض من جميع الفرضيات السابقة، كشف مورجان أن من الخطأ الكبير الاعتقاد بأن "العشيرة قد تلت الأسرة القائمة على الزواج الأحادي" وأنها تكونت كنتيجة "لتجمع عدد من الأسر."[52] وقد قادته دراساته لمجتمعات ما قبل التاريخ وللمجتمعات القديمة إلى استنتاج مفاده أنه لا ينبغي النظر إلى الأسرة البطريركية باعتبارها الوحدة الأولى الأساسية التي قام عليها المجتمع، وإنما كشكل من أشكال التنظيم الاجتماعي الأحدث زمنيًا مما كان يُعتقد بوجه عام. فالأسرة البطريركية كانت تكوينًا "شديد الضعف بحيث لا يمكن أن يواجه مصاعب الحياة بمفرده".[53] لذا فالأكثر معقولية بكثير كان افتراض وجود شكل مثل ذلك الموجود بين الشعوب الأصلية في أمريكا –العائلة السنديا‌سمية sindiasmic– التي كانت تمارس "الشيوعية في حياتها".[54]

من ناحية أخرى، حاجج ماركس باستمرار ضد مين، الذي قام في كتابه "محاضرات حول التاريخ المبكر للمؤسسات" بتصوير "العائلة الخاصة" (private family) على أنها "الأساس الذي تتطور من خلاله الأفخاذ والعشائر". قاد استهزاء ماركس بهذه المحاولة التي تعكس اتجاه الزمن بإسقاطها صورة الحقبة الفيكتورية على مجتمعات ما قبل التاريخ، إلى التأكيد على أن "هذا الرجل الإنجليزي محدود التفكير لم يبدأ من العشيرة ولكن من البطريرك، الذي أصبح فيما بعد رئيسًا –"ما هذه التفاهات الفارغة!"[55] وتدريجيًا وصلت سخرية ماركس إلى ذروتها: "في نهاية المطاف، مين لا يمكنه إبعاد الأسرة الإنجليزية الخاصة

---

[50]كانت هذه العشائر قائمة على رابطة الدم والانحدار من أصل مشترك. انظر Henry Morgan, Ancient Society. New York: Henry Holt, 1877, p. 35

[51] Hyndman, Record of an Adventurous Life, op. cit., pp. 253-4.

[52]مورجان، مرجع سبق ذكره، ص 515.

[53]المرجع السابق، ص472 .

[54] Marx, The Ethnological Notebooks of Karl Marx, op. cit., p. 115.

[55]المرجع السابق، ص292.

عن تفكيره"؛[56] إنه "يضع الأسرة الرومانية البطريركية في البداية الأولى للأشياء".[57] كما أن فيير أيضًا لم ينجو من حدة نقد ماركس الساخر، حيث قال عنه: "هذا الحمار يبني كل شيء على الأسر الخاصة!"[58]

أعطى مورجان لماركس مادة إضافية للتفكير بملاحظاته حول مفهوم العائلة، حيث أن المعنى الأصلي لكلمة family –التي لها نفس الجذر اللغوي الذي لكلمة famulus أو الخادم– ليس له علاقة بالزوجين وأطفالهما، بل هو يشير إلى جماعة العبيد والخدم الذين عملوا من أجل الحفاظ على (هذه المؤسسة الاجتماعية) وكانوا تحت سلطة رب الأسرة pater familias.[59] وفي هذا الصدد، لاحظ ماركس الآتي:

"تحتوي العائلة الحديثة ليس فقط على بذرة العبودية ولكن كذلك على بذرة القنانة، وذلك لأنها تحتوي منذ بدايتها على علاقة بالخدمات الزراعية. إنها تحتوي بداخلها بشكل مصغر على كل التضادات التي تتطور لاحقًا بشكل عام إلى المجتمع والدولة... إن العائلة أحادية الزواج، من أجل أن يكون لها وجود منفصل عن الآخرين، تفترض مسبقًا وجود طبقة منزلية كانت تتشكل في كل مكان من العبيد مباشرة.[60]

مطورًا أفكاره في موضع آخر من تلك الاستخلاصات الوافية، كتب ماركس أن: "ملكية المنازل والأراضي وقطعان الماشية" كانت مرتبطة بـ"العائلة الأحادية".[61] وفي الواقع، وكما طرح "بيان الحزب الشيوعي"، كانت هذه نقطة انطلاق التاريخ كـ"تاريخ للصراع الطبقي".[62]

في كتاب "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة" (1884) –وهو الكتاب الذي وصفه مؤلفه بأنه "تنفيذ لوصية" وليس سوى "بديل ضئيل" لعمل لم يمهل القدر "صديقه العزيز" ليكتبه–[63] أكمل إنجلز تحليل ماركس في الدفاتر الإثنولوجية. وفقًا لإنجلز يمثل الزواج الأحادي:

إخضاعًا من أحد الجنسين للجنس الآخر، كإعلان عن صراع بين الجنسين لم يكن معروفًا طوال التاريخ السابق. ففي مخطوطة قديمة غير منشورة، كتبتها أنا وماركس عام 1846، أقول ما يلي: "التقسيم الأول للعمل هو تقسيم العمل بين الرجل والمرأة لتربية الأطفال".[64] *واليوم يمكن أن أضيف: "التناقض الطبقي*

---

[56] المرجع السابق، ص309.

[57] المرجع السابق، ص324.

[58] المرجع السابق. ص281.

[59] مورجان، مرجع سبق ذكره، ص496.

[60] Karl Marx, The Ethnological Notebooks of Karl Marx, op, cit., p.151.

[61] المرجع السابق، ص21.

[62] Karl Marx and Friedrich Engels, Manifesto of the Communist Party, in MECW, vol. 6, p. 482. في ملاحظة مكتوبة خصيصًا لطبعة 1881 الإنجليزية من "بيان الحزب الشيوعي"، كتب إنجلز التالي: "لقد وضح التنظيم الداخلي لهذا المجتمع الشيوعي البدائي في شكله النموذجي بفضل الاكتشاف العظيم للويس هنري مورجان للطبيعة الحقيقية للعشيرة وبيان علاقتها بالقبيلة. ومع تفكك المجتمعات البدائية، يبدأ المجتمع في التمايز إلى طبقات منفصلة سرعان ما تتحول إلى طبقات متعادية بصفة نهائية". المرجع نفسه.

[63] Engels, The Origin of the Family, Private Property and the State, in MECW, vol. 26, p. 131.

[64] يشير إنجلز إلى مخطوط ماركس وإنجلز "الأيديولوجيا الألمانية" في-MECW, vol. 5, p. 44. See the part of the so called 'Chapter One. Feuerbach'.

الأول الذي ظهر في التاريخ، تزامن مع تطور التناقض بين الرجل والمرأة في الزواج الأحادي، وأول اضطهاد طبقي حدث في التاريخ كان ذلك الذي تعرضت له النساء من قبل الرجال. الزواج الأحادي... (هو) الشكل الخليوي الأول للمجتمع المتحضر؛ الشكل الذي يمكننا فيه بالفعل دراسة طبيعة التضادات والتناقضات، التي تتطور بشكل كامل في المجتمع.[65]

كذلك أعطى ماركس اهتمامًا فاحصًا لتصورات مورجان حول التكافؤ بين الجنسين، التي طرح فيها هذا الأخير أن المجتمعات القديمة قبل اليونان كانت أكثر تقدمية فيما يتعلق بمعاملة وسلوك النساء. نقل ماركس الأجزاء من كتاب مورجان التي يبين فيها هذا الأخير كيف أن "تغيير نَسَب الأبناء من الأم إلى الأب بين اليونانيين كان ضارًا بمكانة وحقوق الزوجة والمرأة". والحق أن مورجان كان له تقييم سلبي للغاية للنموذج الاجتماعي اليوناني. "لقد ظل اليونانيون في أوج حضارتهم برابرة في معاملتهم للنساء؛ كان تعليمهن سطحيًا... وقد غُرست دونيتهن في أذهانهن كمبدأ، حتى أصبحت مقبولة كحقيقة من قبل النساء أنفسهن". وعلاوة على ذلك، كان هناك مبدأ من الأنانية المحسوبة بين الذكور، يميل إلى التقليل من تقدير النساء، نادرًا ما وجد بين الهمج". ثم أضاف ماركس ملاحظة ثاقبة بالتفكير في التضاد مع أساطير العالم الكلاسيكي: "إن وضع آلهات الأوليمب يذكرنا بوضع المرأة، الذي كان أكثر حرية وتأثيرًا يومًا ما. جونو متعطشة للسلطة، وإلهة الحكمة تنبع من رأس زيوس، إلخ".[66]

أعطت قراءة ماركس لمورجان زاوية نظر لمسألة أخرى مهمة: منشأ علاقات الملكية. حيث أن عالم الأنثروبولوجيا الشهير قد أقام علاقة سببية بين مختلف أنواع بنى القرابة من جهة، والأشكال الاجتماعية والاقتصادية من جهة أخرى. فمن وجهة نظر مورجان، العوامل الخاصة بالتاريخ الغربي التي ساهمت في تأكيد النظام الوصفي –التي وصفت أقرباء الدم، وحددت قرابة كل فرد (على سبيل المثال شقيق الأب يسمى عم وابن أخو الأب يسمى ابن عم)– وأدت إلى انحدار النظام التصنيفي –الذي قسم أقارب الدم إلى فئات دون تحديد درجة القرب من الذات (مثلًا شقيقي وابن شقيق أبي هما الاثنان أشقائي بالدرجة نفسها)– كان لها علاقة بتطور الملكية والدولة.[67]

ينقسم كتاب مورجان إلى أربع أجزاء: (1) نمو الذكاء من خلال الاختراعات والاكتشافات، (2) نمو فكرة الحكومة، (3) نمو فكرة العائلة، (4) نمو فكرة الملكية. غيّر ماركس هذا الترتيب إلى: (1) الاختراعات، (2) الأسرة، (3) الملكية، (4) الحكومة، وذلك لإيضاح الترابط الوثيق بين الملكية والحكومة.

جادل كتاب مورجان أيضًا بأنه على الرغم من أن "حقوق الثروة والرتبة والمكانة الرسمية" قد سادت على مدى آلاف السنين على معايير "العدالة والذكاء"، إلا أن الدلائل على أن "الطبقات الثرية" كانت ذات

---

[65] Engels, The Origin of the Family, Private Property and the State, pp. 173-4. في هذا العمل، نشر إنجلز بالفعل بعضًا من ملاحظات ماركس على كتاب مورجان .

[66] كارل ماركس، الدفاتر الإثنولوجية، مرجع سبق ذكره، ص 121.

[67] المرجع السابق ص123 وص104. انظر كذلك Maurice Godelier, Horizon, trajets marxistes en anthropologie, Paris; Francois Maspero 1973, pp. 178-9.

تأثير "مرهق" على المجتمع وفيرة.[68] نقل ماركس ما يقرب من صفحة كاملة من الصفحات الأخيرة في كتاب "المجتمع القديم"، حول التشوهات التي يمكن أن تولّدها الملكية؛ لقد انبنى التحليل في هذه الصفحة على مفاهيم ولّدت انطباع عميق عنده:

منذ ظهور الحضارة، كان نمو الملكية هائلًا للغاية، وأشكالها عديدة التنوع، واستخداماتها آخذة في التوسع، وإدارتها ذكية للغاية لصالح مالكيها، بحيث أصبحت تبدو، من جانب الناس، قوة لا تخضع لسيطرة. إن العقل البشري ليقف مذهولًا أمام هذا المخلوق الذي صنعه. ومع ذلك، فسيأتي الوقت الذي يرتفع فيه الذكاء البشري إلى مستوى يسود فيه على الملكية، ويحدد فيه علاقة الدولة بالملكية التي تحميها، وكذلك الالتزامات وحدود حقوق أصحابها. إن مصالح المجتمع تتفوق على المصالح الفردية، ويجب أن يُدمج الاثنين في علاقات عادلة ومنسجمة.[69]

رفض مورجان الاعتقاد بأن "المصير النهائي للبشرية" هو فقط السعي وراء جني الثروات. وقد أصدر تحذيرًا صارخًا:

إن تفكك المجتمع يدعو إلى إنهاء مسار أصبحت الملكية فيه هي الغاية والهدف، لأن مثل هذه المسار يتضمن عوامل للتدمير الذاتي. الديمقراطية في الحكم، والتآخي في المجتمع، والمساواة في الحقوق والامتيازات، والتعليم للجميع، يبشرون بالمستوى الآتي الأعلى من المجتمع الذي تتجه إليه الخبرة والذكاء والمعرفة بثبات. إن هذا "الشكل الاجتماعي الأرقى"[70] *سوف يكون إحياءً، في شكل أرقى من المجتمع، للحرية والمساواة والتآخي الذي كان عليهم الناس في المجتمعات العشائرية القديمة.*[71]

إذًا فالحضارة البرجوازية هي نفسها مرحلة انتقالية. فقد نشأت في أعقاب حقبتين ممتدتين، هما حقبتا "الدولة الوحشية" و"الدولة البربرية" (وفقًا للمصطلحات المتعارف عليها آنذاك)، اللتين جاءتا بعد إلغاء الأشكال المشاعية للتنظيم الاجتماعي. ولقد انهارت هذه الأشكال المشاعية عقب تراكم الملكية والثروة وظهور الطبقات الاجتماعية والدولة. إلا أنه عاجلًا أو أجلًا سيندمج كلا من التاريخ وما قبل التاريخ مرة أخرى.[72]

اعتبر مورجان أن المجتمعات القديمة ديمقراطية وتضامنية إلى حد كبير. وبخصوص الحاضر، فقد اقتصر على إظهار تفاؤله حول تقدم المجتمع البشري، دون أن يشير إلى ضرورة النضال السياسي. على أن ماركس لم يتخيل إحياء اشتراكي لـ"أسطورة الإنسان البدائي النبيل". هو لم يأمل أبدًا في الرجوع إلى

---

[68] Morgan, Ancient Society, op. cit., p. 551.

[69] Morgan, Ancient Society, op. cit., pp. 551-2.

[70] أضاف ماركس الكلمات الموجودة بين الأقواس، انظر Marx, The Ethnological Notebooks of Karl Marx, op. cit., p. 139.

[71] Morgan, Ancient Society, op. cit., pp. 551-2.

[72] انظر Godelier, Horizon, trajets marxistes en anthropologie, op. cit., pp. 178-9.

الماضي، لكنه –كما أوضح أثناء نقله من كتاب مورجان– آمل في "بزوغ شكل اجتماعي أرقى"[73] مؤسس على نمط جديد للإنتاج والاستهلاك، لن يتحقق من خلال تطور ميكانيكي، ولكن من خلال نضال طبقة عاملة واعية.

أثرت كل قراءات ماركس الأنثروبولوجية على تصوره لأصول ووظائف الدولة. فقد لخصت المقتطفات المأخوذة من مورجان دورها في الانتقال من البربرية للحضارة، بينما تركّزت ملاحظاته حول مين على تحليل العلاقات بين الفرد والدولة.[74] فبالتوافق مع نصوصه النظرية الهامة في هذا الموضوع، بداية من "نقد فلسفة القانون عند هيجل"[75] (1843) إلى "الحرب الأهلية في فرنسا" (1871)،[76] تقدم دفاتر ماركس الإثنولوجية أيضًا الدولة كقوة تُخضع المجتمع، وتمنع التحرر الكامل للفرد. وقد شدد ماركس، في الملاحظات التي كتبها عام 1881، على الطابع الطفيلي والانتقالي للدولة:

يتغاضى مين عن النقطة الأكثر عمقًا بكثير: أن الوجود المستقل والمتعالي ظاهريًا للدولة هو أمر ظاهري فحسب، وأنها في جميع أشكالها ليست أكثر من زائدة على المجتمع؛ فكما أن ظهورها ينشأ فقط في مرحلة محددة من التطور الاجتماعي، فهي كذلك تختفي مرة أخرى بمجرد أن يصل المجتمع إلى مرحلة لم يصل إليها بعد.

ألحق ماركس هذا بنقد للشرط الإنساني في ظل الظروف التاريخية المعطاة. إن تكوين المجتمع المتحضر، بانتقاله من نظام الملكية المشاعية إلى نظام الملكية الفردية، ولّد "فردية لا تزال... أحادية الجانب".[77] إذا كانت "الطبيعة الحقيقية... (للدولة) تظهر فقط عندما نحلل محتواها"، أي "مصالحها"، فهذا يبين أن هذه المصالح "مشتركة بين فئات اجتماعية معينة" وبالتالي فهي "مصالح طبقية". بالنسبة

---

[73] وفقا لكرادر: "بين ماركس، وهو الأمر الذي لم يفعله مورجان، أن عملية إعادة البناء هذه ستحدث على مستوى مختلف عن القديم، أنه جهد سيقوم به البشر، من الإنسان ولأجل الإنسان، أن تناقضات الحضارة ليست ثابتة أو خاملة، ولكنها تتكون من مصالح اجتماعية مترابطة تتعارض أو تتوافق مع نتيجة إعادة البناء، وسيتم تحديد ذلك بطريقة نشطة وديناميكية"، Krader, 'Introduction', in Marx, The Ethnological Notebooks of Karl Marx, op. cit., p. 14. Marx, The Ethnological Notebooks of Karl Marx, op. cit., p. 139.

[74] المرجع السابق، ص19.

[75] في هذا العمل، حلل ماركس "التناقض" بين "المجتمع المدني" و"الدولة". الدولة ليست كامنة "داخل المجتمع" بل تنتصب في "مواجهته". "في الديموقراطية على وجه التحديد، الدولة هي مجرد شكل خاص... وقد فسر الفرنسيون هذا الأمر في الآونة الأخيرة على أنه يعني أن في الديمقراطية الحقيقية يتم إبادة الدولة السياسية. هذا صحيح إلى الدرجة التي لا تكون فيها الدولة السياسية... تعبر عن الكل"، Karl Marx, 'A Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Law', in MECW, vol. 3, pp. 78 and 30.

[76] بعد ثلاثين عامًا، أصبح نقده أكثر تركيزًا وأشد حدة: "بنفس الوتيرة التي تطورت وتوسعت بها الصناعة الحديثة، يتفاقم ويتكثف العداء الطبقي بين رأس المال والعمل، اتخذت سلطة الدولة أكثر فأكثر طابع السلطة القومية لرأس المال على العمل، كقوة عامة منظمة لفرض الاستعباد على المجتمع، كأداة للاستبداد الطبقي"، Karl Marx, The Civil War in France, in MECW, vol. 22, p. 329.

[77] Marx, The Ethnological Notebooks of Karl Marx, op. cit., p. 329. Cf. Krader's 'Introduction', in Ibid., p. 59.

لماركس، "الدولة قامت على الطبقات وتفترض وجودها المسبق". وهكذا فإن الفردية الموجودة في هذا النوع من المجتمعات هي "فردية طبقية"، تستند في التحليل الأخير "إلى افتراضات اقتصادية مسبقة". [78]

قدم ماركس أيضًا في المذكرات الإثنولوجية عددًا من الملاحظات حول الدلالات العنصرية في العديد من التقارير الأنثروبولوجية التي درسها.[79] كان رفضه لهذه الأيديولوجيا (العنصرية) حاسمًا، وقد علق بأسلوب لاذع على المؤلفين الذين عبروا عن تلك المفاهيم. وهكذا، فعندما استخدم مين نعوتًا تمييزية، تدخل ماركس قائلًا: "مرة أخرى هذا الهراء!" وكذلك فإن تعبيرات مثل "فليأخذ الشيطان هذه الرطانة الآرية"[80] تتكرر باستمرار في ملاحظات ماركس!

وفيما يتعلق بكتابي موني، "جافا، أو كيف تدير مستعمرة"، وفيير، "القرية الآرية في الهند وسيلان"، درس ماركس الآثار السلبية للوجود الأوروبي في آسيا. لم يكن مهتمًا على الإطلاق بآراء موني حول السياسة الاستعمارية، لكنه وجد كتابه مفيدًا في التفاصيل التي قدمها عن التجارة.[81] وقد تبنى مقاربة مشابهة لكتاب فيير، مركزًا بشكل رئيسي على ما ذكره هذا الأخير عن الدولة في البنغال ومتجاهلًا تصوراته النظرية الضعيفة.

تأثر المؤلفون الذين قرأ ماركس أعمالهم ولخصها في الدفاتر الإثنولوجية جميعًا، مع اختلافات طفيفة، بالمفاهيم التطورية للعصر، وأصبح بعضهم أيضًا من المؤيدين المتشددين لتفوق الحضارة البرجوازية. إلا أن فحص الدفاتر الإثنولوجية يظهر بوضوح أن تصوراتهم الأيديولوجية تلك لم يكن لها أي تأثير على ماركس.

افترضت نظريات التقدم المهيمنة في القرن التاسع عشر، والتي اشترك في الاعتقاد بها على نطاق واسع علماء الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا، أن الأحداث سوف تتبع مسارًا محددًا سلفًا، بسبب عوامل خارجة عن الفعل البشري: تعاقب جامد لا محيص عنه لمراحل التطور، يجد في العالم الرأسمالي محطته النهائية الوحيدة.

---

[78] Marx, The Ethnological Notebooks of Karl Marx, op. cit., p. 329.

[79] See Krader, 'Introduction', op. cit., p. 37, and Christine Ward Gailey, 'Community, State, and Questions of Social Evolution in Karl Marx's Ethnological Notebooks', in Jacqueline Solway (ed.), The Politics of Egalitarianism. New York-Oxford: Berghahn Books, 2006, p. 36.

[80] Marx, The Ethnological Notebooks of Karl Marx, op. cit., p. 324.

[81] انظر Fritjof Tichelman, 'Marx and Indonesia: Preliminary Notes', in Schriften aus dem Karl-Marx-Haus, xxx, Marx on Indonesia and India. Trier: Karl-Marx-Haus, 1983, p. 18. انظر أيضًا وجهة نظر إنجلز في موني: "سيكون أمرًا جيدًا إذا تحمل شخص ما عناء إلقاء الضوء على انتشار اشتراكية الدولة، مستخدمًا لهذا الغرض مثال مزدهر للغاية من التجربة في جاوا. يمكن العثور على جميع المواد المطلوبة لهذا في كتاب في "جاوا أو كيف تدير مستعمرة"... هنا يرى المرء كيف نظم الهولنديون الإنتاج، اعتمادًا على التنظيم الشيوعي القديم لتلك المجتمعات، لتحقيق مكاسب للدولة، وهو الأمر الذي ضمن أيضًا أن يتمتع الناس بما هو، في تقديرهم الخاص، وجودًا مريحًا إلى حد ما. والنتيجة هي أن الناس يظلون في حالة من الغباء البدائي، وتضمن خزانة الدولة الهولندية الحصول على 70 مليون مارك في السنة"، Friedrich Engels to Karl Kautsky, 16 February 1884, in MECW, vol. 47, pp. 102-3.

في غضون بضع سنوات فقط، ترسخ تصور ساذج عن التقدم التلقائي للتاريخ في الأممية (الاشتراكية) الثانية. أما الاختلاف الوحيد عن النسخة البرجوازية للتصور نفسه، فقد كان التنبؤ بأن المرحلة النهائية سوف تتلو "الانهيار" الحتمي للنظام الرأسمالي: تحديدًا، مجيء الاشتراكية (التي هي نفسها ستعرف فيما بعد بأنها "ماركسية!")[82]

لم يكن هذا التحليل خاطئًا من الناحية المعرفية فحسب، بل إنه أنتج نوعًا من السلبية القدرية، التي أصبحت أحد عوامل استقرار النظام القائم، وأضعفت النشاط السياسي والاجتماعي للبروليتاريا. وفي مواجهة تلك الرؤية، التي اعتبرها عديدون "علمية"، والتي مثلت قاسمًا مشتركًا بين الرؤيتين البرجوازية والاشتراكية للتطور، رفض ماركس نداءات التاريخانية أحادية المسار، واحتفظ برؤيته المركبة، المرنة، ومتنوعة المسارات.

وفي حين قد يبدو صوت ماركس مترددًا وغير واثق حينما نقارن رؤيته بالنبوءات الداروينية،[83] إلا إنه أفلت بالفعل من فخ الحتمية الاقتصادية الذي مال الكثيرون من أتباعه وأنصاره المزعومين إلى السقوط فيه –وهو موقف يبتعد سنوات ضوئية عن النظريات التي زعم هؤلاء الاتباع أنها ألهمتهم، الأمر الذي سيقود الكثيرين إلى واحدة من أسوأ المفاهيم المنسوبة إلى "الماركسية".

واصل ماركس في مخطوطاته ودفاتره، وفي رسائله إلى الرفاق والناشطين، وأيضًا في المداخلات العامة القليلة التي ظل بإمكانه القيام بها على خلفية المآسي العائلية وتدهور قدراته البدنية، جهوده لإعادة بناء التاريخ المعقد للانتقال من العصور القديمة إلى الرأسمالية. وقد استمد من الدراسات الأنثروبولوجية التي قرأها ولخصَها تأكيدًا بأن التقدم البشري قد سار بسرعة أكبر في العصور التي شهدت توسعًا في موارد المعيشة، منذ ولادة الزراعة فصاعدًا. كان يثمن المعلومات والبيانات التاريخية، لكنه لم يشارك في تبني المخططات الجامدة التي تفترض تعاقب حتمي لمراحل التطور في تاريخ البشرية.

رفض ماركس ربط التغيرات الاجتماعية بالتحولات الاقتصادية وحدها، بل على العكس سلط الضوء على خصوصية الشروط التاريخية، والإمكانيات المتعددة التي يتيحها مرور الزمن، ومركزية التدخل البشري في تشكيل الواقع وتحقيق التغيير.[84] كانت تلك هي السمات البارزة للتطور النظري عند ماركس في السنوات الأخيرة من حياته.

عاد ماركس في النصف الأول من عام 1881 إلى دراسة الرياضيات بجانب أبحاثه الإثنولوجية –وهذا تحد وضعه على عاتقه في عدة مناسبات سابقة. ففي أوائل عام 1858 كتب إلى إنجلز أنه قد ارتكب كثيرًا جدًا من الأخطاء الحسابية أثناء كتابة "الجروندريسة"، حتى أنه "وفي حالة من اليأس، فرض (على

---

[82] Cf. Marcello Musto,'The Rediscovery of Karl Marx', International Review of Social History, vol. 52 (2007), no. 3, pp. 479-80.

[83] See Alessandro Casiccia, 'La concezione materialista della società antica e della società primitiva', in Henry Morgan, La società antica. Milano: Feltrinelli, 1970, p. xvii.

[84] انظر Gailey, Community, State, and Questions of Social Evolution, op. cit., pp. 35 and 44

نفسه) القيام بمراجعة سريعة للجبر". "لم أشعر قط بأنني منسجم مع علم الحساب"، هذا ما اعترف به ماركس، "ولكن بالقيام بلفة سريعة في الجبر سأعود بسرعة إلى المجرى العادي للأمور".[85]

وهكذا فإن اهتمام ماركس بعلم الأعداد كان مرتبطًا في البداية بدراساته في الاقتصاد السياسي، والحاجة الملحة إلى حل بعض المشكلات النظرية التي طرحتها عليه هذه الدراسات. ولكنه ما أن انغمس في دراسة هذا العلم، حتى تغير موقفه تغيرًا عميقًا. فبصرف النظر عن أنها كانت مفيدة في "رأس المال"، أصبحت الرياضيات مصدرًا للاهتمام الثقافي في حد ذاتها، مكتسبة مكانًا خاصًا جدًا في انشغالاته الفكرية.

في أزمنة أبكر، بالتحديد في 1860، وعندما كانت زوجته مريضة بالجدري، وبناته مبعدين عنها خوفًا من العدوى، كتب ماركس، الذي كان يقوم بدور "الممرضة"، إلى إنجلز قائلًا: "كتابة مقالات للنيويورك تريبيون تقريبًا أمر غير وارد حاليًا. الانشغال الوحيد الذي يساعدني على الاحتفاظ بالهدوء الذهني اللازم هو الرياضيات".[86] واظب ماركس على هذه العادة حتى نهاية أيامه، وأكد على البهجة التي تقدمها له في العديد من الرسائل إلى إنجلز. وفي ربيع 1865، كتب أنه في فترات الراحة من العمل في كتاب "رأس المال" –الذي كان عليه أن "يعمل كالحصان" ليستكمله، وحيث كانت الدمامل، رغم استمرارها، "لا تشوش جمجته"– كان "يقوم ببعض الحسابات التفاضلية". "أي نوع آخر من القراءة يعيدني دائمًا إلى منضدة الكتابة خاصتي".[87] أبقى ماركس على هذه العادة خلال سبعينيات القرن التاسع عشر،[88] وبدءًا من نهاية هذا العقد، استمر فيها بطريقة أكثر منهجية، حيث كتب مئات الصفحات التي أصبحت تعرف باسم المخطوطات الرياضية.[89]

في عام 1881، ركز ماركس اهتمامه على النظريات الرياضية لإسحاق نيوتن (1643–1727) وجوتفريد فيلهلم لايبنيز (1646 1716)، اللذين ابتكرا بشكل مستقل عن بعضهما البعض،[90] الأول في إنجلترا والثاني في ألمانيا، حسابي التفاضل والتكامل، وهما العنصران المكونان للعمليات الحسابية متناهية الصغر. بعد دراسته لأعمالهما، كتب ماركس مخطوطتان قصيرتان –"حول مفهوم الدالة المشتقة" و"حول

[85] Karl Marx to Friedrich Engels, 11 January 1858, in MECW, vol. 40, p. 244.

[86] Karl Marx to Friedrich Engels, 23 November 1860, in MECW, vol. 41, p. 216.

[87] Karl Marx to Friedrich Engels, 20 May 1865, in MECW, vol. 42, p. 159.

[88] تذكّر إنجلز لاحقًا أنه قد حدث انقطاع بضعة سنوات في عمل ماركس على رأس المال: "كان هناك استراحة أخرى بعد عام 1870، ويرجع ذلك أساسًا إلى اعتلال صحة ماركس. وكالعادة استخدم ماركس هذه الفترة للدراسات: الاقتصاد الزراعي والعلاقات الريفية في أمريكا وفي روسيا، سوق المال والأعمال المصرفية، وأخيرًا العلوم الطبيعية مثل الجيولوجيا وعلم وظائف الأعضاء، وقبل كل شيء الأعمال الرياضية المستقلة؛ كل هذا يشكل محتوى المقتطفات العديدة لهذه الفترة". Friedrich Engels, 'Preface to the First German Edition', Capital, Volume II, in MECW, vol. 36, p. 7.

[89] انظر Sofya Yanovskaya, 'Preface to the 1968 Russian edition', in Karl Marx, Mathematical Manuscripts. London: New Park Publications, 1983, p. ix.

[90] نشأ نزاع ساخن بين نيوتن وليبنتز، حيث اتهم كل منهما الآخر بالسرقة الأدبية لأفكار زعم كل منهما أنه "وصل إليها أولًا". انظر Alfred Rupert Hall, Philosophers at War. Cambridge: Cambridge University Press, 1980, p. 234.

التفاضل"– وهما تعبران بشكل منهجي عن تأويله لحساب التفاضل وتشرحان المنهج الذي اكتشفه.[91] أهدى ماركس كلا النصين إلى إنجلز، وبمجرد انتهاءه منهما أرسلهما له ليسمع تقييمه.

ترافقت دراسات ماركس حول تاريخ حساب التفاضل بداية من نشأته مع كتابة ملاحظات عديدة ومسودات تمهيدية،[92] وخدمت هدف محدد: نقد أسس الحسابات متناهية الصغير، ودحض فكرة وجود رياضيات أولية قائمة على تفاضلات dx وdy.[93] وفي سياق هذا البحث، لاحظ ماركس بشكل خاص الأساس "الروحاني" للحساب التفاضلي الذي طوره نيوتن ولايبنيز، وهو أمر لم يقدم أي منهما أي تفسير رسمي لكيفية حدوثه. وقد انتقدهما ماركس لتقديمهما تلك النظرية دون تعريفها.[94]

هذا الجانب السلبي الذي لاحظه ماركس، فهمه أيضًا علماء رياضيات آخرون، مثل جان دالمبر (1717–1783) وجوزيف لويس لاجرانج (1736 1813)، الذين درس ماركس أطروحاتهما باهتمام كبير. لكن كلاهما فشلا في حل المشكلة التي لاحظها ماركس –الأول باستخدام المنهج العقلاني ومفهوم الحد، والثاني باستخدام الطريقة الجبرية البحتة ومفهوم الدالة المشتقة.

لكن ماركس، بعد أن ظل غير راض عما وصل إليه حتى بعد نهاية دراساته تلك، قرر البحث عن تعريف منضبط ورسمي لحساب التفاضل؛ تعريف مؤسس مفاهيميًا وليس "روحانيًا". لكنه لم يكن مطلعًا على أحدث البحوث حول هذا الموضوع، لأن معرفته بالكتابات المتخصصة توقفت مع اكتشافات بداية القرن التاسع عشر. لم تتح لماركس قراءة أعمال اثنين من علماء الرياضيات المعاصرين، أوجستين كوشي (1789 1857) وكارل فايرستراس (1815–1897)،[95] والتي ربما كانت ساعدته في التقدم نحو الهدف الذي حدده لنفسه.

أما إنجلز، فقد "استجمع الشجاعة" أخيرًا في أغسطس 1881 "لإجراء دراسة شاملة" لمخطوطات ماركس الرياضية، ثم كتب له مقدمًا تهانيه: "هنا أخيرًا أصبح بإمكاننا أن نرى بوضوح ما أبقى عليه طويلًا الكثير من علماء الرياضيات الذين لم يتمكنوا من إنتاج أسس عقلانية (لحساب التفاضل): أن خارج القسمة التفاضلي هو النموذج الأولي، في حين أن التفاضلات dx وdy مشتقة". انغمس إنجلز في هذا الأمر

---

[91] وضع ماركس مفهومه عن التفاضل الجبري ونموذج الحلول الحسابية للعثور على مشتقات لفئات معينة من الدوال. Augusto Ponzio, 'Introduzione. I manoscritti matematici di Marx', in Karl Marx, Manoscritti matematici. Milano: Spirali, 2005, p. 7.

[92] Marx, Mathematical Manuscripts, op. cit, pp. 35-106.

[93] انظر- Lucio Lombardo Radice, 'Dai 'manoscritti matematici' di K. Marx', in Critica marxista, 1972, 6, p. 273. استخدم ماركس في مخطوطاته كلمة "algebraic" للإشارة إلى أي مصطلح لا يحتوي على رموز مشتقة أو تفاضلية وكلمة "symbolic" للإشارة إلى المصطلحات التي تحتوي على الأرقام الخاصة لحساب التفاضل، مثل dx وdy. انظر Ponzio, 'Introduzione', op. cit., p. 26.

[94] دفاعًا عن نيوتن وليبنيز، لابد من الإشارة إلى أنه - بمحتويات ووجهات نظر مختلفة - قاموا بإنشاء طريقة الحساب هذه فقط كطريقة جبرية لحل بعض المشكلات الهندسية. لم يكونا مهتمين بتفسير أسسها، التي بقيت غامضة وغير محددة.

[95] وكذلك فإن اعتقاد ماركس أن الرمزية الرياضية لابد أن تعكس بدقة العمليات الواقعية في العالم الحقيقي سوف يعتبر اليوم ساذجًا.

ليس فقط إلى درجة أنه "ظل يدور في رأسه طوال اليوم"، ولكن كذلك إلى حد أنه "بالفعل شهد حلمًا في منامه، أعطى فيه لأحد رفاقه خيول سباقه ليجري عليهم حسابًا تفاضليًا، ثم هرب بالغنيمة".[96]

استمر النقاش حول تلك المسألة بين ماركس وإنجلز وصديقهما المشترك صامويل مور (1838–1911) حتى نهاية العام التالي. ظل ماركس مقتنعًا حتى نوفمبر 1882 أن بإمكانه استبعاد كل هذا التطور التاريخي للتحليل بالقول إنه من الناحية العملية لم يحدث أي تغيير جوهري في التطبيق الهندسي لحساب التفاضل، أي في الترميز الهندسي.[97] لكن على خلاف التوقعات، لن تتوفر لماركس أية فرصة أخرى لمواصلة بحثه في مكتبة المتحف البريطاني و"العودة إلى مناقشة تفصيلية حول الأساليب العديدة".

في هذه الفترة من حياته، لم يعد اهتمام ماركس بحساب التفاضل متعلقًا بعمله على المجلد الثالث من "رأس المال". فقد ركز أكثر على الرياضيات البحتة وليس على تطبيقاتها على الاقتصاد، في حين أنه في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر كان يريد "تحديد القوانين الرئيسية التي تنظم الأزمات (الاقتصادية) رياضيًا".[98] وليس كما زعم بعض الخبراء[99] أن ما يهمه كان أن يكتب نصًا رياضيًا خاصًا به.

على أن المخطوطات الرياضية توضح الأمر الأكثر تميزًا فيما يخص انشغال ماركس بالرياضيات. فأولًا وقبل أي شيء، كان هذا بمثابة حافز عقلي مفيد له في بحثه عن منهج للتحليل الاجتماعي، تحديدًا فيما يتعلق بالديالكتيك، وتمثيل "الكلية" (totality). ختامًا، أصبحت الرياضيات بالنسبة لماركس حيزًا ماديًا تقريبًا: أحيانًا حيزًا خرافيًا، لكنها فوق أي اعتبار آخر، الحيز الذي يمكن أن يلجأ إليه في لحظات المشاق الشخصية الكبرى.

3. مواطن العالم

على الرغم من انهماك ماركس كليًا في دراسات نظرية مكثفة، إلا أنه لم يتوقف لحظة عن الاهتمام بالأحداث الاقتصادية والسياسية الدولية في عصره. فبالإضافة إلى قراءة الصحف "البورجوازية" الرئيسية، كان يتلقي ويطالع بصفة منتظمة الصحف العمالية الفرنسية والألمانية. نهم كعادته، يبدأ يومه بقراءة التقارير الإخبارية حتى يظل على اطلاع على أهم الأحداث العالمية. أما المصدر الثاني الهام للمعلومات، فقد كان المراسلات المتبادلة بينه وبين قادة فكريين وسياسيين من بلدان مختلفة، وهو ما أمده بمحفزات طازجة ومعرفة أعمق بنطاق واسع من الموضوعات.

---

[96] Friedrich Engels to Karl Marx, 18 August 1881, in MECW, vol. 46, pp. 131-2.

[97] Karl Marx to Friedrich Engels, 22 November 1882, in MECW, vol. 46, p. 380.

[98] Karl Marx to Friedrich Engels, 31 May 1873, in MECW, vol. 44, p. 504.

[99] انظر Alain Alcouffe, 'Introduction', in Karl Marx, Les manuscrits mathématiques de Marx, Alain Alcouffe (ed.). Paris: Economica, 1985, p. 20f.

في بدايات 1881، قام فرديناند نيوينهويس (1846–1919) القيادي بارز في العصبة الاشتراكية الديموقراطية –وهي كانت القوة السياسية الاشتراكية الرئيسية في هولندا آنذاك– بإعطاء ماركس مرة أخرى الفرصة ليشرح وجهة نظره حول الانتقال إلى الشيوعية. ففي الأيام السابقة على بدء فعاليات مؤتمر اشتراكي كان سيعقد لاحقًا هذا العام،[100] وهو مؤتمر كان معدًا لإنجاز عملية توحيد أكبر الأحزاب البروليتارية في أوروبا في أممية جديدة، وجه نيوينهويس إلى ماركس سؤالًا اعتبره ذو أهمية حاسمة: ماهي التدابير التشريعية، على المستويين الاقتصادي والسياسي، التي يجب أن تتخذها حكومة ثورية فور وصولها إلى السلطة لتضمن نجاح الاشتراكية؟

كما حدث سابقًا، كان رد ماركس هو أنه يرفض الإجابة على مثل هذه الأسئلة بوصفة عامة؛ والحقيقة أنه اعتبر تلك الأسئلة "بلا معنى"، لأن "ما يجب القيام به، وما ينبغي فعله فورًا في أي لحظة محددة في المستقبل، يعتمد كليًا وإجماليًا على الظروف التاريخية الواقعية التي سيتم القيام بالفعل فيها". فبطرحها بشكل مجرد "تصبح المشكلة وهمية، والرد الوحيد المناسب عليها هو نقد السؤال في حد ذاته."[101] لذلك رد ماركس على فرديناند بطريقة جازمة قائلًا إنه من المستحيل "حل معادلة لا تحمل داخلها عناصر حلها." كان ماركس واثقًا أيضًا من أنه:

لن تصل حكومة اشتراكية إلى الحكم في بلد ما قبل أن تصل الأمور في تلك البلد إلى مرحلة تستطيع فيها (الحكومة الاشتراكية)، قبل أي شيء آخر، أن تتخذ إجراءات إكراهية ضد البرجوازية لتحقيق هدفها الأول: توفير الوقت المطلوب لاتخاذ إجراءات فعالة.[102]

كان من الواضح بالنسبة لماركس أن إقامة نظام اشتراكي للإنتاج والاستهلاك ستكون عملية طويلة ومعقدة، وبالتأكيد لا يمكن تحقيقها ببساطة بمجرد الاستيلاء على قصر الرئاسة. فالحقيقة أنه لن يوجد أي شيء "اشتراكي بشكل خاص في الورطات التي ستقع فيها حكومة أمسكت بالسلطة فجأة نتيجة لانتصار شعبي". ولا يمكن اعتبار كميونة باريس بأي حال –وهي التجربة الفعلية الوحيدة لحكومة اشتراكية– نموذجًا مرجعيًا. وذلك لأنها كانت حالة خاصة للغاية: "مجرد انتفاضة مدينة واحدة (من مدن فرنسا) في ظروف استثنائية"، وقيادتها السياسية لم تكن اشتراكية بأي معنى، ولم يكن ممكنًا أن تكون غير ذلك.[103]

وفي مقارنته بين وضع الطبقة العاملة في عصره ووضع البرجوازية الفرنسية قبل سقوط النظام القديم، رأى ماركس أن جبهة البروليتاريا لم تكن أكثر تخلفًا:

---

[100] كان مقررًا عقد المؤتمر في زيورخ، لكنه في النهاية عقد في أكتوبر في مدينة شور الأصغر، وذلك بسبب الحظر البوليسي.

[101] Karl Marx to Ferdinand Domela Nieuwenhuis, 22 February 1881, in MECW, vol. 46, p. 66.

[102] المرجع السابق.

[103] المرجع السابق.

مع أخذ تغير الظروف في الاعتبار، كانت المطالب العامة للبرجوازية الفرنسية قبل عام 1789 معرّفة جيدًا، وبدرجة معقولة من التجانس، تمامًا كتعريف البروليتاريا اليوم، في كل البلدان التي يوجد بها إنتاج رأسمالي، لمطالبها الأساسية والمباشرة. ولكن هل كان يمكن لأي فرنسي من القرن الثامن عشر أن تكون لديه بشكل مسبق أدنى فكرة عن الطريقة التي ستطبق بها مطالب البورجوازية الفرنسية؟[104]

وبشكل أعم، لم يتخل ماركس أبدًا عن قناعته أن:

توقع برنامج عمل ثورة قادمة بشكل مسبق، وهو أمر سيكون قطعًا عقائديًا وفانتازيًا، يؤدى فقط إلى تشتيت الأنظار عن النضال الحالي. ألهم حلم النهاية الوشيكة للعالم نضال المسيحيين الأوائل ضد الإمبراطورية الرومانية وأعطاهم ثقة في الانتصار. التبصر العلمي بحالة التفكك التي لا مهرب منها للأنظمة الاجتماعية السائدة، والتي تحدث أمام أعيننا الآن بصورة مطردة؛ الجماهير التي يتصاعد غضبها تحت سياط الشياطين الحكومية العتيقة؛ التقدم الإيجابي الهائل الذي يحدث بشكل متزامن في مجال تطوير وسائل الإنتاج –كل تلك العوامل تعد ضمانات كافية على أنه حينما ستندلع ثورة بروليتارية حقيقية، فإن الشروط المباشرة الأولية لعملها (التي بالتأكيد لن تكون سهلة وسلمية) ستكون حاضرة هي الأخرى.[105]

ختم ماركس رسالته ببعض الملاحظات حول المؤتمر الاشتراكي المقبل الذي ذكره نيوينهويس. هنا لم يخف ماركس تشككه في إمكانية خلق منظمة أممية مباشرة، على غرار المنظمة التي نسق أعمالها على مدى ما يقرب من عقد من الزمان:

قناعتي هي أن الظرف الحاسم اللازم لخلق رابطة عمال دولية جديدة لم يتوفر بعد؛ لهذا اعتبر أنه بقدر ما تبتعد كل مؤتمرات العمال، أو المؤتمرات الاشتراكية، عن مناقشة الشروط المباشرة والعملية الجارية في هذه الأمة أو تلك، لن تكون فقط غير مجدية بل ستكون ضارة أيضًا. إذ أنهم سيفشلون حتمًا، غارقين في اجترار كثرة من التفاهات التعميمية.[106]

ناقش بعض مراسلي ماركس معه أيضًا اقتراحًا قدمه الاقتصادي الأمريكي هنري جورج (1839–1897) في كتابه "التقدم والفقر"، المنُشور لأول مرة في 1879، والمباعة منه ملايين النسخ بعدد من اللغات. كانت حجة جورج، التي تحدثت عنها صحافة العصر آنذاك كثيرًا، هي أنه يجب أن تحل ضريبة واحدة على قيمة الأرض محل جميع الضرائب الأخرى المطبقة:

تحصل الحكومة بالفعل على بعض الريع من خلال جبايتها للضرائب. ومع إدخال بعض التعديلات على قوانين الضرائب لدينا، يمكن أن نأخذ الريع كله تقريبًا... لذلك، أقترح أن نخصص ريع الأرض للنفع العام من خلال الضرائب... من ناحية الشكل، ستبقى ملكية الأرض كما هي الآن. لا حاجة لتجريد مالك من

---

[104] المرجع السابق، ص7- 66.

[105] المرجع السابق. ص67.

[106] المرجع السابق.

ملكيته، ولا حاجة لوضع أي قيود على مساحة الأرض التي يمكن لأي شخص الاحتفاظ بها. إذا استولت الدولة على الريع في صورة ضرائب، فستكون الأرض واقعيًا ملكية مشتركة –بغض النظر عن اسم مالكها وعن موقعها. كل عضو في المجتمع سيشارك في مزايا ملكيتها... وفي الواقع، فإنه عندما يزيد الريع عن الإيرادات الحكومية الحالية، سيكون من الضروري زيادة ضريبة الأراضي فعليًا لاستيعاب الريع الزائد. سوف تزداد الضرائب على ريع الأرض بينما نلغي الضرائب الأخرى. لذا، فها نحن نضع اقتراحنا في شكل عملي يستهدف: إلغاء جميع الضرائب، باستثناء الضريبة على قيمة الأرض.[107]

عندما سأل المهاجر الثوري الألماني فريدريك سورج (1828–1906) وجون سوينتون (1829–1901) والاشتراكي الأمريكي ويلارد براون ماركس عن رأيه في هذا الاقتراح لحل معضلة التعايش بين التقدم والفقر، شعر هذا الأخير أنه ملزم بالرد. وهكذا أتى "تقييمه شديد الإيجاز للكتاب، كما كان يحدث غالبًا، مليئًا بالازدراء. أقر ماركس أن جورج "كاتبًا موهوبًا" وأن معظم الثناء الذي ناله الكتاب في الولايات المتحدة يرجع إلى حقيقة أنه يمثل "محاولة أولى، وإن لم تكن ناجحة، للتحرر من الاقتصاد السياسي التقليدي". ولكن بعيدًا عن هذين التنازلين الصغيرين، فإن ماركس هاجم بقوة آراء هذا الاقتصادي المقيم على الجانب الآخر من المحيط (الأطلنطي)، الذي بدا له "متخلفًا كليًا" كمنظّر. "هو لم يفهم شيئًا عن طبيعة فائض القيمة"، وأغرق نفسه في "التكهنات بشأن تلك الأجزاء من فائض القيمة التي أصبحت مستقلة –أي حول العلاقات بين الربح والريع والفائدة، إلخ".

لم يكتف ماركس بمقارعة "فكرة جورج"[108] الأساسية فحسب، بل إنه نفى أيضًا أصالتها. في شبابهما، كان ماركس وإنجلز نفسهما قد حاججا في "بيان الحزب الشيوعي" لصالح "إلغاء ملكية الأرض وتخصيص جميع ريع الأراضي للأغراض العامة"[109] باعتبار هذا واحد من التدابير العشرة التي يتعين اتخاذها في الدول الأكثر تقدمًا بعد الاستيلاء على السلطة من قبل الطبقة العاملة.

ذكّر ماركس سوينتون أن "تلاميذ ريكاردو القدامى، الراديكاليون منهم بالتحديد، تخيلوا بالفعل أنه بتخصيص ريع الأرض للمنفعة العامة ستصبح كل الأمور على ما يرام".[110] قدم ماركس نقدًا لهذا

---

[107] Henry George, Progress and Poverty. New York: Robert Schalkenbach Foundation, 2006, pp. 224-5.

[108] Karl Marx to Friedrich Sorge, 20 June 1881, in MECW, vol. 46, pp. 99-101.

[109] Karl Marx and Friedrich Engels, Manifesto of the Communist Party, in MECW, vol. 6, p. 505.

[110] Karl Marx to John Swinton, 2 June 1881, in MECW, vol. 46, p. 93. بالنسبة لإنجلز أيضًا كانت معادلة "الدولة = الاشتراكية" خاطئة كليًا. فكما كتب لبرنشتاين، في مارس 1881: "إن الأمر لا يعدو أن يكون فهمًا خاطئًا مدفوعًا بالمصالح الخاصة من جانب البرجوازية في مانشستر، حين تصف بـ"الاشتراكية" كل تدخل من الدولة في مواجهة المنافسة الحرة: التعريفات الجمركية الحمائية، والطوائف الحرفية، واحتكار التبغ، وتأميم فروع من الصناعة، وشركة تجارة وراء البحار، ومصنع الخزف الملكي. هذا شيء يجب نقده، لا الأيمان به. أما إذا اعتقدنا في صحة هذا التفكير ودعمناه بحجج نظرية، فسوف ينهار رأسا على عقب هو وكل أسسه، وذلك بمجرد محاولة إثباته -إن هذه الاشتراكية المزعومة ليست سوى رد فعل إقطاعي من ناحية، ومن الناحية الأخرى، ذريعة للابتزاز، فإن هدفها الثانوي هو تحويل أكبر عدد ممكن من البروليتاريا إلى موظفين حكوميين ومتقاعدين معتمدين على الدولة، أي أن تقوم الدولة بتنظيم جيش منضبط من العمال في موازاة جيشها المنضبط من الموظفين والضباط.عندما يفرض الاقتراع الإجباري على يد كبار الموظفين بدلا من فرضه على يد ملاحظي المصانع، ما أجملها من اشتراكية! Friedrich Engels to Eduard Bernstein, 12 June 1881, in MECW, vol. 46, p. 74.

المفهوم في 1847، في كتابه "فقر الفلسفة"، عندما أوضح أن مطالبة "اقتصاديين مثل ميل وشبيليز وهيلديتش وآخرون بتسليم الريع إلى الدولة ليحل محل الضرائب"، كان "تعبيرًا صريحًا عن الكراهية التي يكنها الرأسمالي الصناعي تجاه مالك الأرض، الذي يبدو له كشيء عديم النفع، كعبء غير مفيد في الجسد العام للإنتاج الرأسمالي".[111] ولكن هذا بالقطع لم يكن إجراء كافيًا لإزالة عدم المساواة في المجتمع المعاصر.

وفي رده على سورج، ذكر ماركس مؤلفين آخرين اقترحوا أفكارًا مشابهة في الماضي. حاول جان هيبوليت كولنز (1783–1859) على سبيل المثال أن يقدم "ترياقًا اشتراكيًا يحقق أمنية الاقتصاديين البورجوازيين الراديكاليين الإنجليز، معلنًا أن هذا الإجراء سيكون حلًا للتضادات الكامنة في نمط الإنتاج الحالي". كذلك فإن الاقتصادي أدولف سامتر (1824–1883)، وهو مصرفي بروسي ضحل، وهاو لليانصيب، ومن أتباع يوهان رودبيرتوس (1805–1875)، كان قد "ضخّم في هذه الرؤية "الاشتراكية" حتى أنها أصبحت كافية لتسويد كتاب ضخم"، نُشر عام 1875، تحت عنوان "العقيدة الاجتماعية: حول إشباع الحاجات في المجتمع البشري".

يحتل كتاب جورج، من وجهة نظر ماركس، موقعه داخل هذا التراث الفكري، وذلك على الرغم من "صعوبة الغفران له" مقارنة بالأمثلة الأخرى. فقد كان يجب على مواطن من مواطني الولايات المتحدة – "حيث كانت الأرض متاحة نسبيًا (في الماضي) للكتلة الأكبر من الشعب، وحيث أنها لا تزال حاليًا متاحة نسبيًا بدرجة ما"– أن يشرح كيف حدث هناك "أن الاقتصاد الرأسمالي والاستعباد المترافق معه للطبقة العاملة قد تطورا بسرعة أكبر وبدرجة أعلى من الوقاحة أكثر من أي بلد آخر".[112]

لكن ماركس أعلن: "أن كل هؤلاء "الاشتراكيين"... مشتركين في أمر واحد –أنهم يقبلون باستمرار العمل المأجور، وبالتالي يقبلون باستمرار الإنتاج الرأسمالي، بينما يحاولون خداع العالم وأنفسهم بنشر الاعتقاد بأن تحويل الريع إلى ضرائب تحصلها الدولة سوف يؤدي تلقائيًا إلى زوال جميع الانتهاكات التي يجلبها الإنتاج الرأسمالي.[113]

وبالتالي، فإنه بغض النظر عن نواياهم، فإن نظريات جورج والكتاب ذوي التفكير المماثل كانت "مجرد محاولة، للتدجيل باسم الاشتراكية، بغرض الحفاظ على النظام الرأسمالي، بل في الواقع إعادة تأسيسه على قواعد أوسع من الحالية".[114] وفي الختام، انتهى ماركس إلى الهجوم على "تمرد جورج المتمادي

---

[111] Karl Marx, The Poverty of Philosophy, in MECW, vol. 6, p. 203.

[112] Karl Marx to Friedrich Sorge, 20 June 1881, op. cit., pp. 100-1.

[113] المرجع السابق، ص101.

[114] المرجع السابق. انظر أيضًا الشهادة التالية لهيندمان: "نظر ماركس إلى الكتاب وتحدث عنه بنوع من الازدراء المتعاطف، قائلًا إن (التصور المطروح فيه) يعد "خندق الرأسماليين الأخير". على إني تقريبًا لا أشارك (ماركس) في هذا الاعتقاد. لقد رأيت الثغرات الكبيرة في العمل وأخطاءه الاقتصادية الفادحة، لكنني أدركت أيضًا، ما لم يستطع، أو لم يحب، أن يقره ماركس، وهو الجاذبية الإغوائية لصياغاته الرفيعة بالنسبة إلى حشد كبير من أنصاف المتعلمين المتعاطفين... لم يقبل ماركس حقيقة أن هذا يمكن أن يكون موضوعًا مقبولًا للخلاف. فقد كان رأيه أن نشر الخطأ لا يمكن أن يكون له أي فائدة للناس. "ترك الخطأ دون تفنيد هو تشجيع للأخلاقية الفكرية. ففي مقابل عشرة أشخاص يمكن أن يتجاوزوا جورج، مائة آخرون ربما لن يستطيعوا تجاوزه، وهذا خطر

المتغطرس"، الذي اعتبره "السمة المميزة التي لا يمكن أن يخطئها أحد لكل مروجي العلاجات السحرية".[115]

خلال عام 1881، استمر ماركس في متابعة الأحداث العالمية والتعليق عليها مع الرفاق وأفراد العائلة. وبشكل خاص، كتب رسالة مطولة إلى دانيلسون في فبراير احتوت على بعض الملاحظات التي لا تقدر بثمن حول الوضع في العديد من البلدان.

حفزت دراسة الانهيارات الاقتصادية، التي كانت دائمًا أولوية بالنسبة لماركس، والكساد العظيم الذي ضرب عدد من الدول، خاصة إنجلترا، في عام 1873، اهتمام الباحث وكثفت آمال المناضل. وقد كتب عن الأحداث المالية في المملكة المتحدة: "إذا مرت الأزمة الصناعية والتجارية الكبرى التي اجتازتها إنجلترا دون حدوث انهيار مالي في لندن، فإن هذه الظاهرة الاستثنائية تعود فقط إلى الأموال الفرنسية".[116]

ترافقت هذه التقديرات مع وصف للسياق الاقتصادي العام. إذ تجلى الانكماش في حدوث انخفاض ملحوظ في الإنتاجية وركود هائل في الصادرات. لقد توقفت بريطانيا عن لعب دور ورشة العالم، وتحول "الرخاء الفيكتوري"، الذي عرفته العقود السابقة، إلى مجرد ذكرى لا غير. وبشكل خاص، لاحظ ماركس أن:

نظام السكك الحديدية الإنجليزية يتدحرج على نفس السطح المائل الذي يتدحرج عليه نظام الديون العامة الأوروبي. فالأقطاب المسيطرة بين مديري شبكات السكك الحديدية لا يكتفون فحسب بالتعاقد بشكل متزايد على ديون جديدة من أجل تكبير شبكاتهم، أي من أجل تكبير "الإقليم" الذي يتحكمون فيه كالملوك المطلقين، لكنهم كذلك يوسعون شبكاتهم الخاصة حتى تكون لديهم أسباب جديدة للحصول على قروض جديدة تمكنهم من دفع الفوائد المستحقة لحاملي السندات والأسهم الممتازة وما شابه، وأيضًا، من وقت إلى

أكبر من أن يقبل"، Henry Hyndman, The Record of an Adventurous Life. New York: Macmillan, 1911, pp. 258-9.

[115] Karl Marx to Friedrich Sorge, 20 June 1881, op. cit., p. 101. كذلك فإن ملاحظات جورج على ماركس مثيرة للاهتمام. فقد ذكر هذا الأخير بعد موت ماركس أنه على الرغم من أنه لم يقرأ كتاباته، إلا أنه شعر "باحترام عميق لرجل كرس حياته وجهوده من أجل تحسين الظروف الاجتماعية" (Philip S. Foner (ed.), Karl Marx Remembered: Comments at the Time of His Death. San Francisco: Synthesis Publications, 1983, p. 101). ومع ذلك، فقد شدد في رسالة إلى هيندمان في العام التالي على أن ماركس "يفتقر إلى القدرة التحليلية والتقاليد المنطقية في التفكير" (Henry George, An Anthology of Henry George's Thought, edited by Kenneth C. Wenzer. Rochester: University of Rochester Press, 1997, p. 175). كذلك، فهو قد وصف ماركس في رسالتين إلى فرانسيس ووكر عميد معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (1840-1897) بأنه "أمير الحمقي" و"المفكر السطحي" (المرجع السابق، ص78-177). وقد لاحظ، روى دوجلاس أنه "عندما توفي ماركس في عام 1883…، عدد الإنجليز الذين كانوا يعرفون هنري جورج كان أكثر بكثير من الذين كانوا يعرفون "هذا الاشتراكي البروسي" (A History of the Land Question in the United Kingdom, 1878-1952. London: Allison and Busby, 1976, p. 48). ولكن الأوضاع ستتغير كلية في غضون بضع سنوات.

[116] Karl Marx to Nikolai Danielson, 19 February 1881, in MECW, vol. 46

آخر، لرشوة حاملي الأسهم المستغَلين، في صيغة زيادة ما لعوائد المساهمين. هذا الأسلوب اللطيف سيؤدي بالضرورة يومًا ما إلى كارثة بشعة.[117]

أظهر ماركس اهتمامًا مماثلًا بالأحداث على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي. واحد من هذه الأحداث كان الانهيار المالي لجاي جولد (1836 –1892)، وهو واحد من بناة السكك الحديدية الكبار، وقد أصبح، من خلال عمليات المضاربة الضخمة، واحدًا من أغنى الرجال وأكثرهم انعدامًا للضمير في عصره، مع سمعة ليست غير مستحقة كـ"ملك بارونات اللصوص".[118] امتلك جولد شركة إيري للسكك الحديدية، التي كانت تدير الخط التاريخي بين نيويورك وشمال شرق البلاد. وبحلول عام 1879 كان قد سيطر على ثلاث شبكات رئيسية، بما في ذلك خط سكك حديد يونيون باسيفيك الذي يمر بالعديد من ولايات ساحل المحيط الهادي، وخط سكك حديد ميسوري باسيفيك لخدمات شرق نهر المسيسيبي. كان إجمالي هذه الخطوط يصل إلى 16 ألف كيلو متر، وهو ما يقدر بواحد على تسعة من إجمالي طول خطوط السكك الحديدية في البلاد. وفي 1881 قام جولد بتوسيع إمبراطوريته من خلال الاستيلاء على ويسترن يونيون أيضًا.

ولأن ماركس كان مهتمًا للغاية بالتطورات في المجتمع الأمريكي، لم يكن ممكنًا أن تفوته متابعة صعود جولد، أو التعليق الطريقة التي دافع بها عن نفسه في مواجهة الهجمات من جانب الرأي العام:

ملوك السكك الحديدية في الولايات المتحدة أصبحوا هدفًا للهجمات، ليس فقط، كما كان الحال سابقًا، من جانب المزارعين وغيرهم من "المنظمين" الصناعيين في الغرب، ولكن أيضًا من جانب الممثل الأبرز للتجارة: غرفة نيويورك التجارية. ومن جانبه، قال ملك السكك الحديد الأخطبوطي والمحتال المالي جولد لأقطاب التجارة في نيويورك: "أنتم الآن تهاجمون السكك الحديدية، لأنكم تعتقدون أنه من الأسهل مهاجمتها نظرًا لعدم شعبيتها حاليًا؛ ولكن احذروا: بعد الهجوم على السكك الحديدية سيأتي الدور... على كل أنواع الشركات؛ ثم سيأتي بعدها على كل أنواع رأس المال المساهم؛ ثم سيأتي على كل أنواع رأس المال؛ وهكذا فأنتم بهذا تمهدون الطريق أمام الشيوعية، التي صارت تياراتها فعلًا منتشرة أكثر فأكثر بين الناس.[119]

علق ماركس على هذا التصريح متهكمًا:[120] "مستر جولد يملك حاسة شم جيدة"، على أمل أن تثبت التيارات الشيوعية فعلًا أقدامها في الولايات المتحدة.

---

[117] المرجع السابق، ص63.

[118] انظر Edward J. Renehan, Dark Genius of Wall Street: The Misunderstood Life of Jay Gould, King of the Robber Barons. New York: Basic Books, 2006; and Maury Klein, The Life and Legend of Jay Gould. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1997, p. 393.

[119] Karl Marx to Nikolai Danielson, 19 February 1881, in MECW, vol. 46, p. 63.

[120] المرجع السابق، ص63.

تطرق ماركس في نفس الخطاب إلى الأحداث في الهند، وذهب إلى حد توقع أن: "تعقيدات خطيرة، إن لم يكن انفجار عام، في انتظار الحكومة البريطانية".[121] فلقد أصبح مستوى الاستغلال لا يطاق بشكل متزايد:

ما يسلبه الإنجليز (من الهنود) سنويًا في شكل ريوع، وأرباح مساهمين في شركات سكك حديدية بلا فائدة للهندوس، ومعاشات عسكريين وموظفين حكوميين، وكذلك في شكل مخصصات للحرب في أفغانستان وحروب أخرى، إلخ إلخ –ما يأخذونه منهم دون أي مقابل، وبمعزل عما يستولون عليه سنويًا داخل الهند، ومقتصرين في حديثنا فقط على قيمة البضائع التي على الهنود أن يرسلوها إلى إنجلترا مجانًا بشكل سنوي، يزيد عن مجموع دخل الـ60 مليون عامل زراعي وصناعي هندي! هي عملية نزيف، وبطريقة انتقامية! سنوات المجاعة تضغط فوق بعضها البعض ولمستويات لا تزال إلى الآن غير مقدّرة في أوروبا! هناك مؤامرة فعلية تجري في المكان الذي يتعاون فيه الهندوس والمسلمين. تعرف الحكومة البريطانية أن شيئًا ما "قيد الاختمار"، لكن هؤلاء الأشخاص السطحيون (أعني رجال الحكومة)، المصابون بالسفه بسبب طرقهم البرلمانية في الحديث والتفكير، لا يرغبون حتى في أن يروا بوضوح، أن يدركوا كل أبعاد الخطر المحدق! أن تضلل آخرين، وبتضليلهم تقوم بتضليل نفسك، تلك هي: الحكمة البرلمانية بإيجاز! هذا شيء حسن![122]

أولى ماركس اهتمامًا شديدًا بالقضية الأيرلندية منذ ستينيات القرن التاسع عشر. يمكن العثور على بعض انطباعاته بشأن تلك المسألة في رسالة بتاريخ 11 أبريل إلى ابنته جيني لونج، التي كانت لسنوات عديدة من أنصار الحركة الفينية (Fenian). كان ماركس معارضًا تمامًا لاحتلال أيرلندا والمظالم الفظيعة التي ارتكبها البريطانيون هناك. وهكذا ففي 1868، وعندما سمع ويليام جلادستون (1809–1898)، ذلك "المنافق الكبير والمفتي الأخلاقي الذي ينتمي إلى المدرسة القديمة،"[123] أنه عُين رئيسًا للوزراء، أعلن أن "مهمته" السياسية هي "تهدئة أيرلندا".[124]

فشلت الإجراءات الأولى التي اتخذها جلادستون لمعالجة مسألة ملكية الأراضي، الحاسمة، في أن تقترب من التوقعات التي غذاها هو بنفسه. فعلى أحسن الأحوال، جعل قانون المالك والمستأجر (في أيرلندا)، الذي مُرر في عام 1870 كتعديل للتشريعات القائمة، الموقف أسوأ. حتى أنه بحلول نهاية العقد، كانت أيرلندا مسرحًا للعديد من الاحتجاجات ضد التجاوزات الفظيعة من جانب ملاك الأراضي، وكانت الثورة ضد الحكم البريطاني "قيد الاختمار" فعلًا.

---

[121] المرجع السابق.

[122] المرجع السابق، ص63-64.

[123] Karl Marx to Jenny Longuet, 11 April 1881, in MECW, vol. 46, p. 84

[124] نقل سكرتير جلادستون هذه العبارة الشهيرة، انظر Edgar J. Feuchtwanger, Gladstone. London: Allen Road, 1975, p. 146.

وعندما قدم الليبراليون تشريعًا ثانيًا في أبريل 1881 –قانون الأراضي (في أيرلندا)– هاجم ماركس مرة أخرى حكومة لم تسع إلى كبح السلطة التعسفية لملاك الأراضي الإنجليز في مواجهة المستأجرين، وذلك على النقيض من ادعاءات أنصارها بالقيام بذلك. وقد كتب ماركس إلى جيني قائلًا: "إن جلادستون، من خلال إجراءاته الأولية المشينة (بما في ذلك إلغاء حرية التعبير لأعضاء مجلس النواب)، خلق الشروط التي تتم بموجبها الإخلاءات الجماعية في أيرلندا الآن".[125] فمن وجهة نظر ماركس، كانت الإصلاحات المقترحة: "محض هراء". وقد رأى أن اللوردات، الذين يمكنهم الحصول على أي شيء يريدونه من جلادستون، والذين لن يضطروا بعد ذلك إلى الارتعاد في مواجهة رابطة الأرض (Land League)،[126] سيطيحون بهذا التشريع المقترح دون شك، أو سيخصونه إلى حد أن الأيرلنديين أنفسهم سيصوتون ضده في النهاية.[127] كان تقدير ماركس خاطئًا. فقد وافق البرلمان البريطاني على الإجراءات. لكنه كان محقًا في توقع أنها لن تحل مشكلات أيرلندا. وكنتيجة للتشريع الجديد، لم يتمكن سوى بضع مئات من المزارعين من شراء الأراضي، وما لبثت التحريض أن عاد مرة أخرى بعد بضع سنوات.

وفي رسالة أخرى، أرسلها بعد بضعة أسابيع إلى جيني، كرر ماركس الاتهامات نفسها. فقد رأى أنها كانت "خدعة جيدة للغاية" من جانب جلادستون، "في لحظة كانت قيمة ملكية الأرض تنحو إلى الانخفاض في أيرلندا (كما في إنجلترا) بسبب "استيراد الذرة والماشية من الولايات المتحدة"، أن يعرض هذا الأخير على كبار ملاك الأراضي إمكانية بيع ملكياتهم بسعر لم تعد تستحقه".[128] وطلب من جيني أن تدعو زوجها تشارلز لونج (1839–1903) إلى قراءة الخطاب الذي ألقاه تشارلز بارنيل (1846–1891) –الشخصية الرئيسية في الحزب البرلماني الأيرلندي– في كورك: "سيجد فيه جوهر ما يجب أن يقال عن قانون الأراضي الجديد لجلادستون".[129] وفي النهاية، بالنسبة لماركس:

---

[125] Karl Marx to Jenny Longuet, 11 April 1881, in MECW, vol. 46, op. cit., p. 84.

[126] عصبة الأرض الوطنية الأيرلندية the Irish National Land League، منظمة سياسية تأسست في 1879 للدفاع عن مصالح المزارعين المستأجرين الأيرلنديين.

[127] Karl Marx to Jenny Longuet, 11 April 1881, in MECW, vol. 46, op. cit., p. 84.

بصدد رد فعل ماركس، انظر أيضًا ما ذكره هيندمان بخصوص عقد اجتماع معه في ذلك الوقت: "عندما تحدث باستياء شديد عن سياسة الحزب الليبرالي، وخاصة فيما يتعلق بأيرلندا، أضاءت عينا المحارب القديم العميقة، وتغضن حاجباه الكثيفان، وتحرك الأنف الوجه العريضان والقويان كتعبير واضح عن قوة العاطفة، ثم صب تيارًا من الاستنكار العنيف" (Hyndman, The Record of an Adventurous Life, op. cit., p. 247). بصدد سياسات جلادستون في 1880-1881 انظر (Richard Shannon, Gladstone, vol. 2, 1865-1898. Chapel Hill: The University of North Carolina Press, 1999, pp. 248-78). وبصدد مواقفه تجاه أيرلندا انظر (Herny Colin Gary Matthew, Gladstone: 1875-1898. London: Clarendon Press, 1995, pp. 183-210; and James Camlin Beckett, The Making of Modern Ireland 1603-1923. London/Boston: Faber and Faber, 1981, pp. 389-94).

[128] Karl Marx to Jenny Longuet, 29 April 1881, in MECW, vol. 46, p. 90.

[129] Karl Marx to Jenny Longuet, 11 April 1881, in MECW, vol. 46, p. 84.

كانت التعقيدات الحقيقية لمشكلة الأراضي الأيرلندية، وهي في الواقع ليست أيرلندية بشكل خاص، ضخمة لدرجة أن الطريقة الواقعية الوحيدة لحلها هي إعطاء حكم أيرلندا للأيرلنديين، وبالتالي إرغامهم على حلها بأنفسهم. لكن جون بول أغبى كثيرًا من أن يفهم هذا.[130]

بشكل عام، لا يمكن قطعًا أن يقال إن ماركس كان متحمسًا للعيش تحت حكم الملكية الإنجليزية. وافت بنيامين دزرائيلي (1804–1881) –رئيس وزراء بريطانيا لمرتين وزعيم حزب المحافظين لسنوات عديدة– المنية في 19 أبريل (1881)، وأعقبها حملة تمجيد للرجل. بدا ذلك لماركس بمثابة "صرعة الجنون الأخيرة في لندن"، مما "منح جون بول شعورًا بالرضى ناجم عن إعجابه بشهامته الخاصة". ولكن الواقع كان أن حكومة دزرائيلي الثانية (1874–1880) شهدت حادثًا سلبيًا تلو الآخر: في السياسة الخارجية، (الحرب الأفغانية الثانية، والصراع الدموي في جنوب أفريقيا المعروف باسم حرب الأنجلو–زولو)؛ في الاقتصاد، (التراجع في الإنتاج الزراعي والصناعي). هذه كانت أسباب هزيمته الساحقة في الانتخابات العامة عام 1880.

متأملًا عودة شعبية دزرائيلي بعد وفاته، علق ماركس قائلا: "أوليس مهيبًا أن تتصرف كمداهن ذليل تجاه رجل ميت، كنت قبل وفاته بقليل تحييه بالتفاح العطن والبيض الفاسد؟" ثم أضاف متهكمًا: "ربما كان مقصودًا بهذا تعليم "الطبقات الدنيا" أنه "أيًا كانت الصراعات التي قد تقع بين رؤسائهم الطبيعيين وبعضهم البعض أثناء المنافسة على "المكانة والثروة"، فإن الموت يظهر حقيقة أن قادة الطبقات الحاكمة "هم دائمًا" رجال عظماء وجيدون".[131]

كره ماركس أيضًا الطقس الإنجليزي. فقد اشتكى في 6 يونيو بمرارة لابنته من "الأمطار العنيفة والطقس البارد اليوم والأمس"، اللذان تزامنا مع الاحتجاجات الأيرلندية في العاصمة الإنجليزية. لقد كان ذلك: "أحد الحيل السيئة التي يحتفظ بها الأب السماوي دائمًا لهؤلاء المواشي والأغنام من رعاع لندن. لقد أفسد المطر أمس مظاهرة بارنيل في هايد بارك".[132]

بالطبع لم يهمل ماركس الدولتين الرئيسيتين في القارة: ألمانيا وفرنسا. فقد استمر يهتم بهما اهتمامًا فعالًا كلما كان ذلك ممكنًا، تمامًا كما كان يفعل في الماضي، وذلك من خلال اللقاءات مع القادة السياسيين اليساريين، ومع مؤلفي الكتب حول النظرية الاشتراكية، وغيرهم ممن كتبوا في الصحف والمجلات دعمًا للحركة البروليتارية. وخلال الأكثر من ثلاثين عامًا التي قضاها في لندن، وكذلك خلال الرحلات القليلة التي استطاع القيام بها، تعرّف ماركس على المئات من المناضلين والمثقفين الملتزمين بقضية الطبقات

---

[130] المرجع السابق، ص90 . استخدم ماركس في السنوات الأخيرة من حياته اسم جون بول John Bull كتعبير مجازي ساخر عن بريطانيا.

[131] المرجع السابق.

[132] Karl Marx to Jenny Longuet, 6 June 1881, in MECW, vol. 46, p. 95.

العاملة. وكان من أسباب ابتهاجه الخاص استقبال زيارات من الشباب، وذلك لأنه كان يسعى –كما كان يحب أن يصيغ الأمر بنفسه– إلى: "تدريب الرجال على مواصلة الدعاية الشيوعية بعدي".[133]

كذلك قابل ماركس كاوتسكي لأول مرة في عام 1881. ولكن انطباعاته عنه كانت أبعد ما تكون عن الإيجابية. فعلى الرغم من كونه "شخص لطيف على طريقته الخاصة"، إلا أنه كان في الأساس متوسطًا وضيق الأفق ومبالغ في ادعاء الحكمة (عمره 26 عامًا فقط) ومتعالم؛ كذلك هو يعمل بنشاط اقتفاءً للصرعات، ويهتم كثيرًا بالإحصائيات رغم أنه لا يفهمها تقريبًا، وينتمي بطبيعته إلى قبيلة الجهال". ولذلك أسرّ ماركس لابنته جيني مازحًا أنه قرر: "تسليمه للصديق إنجلز بقدر ما المستطاع"، مضيفًا أن إنجلز صار "متسامحًا جدًا معه" عندما "تلقى من (كاوتسكي) البرهان على قدرته المعتبرة على الشرب". [134]

في ذلك الصيف، تابع ماركس الأحداث التي سبقت الانتخابات الفرنسية عن كثب. كان من المرجح أن يصبح ليون جامبيتا (1838–1882) رئيسًا للوزراء، وأن يفوز حزبه –الاتحاد الجمهوري– بأغلبية المقاعد في البرلمان. وقد شارك توقعاته مع إنجلز قبل أسبوعين من الاقتراع:

قد يزيد عدد مقاعد أقصى اليسار قليلًا، لكن النتيجة الرئيسية ستكون على الأرجح فوز جامبيتا. وبالنظر إلى الحال في فرنسا، فإن قصر فترة الانتخابات سوف يؤدي إلى حسم الأمر لصالح الدجالين الذين سيسيطرون على عدد من المعاقل، وهؤلاء الذين يمولون المراكز في الأجهزة الحكومية، والرجال الذين يسيطرون على "الخزانة"، إلخ. كان بإمكان "الجريفيتيين"[135] أن يتفوقوا على جامبيتا، إذا توفرت لديهم الطاقة، بعد إخفاقات هذا الأخير الأخيرة، أن يزيحوا تابعيه، مثل كازو وكونستانس وفار، خارج الحكومة. وبما أنهم لم يفعلوا، فإن صائدي المناصب، والمضاربين في البورصة، وغيرهم، يقولون لأنفسهم "جامبيتا هو رجلنا"... إن الهجمات العامة اليومية ضد جامبيتا في الصحف الراديكالية والرجعية، تساهم في تعزيز مركزه رغم كل حماقاته الصبيانية. وعلى قمة كل هذا يعتبر الفلاحون أن جامبيتا هو الرأس المميزة في حالة الجمهورية المحتملة.[136]

---

[133] Paul Lafargue, in Institute of Marxism-Leninism (Ed.), Reminiscences of Marx and Engels. Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1957, p. 72.

[134] Karl Marx to Jenny Longuet, 11 April 1881, op. cit., pp. 81-2. الواقع أن إنجلز لم يبرهن على أن لديه حماس كبير تجاه كاوتسكي. إذ كان يفضل كثيرًا ذهنية شاب آخر في الحزب الألماني، هو إدوارد بيرنشتاين. فوفقًا لما ذكره إنجلز لأوجست بيبل –الزعيم الاشتراكي الألماني الذين كان هو وماركس يكنان له أعظم تقدير: برنشتاين "لديه براعة حقيقية ويفهم الأشياء على الفور، على عكس كاوتسكي تمامًا. كاوتسكي مستقيم لكنه متحذلق. وهو قد ولد مراوغًا، بحيث أن الأمور المعقدة لا تصبح بسيطة على يديه، بل العكس هو الصحيح". وفقًا لإنجلز: يستطيع كاوتسكي أحيانًا في المقالات الطويلة، الأنسب للدوريات النظرية، أن يقدم شيئًا جيدًا حقًا، ولكن حتى باستعارة أفضل إرادة في العالم، لن يستطيع التغلب على طبيعته الخاصة. إنها أقوى منه. يعتبر عقائدي من هذا النوع كارثة حقيقية إذا كان الأمر يتعلق بالكتابة للصحف". هذا هو السبب بذل إنجلز كل جهد في إمكانه لإقناع برنشتاين للاستمرار في رئاسة تحرير جريدة "الاشتراكي الديمقراطي" Der Sozialdemokrat الأسبوعية، وقد نجح في هذا المسعى (Friedrich Engels to August Bebel, 25 August 1881, in MECW, vol. 46, p. 137.).

[135] أتباع جول جريفى (1807 – 1891)، رئيس الجمهورية ورئيس شرفي الجمهوريين الانتهازيين.

[136] Karl Marx to Friedrich Engels, 9 August 1881, in MECW, vol. 46, p. 117.

في وقت لاحق من هذا الشهر، كتب ماركس إلى إنجلز عن "حالة حزب العمال (اتحاد حزب العمال الاشتراكي الفرنسي –FPTSF في باريس). فقد أخبره بروسبير أوليفييه ليساجارا (1838–1901)، وهو ثوري ومؤلف كتاب "تاريخ كميونة باريس في 1871"، (1876)، وكان ماركس يعتبره "محايدًا تمامًا في تقديره"، أنه: "على الرغم من أنه (أي الحزب) لا زال في طور جنيني، إلا أنه هو وحده الذي يمثل شيئًا ذو قيمة في مواجهة الأحزاب البرجوازية بجميع تنويعاتها". وتنظيمه، "رغم أنه لا يزال هشًا وشكليًآ بدرجة أو بأخرى"، إلا أنه مع كل ذلك، "منضبط بما ما فيه الكفاية لتقديم مرشحين عنه في كل دائرة، لجعل وجوده محسوسًا في الاجتماعات ومزعجًا لأعضاء المجتمع الرسمي". حدد ماركس كل شيء على أرض الواقع، وذلك من خلال قراءة صحف باريس من كل لون، ولاحظ في هذا السياق أن الجميع يسن أسنانه تجاه هذا الإزعاج العام: حزب العمال".[137]

كان العالم كله حاضرًا أمامه في الغرفة وهو جالس على مكتبه. خلال دراسته للتغيرات الاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية، وأمله في إنهاء القمع الكولنيالي في الهند، ودعمه للقضية الأيرلندية، وتحليله للأزمة الاقتصادية في بريطانيا، واهتمامه بالانتخابات في فرنسا، تابع ماركس بانتظام مؤشرات تطور الصراع الاجتماعي في كل مكان على امتداد العالم. وقد حاول مواكبتها أينما ظهرت. وليس بلا سند أن كان في إمكانه القول: "أنا مواطن العالم وأنشط حيثما أُوجد".[138] وقد كانت السنوات الأخيرة من حياته مصداقًا لهذا النمط من الوجود.

[137] Karl Marx to Friedrich Engels, 18 August 1881, in MECW, vol. 46, pp. 133-4.

[138] Lafargue, in Institute of Marxism-Leninism (Ed.), Reminiscences of Marx and Engels, op. cit., p. 73.

الفصل الثاني

السياسة الأممية والسجال الروسي

1. التساؤل حول مستقبل المشاعة الريفية

كان ماركس في كتاباته السياسية يعتبر روسيا دائمًا أحد العقبات الرئيسة أمام تحرر الطبقة العاملة في النطاق الأوربي. وفي مقالاته بجريدة نيويورك تريبيون New–York Tribune، وكتابه التاريخ الدبلوماسي السري للقرن الثامن عشر Secret Diplomatic History of the Eighteenth Century (1856–1857)، وفي مراسلاته الغزيرة كذلك، شدد على أن تأخر روسيا الاجتماعي، وبطء تطورها الاقتصادي، إلى جانب نظامها السياسي الاستبدادي وسياستها الخارجية المحافظة، يجعل من تلك الإمبراطورية القيصرية الضخمة ركيزة أساسية للثورة المضادة.

استمر ماركس في تبني هذا الحكم لوقت طويل. إلا أنه في سنواته الأخيرة بدأ ينظر إلى روسيا بطريقة مختلفة، إذ لاحظ أن هناك تغيرات محددة تجرى، فيها شروط يحتمل أن تؤدي إلى حدوث تحولات اجتماعية كبيرة. وفي واقع الأمر، كانت الأوضاع في روسيا تبدو أكثر ملائمة لاندلاع ثورة أكثر مما هو عليه الحال في بريطانيا، حيث خلقت الرأسمالية هناك طبقة من العمال الصناعيين أكبر من مثيلتها في أي مكان آخر في العالم، ولكن بسبب التنعم بشروط حياة أفضل، اعتمادًا على استغلال المستعمرات إلى حد ما، نشأت الحركة العمالية أضعف، وخضعت للتكيف السلبي مع النزعة الإصلاحية النقابية.[139]

[139] انظر ما كتبه ماركس وإنجلز عام 1882 في مقدمة الطبعة الروسية الثانية للبيان الشيوعي.. أنه خلال ثورة 1848 – 1849 – لم يكن أمراء وملوك اوربا فقط من وجد في التدخل الروسي خلاصًا من خطر البروليتاريا التي كانت تنهض لتوها، ولكن برجوازيتها أيضا، لقد نصب القيصر الروسي نفسه قائدا للرجعية الأوربية، وهو اليوم سجين حرب الثورة في جوشتينا (القلعة التي احتمى بها القيصر ألكسندر الثالث عقب اغتيال والده -(المترجم)) وشكلت روسيا طليعة العمل الثوري في اوربا.

ومنذ أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر، تابع ماركس بتقدير واهتمام الحركة الفلاحية في روسيا، التي سبقت إلغاء القنانة عام 1861.[140] وفي السبعينيات، وبعد أن تعلم القراءة باللغة الروسية، حرص على معرفة مستجدات الأحداث، عبر الاحصائيات والنصوص المكتوبة حول التغيرات الاقتصادية–الاجتماعية،[141] ومن خلال مراسلة أكاديميين روس بارزين أيضًا.[142]

وفي 1881، حيث قاده اهتمامه المتنامي بالأشكال الاجتماعية القديمة إلى دراسة أعمال انثربولجيين معاصرين، وحيث كانت تأملاته متجاوزة للنطاق الأوربي دائما، فقد وآتته فرصة شجعته على تعميق دراسته لروسيا.

ففي منتصف فبراير 1881، تلقي رسالة موجزة، مكثفة ومحفزة وفي الوقت نفسه، من فيرا زاسوليتش[143] Vera Zasulich (1848–1919)، عضو جماعة إعادة التوزيع السوداء الشعبوية Populist Black Redistribution، وقد سبق لها محاولة اغتيال قائد شرطة سان بطرسبرغ. وجاءت الرسالة بالفرنسية بتاريخ 16 فبراير، مرسلة من جنيف، حيث لجأت هناك هربًا من تعقب الشرطة القيصرية.

وبوصفها من أشد المعجبين بماركس، اعتقدت أنه لا بد أن يكون على علم بشعبية كتابه رأس المال في روسيا، أرادت زاسوليتش أن تتأكد إذا كان ماركس مدركًا أيضًا درجة تأثيره ونفوذه الأدبي في السجالات الدائرة بين الثوريين الروس حول (المسألة الزراعية والمشاعة الريفية). وقد شددت في رسالتها على أن

---

[140]" تجذبني حركة تحرير الأقنان في روسيا، وهي مهمة بقدر ما تشير إلى بداية تطور داخلي قد يتعارض مع السياسة الخارجية التقليدية للبلاد"، ماركس إلى فريدرك إنجلز , 29 أبريل 1858 الأعمال المجمعة، مجلد 40، ص310في ذلك الوقت كان الأقنان يمثلون حوالي 38 % من سكان روسيا.

[141]بمراجعة أعماله عام 1877، كتب ماركس: "كي أستطيع التوصل إلى حكم مبني على معرفة حقيقية بشأن النمو الاقتصادي في روسيا، تعلمت الروسية وبعد ذلك لسنوات عديدة درست المنشورات الرسمية الروسية وغيرها مما له علاقة بتلك المسألة"، كارل ماركس،'A Letter to the Editorial Board of Otechestvennye ZaPiski' ، in Teodor Shanin (المحرر.)، Late ماركس والطريق الروسي. ,London: Routledge, 1984 ص.135 كان أهم ما صادفه أعمال الفيلسوف والثوري الروسي Nikolai Chernyshevsky (1889 - 1828). الذي اقتنى ماركس مجموعة من كتبه: انظر المعلومات المتضمنة في المجلد Die Bibliotheken von كارل ماركس und فريدريك إنجلز، MEGA2، جزء32 / IV .، صفحات7-184 .. مقتطفات من كتاب تشيرنيشفسكي المشهور "نقد التحيز الفلسفي ضد الملكية الجماعية" المترجم إلى Shanin، ماركس والطريق الروسي إلى نيكولاي دانيلسون صفحات .190-182 .ماركس. أوغل ماركس بعيدا في دراسة الروسية إلى درجة أن صار ذلك موضوعا للدعابة مع إنجلز، يشير بول لافارج إلى أن ماركس قال لإنجلز مازحا أنه "سوف يعيطه بكل سرور الأوراق المتعلقة بمسار الملكية في روسيا، لأنها عطلته سنوات عديدة عن استكمال رأس المال". بول لافارج،' فريدريك إنجلز '9،. The Social Democrat,. مجلد 15) August 1905), 8, ص.487

[142]انظر – هنري إيتون Henry Eaton، ماركس والروس، جريدة تاريخ الأفكار. Journal of the History of Ideas. ويتضمن أسماء كل الروسيين الذين التقي معهم ماركس أو راسلهم، مفهرسة بترتيب أبجدي.

[143] فيرا زاسوليتش،" رسالة إلى ماركس" in Shanin(المحرر.)، "ماركس المتأخر والطريق الروسي" سبق ذكره. صفحات 98-99. (فيرا زاسوليتش – ثورية روسية، تأثرت بباكونين وانضمت إلى الفوضويين، وانضمت لاحقا إلى جماعة تحرير العمل الماركسية متأثرة بالفيلسوف الماركسي الروسي جورج بليخانوف Georgi Valentinovich Plekhanov، وعندما اندلعت ثورة أكتوبر وقفت موقفًا مناهضا لها. (المترجم))

ماركس "الأفضل بلا منازع" في إدراك أهمية تلك القضية باعتبارها –قضية حياة أو موت– في نظر الثوريين الروس – مضيفة "إلى درجة أن مصير اشتراكيينا الثوريين الروس يتوقف على استجابته لتلك القضية".[144] ثم تطرقت زاسوليتش في إيجاز إلى نقطتين رئيسيتين برزا خلال النقاشات الروسية، وهما:

أن المشاعة الريفية إذا ما استطاعت التحرر من الضرائب الباهظة التي تدفعها للنبلاء والحكومة المستبدة، وتمكنت من التطور في اتجاه اشتراكي، ومن تنظيم عملية الإنتاج والتوزيع تدريجيًا على أسس جماعية، سيجب في تلك الحالة على الاشتراكي الثوري تكريس كل جهوده من اجل تحرير وتطوير المشاعة الريفية.

ولو أن مصير تلك المشاعة الريفية هو الانحلال والزوال، فكل ما سيتبقي للمناضل الاشتراكي حينها، لن يزيد على تقدير كم عقدًا من الزمن سيستغرقه انتقال أرض الفلاحين الروس إلى البرجوازية، وكم قرنًا سيلزم الرأسمالية لتصل إلى ما يقارب مستوى التطور الرأسمالي الذي حققته أوروبا الغربية بالفعل. وستكون مهمة الاشتراكيين حينها القيام فقط بالدعاية بين عمال المدن، بينما سيكون هؤلاء العمال مغمورين باستمرار بجموع الفلاحين الذين سيلقى بهم، بعد تحلل المشاعة الريفية، إلى شوارع المدن الكبرى بحثًا عن عمل مأجور.

أشارت زاسوليتش أيضًا إلى أن بعض المشاركين في الجدل يزعمون أن "المشاعة الريفية هي شكل إنتاج قديم محكوم عليه بالتحلل والزوال بفعل التقدم التاريخي، بحكم الاشتراكية العلمية، وباختصار، لا مجال للجدل حول أي شيء". وهؤلاء الذين يتبنون تلك الرؤية يقولون عن أنفسهم أنهم "ماركسيون بإمتياز". وأنهم معتنقون لأفكار ماركس، وحجتهم الأقوى في أغلب الأحيان "أن ماركس قال كذا".

لذلك ناشدت زاسوليتش ماركس في رسالتها قائلة: "ستقدم لنا خدمة رائعة لو أخبرتنا عن تصورك حول المصير المحتمل لمشاعتنا القروية، والمفهوم النظري حول ما إذا كان محتمًا أن تمر كل البلدان في العالم بجميع مراحل الإنتاج الرأسمالي". وكانت القضية جوهرية، وزاسوليتش مهتمة جدًا بمعرفة وجهة

[144] المرجع السابق.

نظر المفكر الأكثر شهرة في عصرها. وأنهت رسالتها مطالبة إياه بإجابة "على الأقل في شكل رسالة"،[145] إذا لم يسمح الوقت بتقديم شرح مفصل يمكن ترجمته ونشره باللغة الروسية.

وصلت القضية التي طرحتها زاسوليتش في الوقت الملائم، حيث كان ماركس منهمكًا بالفعل في دراسة أشكال الإنتاج السابقة على الرأسمالية، وحفزته رسالتها على إجراء تحليل حول حالة تاريخية فعلية، ذات أهمية معاصرة كبيرة، ومتماسة جدًا مع اهتماماته النظرية حينها. ويمكن إدراك مدى تعقيد إجابته، في سياق أفكاره حول الرأسمالية والانتقال إلى الاشتراكية فقط.

2. هل الرأسمالية مرحلة ضرورية للوصول إلى المجتمع الشيوعي؟

كان الاعتقاد في أن توسع نمط الإنتاج الرأسمالي يعتبر شرطًا مسبقًا لميلاد الاشتراكية، أمرًا شائعًا في جميع أعمال ماركس. وأعلن هو وإنجلز في بيان الحزب الشيوعي، أن محاولات إشعال ثورة عمالية أثناء مرحلة الإطاحة بالنظام الإقطاعي كان محكومًا عليها بالفشل، عازيًا ذلك إلى "عدم نضج الطبقة العاملة، فضلًا عن غياب الشروط الاقتصادية لتحررها، تلك الشروط التي لم يتم إنتاجها بعد، والتي يمكن تحقيقها فقط خلال حقبة البرجوازية الوشيكة."[146]

فرضت البرجوازية من خلال استغلال الاكتشافات الجغرافية الجديدة، وميلاد السوق العالمي، طابعًا عالميًا للإنتاج والاستهلاك في كل بلد.[147] والأهم من ذلك، أنها خلقت السلاح الذي سيوجه إلى صدرها، والبشر الذين سيستعملون ذلك السلاح، أي "الطبقة العاملة الحديثة، البروليتاريا،"[148] التي تنمو مع كل توسع للرأسمالية. بالنسبة لماركس وإنجلز، يحقق تقدم الصناعة، الذي تحفزه البرجوازية تلقائيًا، وضع الاتحاد الثوري للعمال بسبب تجمعهم، بدلًا من تشتتهم بسبب عملية المنافسة.[149]

---

[145] المرجع ذاته. مسارات اليوتيبا. 1996.:Syracuse: Syracuse University Press ص.91 علق مارتن بوبر: "إن القرار بشأن أي من المسارين يعني أن الحقيقة التاريخية أودعت في أيدي ماركس".

[146] كارل ماركس وفريدريك إنجلز. بيان الحزب الشيوعي، الأعمال المجمعة، مجلد 6 ,ص .514 .

[147] 488. ص ,.المرجع السابق

[148] 490. ص ,.المرجع السابق

[149] 496. ص ,.المرجع السابق

عبر ماركس عن نفس التصور في مناسبة ذات سمة سياسية أكثر، وهي خطابه المتألق "في الذكري السنوية لجريدة الشعب" (1856). إذ ذكر المناضلين الحاضرين للمناسبة بأن "قوى صناعية وعلمية لم يسبق لها مثيل تاريخيًا قد ولدت مع الرأسمالية"، وقال لهم "إن البخار والكهرباء والآلات الميكانيكية، ذات طابع أكثر خطورة حتى من المواطنين باربيز barbes، أو راسبيل raspail، أو بلانكي blanquettes.[150]

في الجروندريسه Grundrisse، كرر ماركس عدة مرات فكرة أن الرأسمالية تخلق مجتمعًا برجوازيًا، وتحقق السيطرة الشاملة من أعضاء المجتمع على الطبيعة والروابط الاجتماعية نفسها، وأكد في هذا النص بوضوح على:

أن الرأسمال يدفع إلى تخطي الحدود والتحيزات القومية، وبنفس الدرجة إلى تخطى تأليه الطبيعية، والاشباع التقليدي للحاجات الفعلية، وإعادة إنتاج أساليب الحياة القديمة المحصورة داخل الحدود الراسخة من عهد طويل، والمقبولة بالتراضي. يتجه رأس المال إلى تدمير كل هذه الاشياء، وتثويرها باضطراد، هادمًا كل الحدود المعيقة لتطور قوى الإنتاج، ولتوسيع نطاق الحاجات، ولتمايز الإنتاج، واستغلال وتبادل القوي الطبيعية والروحية.[151]

ويمكن العثور في نهاية كتاب رأس المال لماركس، مجلد 1، في القسم المعنون "الميل التاريخي للتراكم الرأسمالي"، على أحد أكثر القراءات تحليلية حول الأثار الإيجابية للإنتاج الرأسمالي. وفي الفقرة المشار إليها، يلخص الشروط الستة التي تنتجها الرأسمالية –عن طريق عملية المركزة التي تقوم بها[152] (Koncentration)– والتي تشكل الأساس اللازم لولادة المجتمع الشيوعي. وتتمثل هذه الشروط في: 1)

---

[150]كارل ماركس. ، "خطاب في الذكرى السنوية لجريدة الشعب، الأعمال المجمعة .مجلد 14، ص 655. (فرانسوا فنسنت راسبيل، (1794 – 1878) اشتراكي فرنسي وأستاذ في الفلسفة وعالم في الفيزياء والكيمياء، سجن عدة مرات بسبب مواقفه السياسية، وانتخبه الفرنسيون في عدة مقاطعات، أحد أهم رواد الطب الوقائي، وتدرس طرقه الوقائية تحت اسم "أسلوب راسبيل" كما كتب عدة مؤلفات متنوعة. لوي أوجست بلانكي (1805 – 1881) ثوري فرنسي من أصل إيطالي، من اهم قادة ومنظري الفوضويين، شارك في قيادة الثورتين الفرنسيتين، 1848/1830 وفي الإعداد لانتفاضة في باريس في مايو 1839. قضى أكثر من ثلاثين عاما في سجون فرنسا وحكم عليه بالإعدام مرتين، من أشهر مؤلفاته، دفاع عن المواطن، الجيش المستعبد، لا إله ولا سيد. (المترجم))

[151]ماركس "خطوط أولية حول نقد الاقتصاد السياسي" (الجرندروسية) الأعمال مجلد 28 ص 337. لتعليق حول هذا النص الهام والمعقد، انظر - Marcello Musto(المحرر.)، جرندروسية كارل ماركس-، 15 عام على أسس نقد الاقتصاد السياسي، London: Routledge, 2008.

[152]الأعمال المجمعة، مجلد 35، ص 749 (أهمية عملية المركزة تأتى – لدي ماركس - مما تقوم به الرأسمالية من تجميع لرأس المال في مشاريع كبيرة وضخمة، وأيضا تجميع العمال معا بأعداد هائلة في مصانع وقطاعات صناعية كبيرة، مما يحفز أولا القدرة الإنتاجية في البلد المعنى، ويحفز بالتساوي ليس فقط القدرة الإنتاجية للعمال ولكن قدرتهم الطبقية في مواجهة رأس المال الذي يوظفهم ويستغلهم، هذه العملية توفر فرص لكل من التطور الاقتصادي، والثورة الاجتماعية. (المترجم))

عملية العمل القائم علي التعاون بين المنتجين، و2) مساهمة العلوم التقنية في عملية الإنتاج، و3) تخصيص قوى الطبيعة لمتطلبات الإنتاج، و4) خلق الآلية التي يمكن للعمال تشغيلها بشكل مشترك فقط، و5) تحقيق وفورات في كل وسائل الإنتاج، و6) الميل لخلق سوق عالمية.

ووفقًا لماركس:

فجنبًا إلى جنب (...) مع نزع ملكية كثير من الرأسماليين على يد قلة منهم، تحدث تطورات أخرى على نطاق آخذ في التوسع باستمرار. ومن مثل هذه التطورات، نمو الشكل القائم على التعاون في عملية الإنتاج، والتطبيق التقني الواعي للعلوم، وزراعة التربة بشكل منهجي، وتحول أدوات العمل إلى أدوات عمل لا يمكن استخدامها إلا بشكل مشترك، وتحقيق وفورات في كل وسائل الإنتاج عبر استخدامها بوصفها وسائل إنتاج لعمل مجمع ذو طابع اجتماعي، وتشابك كل الشعوب في شبكة السوق العالمية، والطبيعة عالمية للنظام الرأسمالي.[153]

وأدرك ماركس جيدًا أن تركز الإنتاج في يد عدد محدود من ملاك الأعمال يؤدي إلى "اتساع بؤس، وقهر، وعبودية، واستغلال وتدهور طبقة العمال".[154] لكنه كان واعيًا أيضًا أن "الرأسمالية التي تشغل العاملين بأجر ستؤدي إلى تعاونهم".[155] وكان مقتنعًا بأن النمو الاستثنائي لقوى الإنتاج في ظل الرأسمالية، كان الأكبر والأسرع من أي نمط إنتاج آخر وجد من قبل. وبخلق هذا الشروط اللازمة للتغلب على علاقات الإنتاج الاجتماعية الاقتصادية، التي جلبتها الرأسمالية نفسها، ومن ثم يصير الانتقال ممكنًا إلى مجتمع اشتراكي.

كتب ماركس في رأس المال "إن نمط الإنتاج الرأسمالي يقدم نفسه لنا تاريخيًا باعتباره شرطًا لازما لتحويل عملية العمل إلى عملية اجتماعية"[156] ومن وجهة نظره "تتطور قوي العمل المنتجة اجتماعيًا، كأنها هدية مجانية من رأس المال، فحينما يوضع العمال تحت شروط محددة، يكون رأس المال هو الذي وضعهم

[153] .750 ص ,.المرجع السابق
[154] .750 ص ,.المرجع السابق
[155] .336 ص ,.المرجع السابق
[156] .340 ص ,.المرجع السابق

تحت تلك الشروط."[157] لقد فهم ماركس أن أغلب االأحوال الملائمة للانتقال إلى الشيوعية، يمكن تحققها فقط عبر عملية توسع رأس مال:

يصر الرأسمالي بحماس بالغ على تزايد القيمة من تلقاء نفسها، ويجبر البشر جميعهم بلا رحمة على الإنتاج من أجل الإنتاج؛ وبذلك يدفع إلى تطور القوى الإنتاجية للمجتمع، ويخلق تلك الشروط المادية، القادرة وحدها على تشكيل الأسس الواقعية لشكل اجتماعي أعلى، مجتمع يكون المبدأ الحاكم له، هو التطور الحر والكامل لكل فرد من أفراده.[158]

ويقدم ماركس مزيدًا من الأفكار حول الدور الحاسم لنمط الإنتاج الرأسمالي في تمهيد الطريق للشيوعية، وذلك في نقده للاقتصاد السياسي. فقد كتب في الجروندريسه، رغم ميل رأس المال إلى خلق وقت فراغ، إلا أنه يحوله لاحقًا إلى عمل فائض.[159] فهو يزيد العمل إلى أقصى درجة، في حين أن كمية العمل المطلوبة لإنتاج منتج ما قد انخفضت في الواقع إلى أدنى درجة. وكانت تلك النقطة أساسية تمامًا بالنسبة لماركس؛ فكمية العمل تنخفض "لصالح تحرير العمل"، وكان ذلك "شرطًا ضروريًا لتحرير العمل".[160] ومن هنا كان رأس المال "فعالًا، دون إرادة منه، في خلق الوسائل التي توفر وقت فراغ اجتماعي، بتخفيضه وقت العمل المطلوب في المجتمع برمته إلى الحد الأدنى، ومن ثم توفير وقت الفراغ للجميع من أجل تطورهم الذاتي."[161]

أن ماركس لم يعتقد فقط في فضل قدرة النظام الرأسمالي على توسيع نطاق القوي الإنتاجية إلى حده الأقصى، بل في إنه كان أيضًا النظام الأفضل مقارنة بأي نظام سابق عليه. فقد فهم أيضًا أن هذا النظام على الرغم من استغلاله الوحشي للبشر، إلا أن لديه عدة عوامل قد تكون تقدمية، تسمح بحفز القدرات الكامنة في الأفراد، مقارنة بالمجتمعات السابقة بكثير. وعلي رغم نفوره العميق من مبدأ الرأسمالية

---

[157] .338 ص ,.المرجع السابق

[158]المرجع السابق، ص588. انظر أيضا رسالة ماركس في 7 ديسمبر 1867، حيث قدم إلى إنجلز مجموعة من النقاط الرئيسية التي يرغب الإشارة إليها في عرض رأس المال الذي يعده. وصف رأس المال بوصفه شرحًا لأن "المجتمع الحالي، يحمل، من الوجهة الاقتصادية، في أحشاءه، جنين شكل اجتماعي اعلي". ويتبع ذلك القيام بمقارنة محفوفة بالمخاطر بين اكتشافاته ونظرية داروين في الارتقاء، اقترح كذلك إظهار أن كتابه بين "وجود تقدم خفي حتى عندما تكون العلاقات الاقتصادية الحديثة مترافقة مع نتائج مباشرة مخيفة"، وأيضا " وفقا لمقاربته النقدية، يبدو وكأنه، دون قصد، قرع ناقوس الموت، مرة وإلى الأبد، لكل أنواع الاشتراكية اليوتوبية، وأخيرا، من بين الجمل التي اقترحها على إنجلز، التشديد على قناعة عميقة بأنه "في حين أن السيد لاسال قد ألقى بكل أنواع الإساءات على الرأسماليين وداهن الرجعية البروسية، قام السيد ماركس، على العكس، بإيضاح الأهمية التاريخية للإنتاج الرأسمالي" ,كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز ,7 December 1867 ,الأعمال المجمعة ,42 ص .494

[159].94 ص ,29 الأعمال المجمعة ،' خطوط أولية حول نقد الاقتصاد السياسي' ماركس،

[160] .87 ص ,.المرجع السابق

[161] .94 ص ,.المرجع السابق

الإنتاجوي، المتعلق بوجوب إنتاج عمل فائض، إلا أنه نظر بعين الاعتبار إلى الزيادة في القدرات الإنتاجية، التي ترتبط مع نمو قدرات الأفراد. وناقش في الجرندروسيه بالفعل:

لقد غيرت إعادة الإنتاج في حد ذاتها ليس فقط الشروط الموضوعية –على سبيل المثال أن تصبح القرية مدينة، وتصبح القفار مناطق مستزرعة، الخ– بل المنتجين أيضًا، الذين غيروا أنفسهم، حتى طوروا خصائص جديدة داخلهم، واكتسبوا عبر الإنتاج طاقات وأفكار جديدة، وأنماط جديدة في التفاعل، واحتياجات جديدة، وتخاطب جديد.[162]

خلق هذا التقدم الكثيف والمعقد للقوى الإنتاجية "التطور الأكثر ثراءً للأفراد"[163] و"الشمولية" في العلاقات بين البشر[164].

ورسم ماركس في رأس المال أيضًا الخطوط العامة "للطريقة التي يحطم بها تبادل السلع كل الحدود الشخصية والمحلية المرتبطة بالمقايضة المباشرة، ويطور شبكة كاملة من العلاقات الاجتماعية ذاتية التطور، والمتجاوزة تمامًا تحكم الفاعلين.[165] وتستدعي هذه الشبكة المتسلطة أن يتم اللإنتاج في ظل شكل يتلائم مع التطور الكامل للجنس البشري".[166]

وأخيرًا، اعتقد ماركس أن ثمة نزعات محددة في الرأسمالية لصالح تحرير النساء وتحديث العلاقات في نطاق العائلة. وكتب في النص الهام "تعليمات للمندوبين في المجلس المؤقت العام. مسائل مختلفة– 1866"، الذي أُعد من أجل المؤتمر الأول للرابطة الدولية للعمال: "كان اتجاه الصناعة الحديثة إلى جعل الأطفال والأحداث من الجنسين يتعاونون في عمل الإنتاج الاجتماعي الرائع، اتجاها تقدميًا وصحيًا ومشروعًا"، رغم أنه "تشوه، في ظل رأس المال، إلى شيء منفر".[167]

كما عبر عن أراء مماثلة في رأس المال. على سبيل المثال:

---

[162].418 ص ,28 الأعمال المجمعة ،' خطوط أولية حول نقد الاقتصاد السياسي' كارل ماركس

[163] .465 ص ,.المرجع السابق

[164] .465ص ,.المرجع السابق

[165]ماركس. رأس المال الجزء الأول. ص 145.

[166]المرجع السابق. ص – 507.

[167]كارل ماركس "تعليمات لمندوبي المجلس العام المؤقت. حول القضايا المختلفة". الأعمال مجلد 20 ص 145.

أيا ما كانت الفظاعة والقبح الذي ربما يظهر به تحلل روابط الأسرة التقليدية في ظل النظام الرأسمالي، إلا أنه بفضل تحقيق الصناعة الحديثة لهذا، أصبح جزء مهم في عملية الإنتاج يتم خارج مجال الأسرة. فبالنسبة للنساء، الشباب، والأطفال من الجنسين، تخلق الصناعة أساس اقتصادي لشكل أرقى للأسرة وللعلاقات بين الجنسين.[168]

أضاف ماركس أن الإنتاج الرأسمالي بالرغم من تحطيمه روابط العلاقات القديمة تمامًا، وكانت تجمع بين الزراعة والصناعة الصغيرة في مراحلها البدائية، إلا أن ذلك جمع السكان في مراكز كبري، (...) وتسبب في زيادة عدد سكان المدن بإضطراد دائم، ومركزة القوة المحركة التاريخية للمجتمع.[169]

باختصار، برهن ماركس، إنطلاقًا من منهجه الجدلي المطبق في رأس المال ومسوداته التحضيرية، على أن المحصلة هي أن "عناصر تكوين مجتمع جديد، تنضج بالتوازي مع "الشروط المادية، ودمج عمليات الإنتاج على نطاق اجتماعي".[170] هذه "المقدمات المنطقية المادية" حاسمة فيما يتعلق بالتوصل إلى "تركيب اجتماعي أعلى في المستقبل"،[171] ورغم أن الثورة لن تنهض أبدًا من خلال الديناميكيات الاقتصادية وحدها، بل سيلزم دائمًا العامل السياسي أيضًا، فإن ظهور الشيوعية يتطلب بالنسبة "للمجتمع، أن يكون هناك أساس مادي معين أو مجموعة من شروط التحقق، تمثل بدورها منتجًا تلقائيًا لعملية تطور طويلة ومؤلمة".[172]

وهناك أفكار مشابهة تؤكد استمرارية تفكير ماركس على هذا النحو، مضمنة في كتابات قصيرة، لكن مهمة، وذات طابع سياسي، كتبها بعد رأس المال. وفي مقتطفاته وملاحظاته النقدية حول كتاب باكونين "الدولة والاناركية"، الذي يوثق اختلافاته الجذرية مع الثورة الروسية حول الشروط الأولية المطلوبة اللازمة لبديل المجتمع الرأسمالي، قال ماركس ما يلي عن العامل الذاتي الذي سيقود النضال الاجتماعي:

---

[168].ماركس. رأس المال. مجلد 1. سبق ذكره، ص 492

[169]ماركس. رأس المال. مجلد 1. سبق ذكره، ص 506.

[170] 5- 504-صفحات ,.المرجع السابق

[171] ص - 506 ,.المرجع السابق

[172] صفحات 90 - 91..المرجع السابق.

ترتبط الثورة الاجتماعية الجذرية، بشروط تاريخية محددة للتطور الاقتصادي؛ تمثل تلك الشروط مقدمة منطقية لها. ولهذا هي ممكنة فقط عندما يترافق الإنتاج الرأسمالي مع وجود بروليتاريا صناعية تمثل على الأقل نسبة مهمة من الشعب.[173]

وفي نقد برنامج جوته Gotha Programme، تحدث كذلك عن الحاجة إلى "إثبات ملموس لمدى تكون الشروط المادية وما إلى آخره، في ظل المجتمع الرأسمالي الراهن، التي تمكن العمال من رفع تلك اللعنة التاريخية عن كاهلهم، وتجعلهم قادرين علي ذلك".[174] وأخيرًا، في أحد أعماله القصيرة المنشورة في فترة أحدث، "مقدمة" للبرنامج الانتخابي لحزب العمال الاشتراكي الفرنسي (1880)، أكد أن أحد الشروط الأساسية للمنتجين للاستيلاء على أدوات الإنتاج، هو الشكل الجماعي، الذي تمت صياغة عناصره المادية والفكرية من خلال تطور المجتمع الرأسمالي بالتحديد.[175]

خلال كتاباته، كان ماركس حريصًا على تفادي الصياغات التي قد توحي بوجود نموذج عالمي للمجتمع الاشتراكي، واعتبر أن فكرة كتلك غير مجدية بل وتؤدى إلى نتائج سلبية. ولذلك، أشار في خاتمة الطبعة الألمانية الثانية من رأس المال (1873) إلى أن "كتابة وصفات لمحلات طهو المستقبل" لم يكن بأي حال من الأحوال ضمن اهتماماته،[176] ولنفس السبب في 1879–1880، وفي معرض رده على الانتقادات التي وجهها له الاقتصادي الألماني أدولف فاجنر Adolph Wagner (1835–1917)، كتب بشكل قاطع "لم أقم على الإطلاق بتأسيس "نظام اشتراكي"".[177]

وكما لم يبد ماركس إطلاقًا أي رغبة في تخيل الصورة التي ينبغي أن تكون عليها الاشتراكية، فهو كذلك لم يؤكد في أفكاره حول الرأسمالية، أن المجتمع البشري مقدرًا عليه في كل مكان اتباع الطريق نفسه، أو اجتياز المراحل نفسها خلال تطوره. رغم ذلك، وجد نفسه مضطرًا للرد على الأطروحة، التي نسبت إليه

---

[173]ماركس "ملاحظات حول كتاب باكونين، الانارکية والدولة." الأعمال، مجلد 24 ص 518.

[174]كارل ماركس. "نقد برنامج جوته". الأعمال، مجلد 24، ص 83.

[175]كارل ماركس "مقدمة برنامج حزب العمال الفرنسي" الأعمال، مجلد 24 ص 340. الطبعة الكاملة لهذا البرنامج ليست موجودة ضمن الأعمال المجمعة، وقد أعيد طبعها في ملحق مرفق بهذا الكتاب تحت عنوان "البرنامج الانتخابي للعمال الاشتراكين" ماركس، لافارج، جوسيد. انظر الملحق بعد الفصل الرابع مباشرة. [175]

[176]ماركس. رأس المال. جزء 1. ص 17.

[177]ماركس - ملاحظات هامشية حول أدولف واجنر،’s Lehrbuch der Politischen Ökonomie‘، الأعمال المجمعة مجلد24، ص 533.

زورًا، قول أن نمط الإنتاج البرجوازي حتمية تاريخية في كل مكان. ويقدم السجال حول أفق التطور الرأسمالي في روسيا دليلًا واضحًا على عدم صحة ذلك.

وفي نوفمبر عام 1877، كتب ماركس رسالة مطولة لإرسالها إلى هيئة تحرير صحيفة "مذكرات وطنية" Otechestvennye Zapiski، للرد على مقال حول مستقبل المشاعة الريفية في روسيا (obshchina) تحت عنوان "كارل ماركس أمام محكمة السيد جوكوفسكى Zhukovsky– بقلم الناقد الأدبي وعالم الاجتماع نيكولاي ميخائيلوفسكي Nikolai Mikhailovsky" (1842–1904). وأعاد ماركس كتابة الرسالة مرتين، ولكنها في النهاية ظلت مسودة (بها بعض علامات الشطب) ولم ترسل فعليًا أبدًا. ورغم ذلك، فقد تضمنت بعض استباقات مثيرة للحجج التي سيستخدمها ماركس لاحقًا في رده على زاسوليتش.

وفي سلسلة مقالات، طرح ميخائيلوفسكي سؤالًا مشابهًا إلى حد كبير، عدا بعض الاختلافات الطفيفة، للسؤال الذي ستطرحه زاسوليتش بعده بأربع سنوات. وبالنسبة لرسالة زاسوليتش، كان جوهر الموضوع متعلقًا بالتأثير الذي قد تعكسه التغيرات المتوقعة في المشاعة الريفية، على النشاط الدعائي للحركة الاشتراكية. ومن الناحية الأخرى، اهتم ميخائيلوفسكي بمناقشة المواقف المختلفة المتعلقة بمستقبل المجتمع القروي على المستوى النظري، بداية من أطروحات الاقتصاديين الليبراليين التي تقول إن على روسيا التخلص من المشاعة الريفية، وتبني النظام الرأسمالي، وأطروحة أخرى تقول أن المشاعة قد تحقق مزيدًا من التطور وتتجنب الأثار السلبية لنمط الإنتاج الرأسمالي على السكان الريفيين.

وفي حين كان اتصال زاسوليتش بماركس للتعرف على وجهة نظره، والحصول على إرشادات تساعد في النشاط العملي، كان ميخائيلوفسكي، وهو ممثل هام للشعبوية الروسية[178] يميل إلى الأطروحة الثانية، وظن أن ماركس يفضل الأطروحة الأولي. وكتبت زاسوليتش "من وجهة النظر التي يتبناها الماركسيون، يعتبر تطور الرأسمالية أمر لا مفر منه"، إلا أن ميخائيلوفسكي ذهب إلى ابعد من ذلك زاعمًا أن كاتب تلك الفكرة هو ماركس نفسه، في رأس المال. لكنه عجز عن البرهنة على صحة زعمه بمقتبسات دقيقة

[178]تم ترجمة القليل من المواد التي وضعها الشعبويين الروس إلى اللغة الإنجليزية. المصادر الثانوية الهامة هي، James H. Billington، ميخائيلوفسكي والشعبوية الروسية Mikhailovsky and Russian Populism، Oxford: Clarendon Press, 1958، Andrzej Walicki، جدل حول الرأسمالية: دراسات في الفلسفة الاجتماعية للشعبويين الروس - Controversy Over Capitalism: Studies in the Social Philosophy of the Russian Populists، Clarendon Press, 1969، وفرانسوا فينتوري Franco Venturi، جذور الثورة: تاريخ الحركات الاجتماعية والشعبوية في روسيا القرن التاسع عشر A History of the Populist and Socialist Movements in Nineteenth Century Russia، New York: Alfred A. Knopf, 1960.

من ماركس، وبدلًا من ذلك استشهد بإشارة ماركس الحادة إلى ألكسندر هيرزن Aleksandr Herzen (1812–1870) المكتوبة في ملحق الطبعة الألمانية الأولى لرأس المال[179]. في الواقع، كان ماركس يعارض دومًا مواقف هيرزن، على أساس أن استخدامه للمشاعة الروسية، كان فقط لزعم "إن أوروبا القديمة الفاسدة يجب تجديدها من خلال انتصار الوحدة السلافية". قال ماركس بحدة أكبر، أن احتداده على هيرزن لا يمكن تحويله إلى تزوير لوجهة نظره، أو إلى، كما ادعى ميخائيلوفسكي، استبعاد الجهود التي يبذلها الشعب الروسي ليجد لبلده طريقًا للتطور مختلفًا عن الطريق الذي مرت، ولا تزال تمر به، دول غرب أوروبا.[180]

ولهذا، وبما أن ماركس كان ينفر من الغموض النظري، فقد اهتم في رسالته إلى هيئة تحرير "مذكرات وطنية" بأن "يتحدث بطريقة مباشرة" وأن يعبر عن الاستنتاجات التي توصل إليها بعد سنوات عديدة من البحث والدراسة. بدأ بالعبارة التالية، التي حذفها لاحقا من المسودة: "إذا استمرت روسيا في السير في نفس الطريق الذي اتبعته منذ 1861، سوف تخسر أهم فرصة يقدمها التاريخ للشعب الروسي، وستخضع لجميع التقلبات المصيرية للنظام الرأسمالي."[181]

وتعلق الإيضاح الرئيسي الأول لماركس بالمناطق التي أشار إليها في تحليله، فذكر بأنه في مقطع من رأس المال بعنوان "ما يسمى بالتراكم البدائي"[182]، سعي إلى وصف النحو الذي أدى به "تحلل البنية الاقتصادية للمجتمع الإقطاعي" إلى إطلاق العناصر اللازمة لتكوين البنية الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي في أوروبا الغربية. وتلك العملية لم تحدث في مكان آخر من العالم، سوي في تلك القارة القديمة فقط.

---

[179]انظر كارل ماركس، *Nachtrag zu den Noten des ersten Buches*, in Karl Marx, *Das Kapital*, MEGA² II/5, Berlin: Dietz, 1983, p. 625. تم استبعاد "ملحق ملاحظات المجلد الأول" من الإصدارات التالية وتم حذفه من جميع ترجمات العمل.

[180]كارل ماركس،'Letter to Otechestvennye ZaPiski' ، in Shanin (المحرر.)، ماركس المتأخر والطريق الروسي، سبق ذكره. صفحات .5-134 .

[181]المرجع السابق ,.ص.135

[182]761-704 .صفحات .سبق ذكره جزء أول، كارل ماركس، رأس المال،

وأشار ماركس إلى فقرة في الطبعة الفرنسية من رأس المال، أكد فيها أن أساس فصل المنتجين عن أدوات الإنتاج كان في "مصادرة ملكية المنتجين الزراعيين"، وأضاف "لم يتحقق هذا جذريًا سوى في إنجلترا فقط"، لكن كل البلدان الأخرى في أوروبا الغربية كانت تواصل المسار نفسه. [183]

يواصل ماركس مجادلته، مشيرًا إلى أن تحليله في رأس المال جاء فيه أن الميل التاريخي للإنتاج الرأسمالي يكمن في "خلقه عناصر نظام اقتصادي جديد، يعطى قوة دفع هائلة لكل من القوى الإنتاجية للعمل الاجتماعي، ولتطور كل منتج فرد من جميع النواحي؛" وفي الواقع "ارتكز بالفعل علي نمط إنتاج جماعي،" ولم يكن بمقدره إلا التحول إلى ملكية اجتماعية.[184]

إذًا، يستطيع ميخائيلوفسكي تطبيق مخططه التاريخي على روسيا في اتجاه واحد فقط: "إذا كانت روسيا تتجه لأن تصبح أمة رأسمالية مثل دول غرب أوروبا" –كان ماركس يرى إنها كانت تتحرك بالفعل في هذا الاتجاه في السنوات القليلة الماضية– فلن تنجح "دون تحويل جزء كبير من فلاحيها أولًا إلى بروليتاريين"، وبعد ذلك، فما أن تدخل ساحة النظام الرأسمالي، سيتعين عليها المرور تحت قوانينه التي لا تعرف الشفقة، مثل الشعوب الأخرى التي دنسها.[185]

وكان أكثر ما أزعج ماركس انطلاق ناقده إلى "تحويل مخططه التاريخي حول أصل الرأسمالية في غرب أوروبا، إلى نظرية فلسفية تاريخية بشأن مسار عام مفروض حتمًا على كل الشعوب، بصرف النظر عن الظروف التاريخية التي وجدوا أنفسهم فيها."[186] وأضاف بشيء من السخرية، "غير انى استميحه عذرًا. فقد أسبغ علي شرفًا أكثر مما ينبغي، وشوهني أكثر مما ينبغي أيضًا."

استخدم ماركس مثال نزع أراضي الفلاحين في روما القديمة وفصلهم عن وسائل الإنتاج، ملاحظًا أن هذا "لم يؤد إلى تحويلهم إلى عمال مأجورين، بل حولهم إلى عاطلين". ولم ينمْ حينئذ مجتمع رأسمالي، ولكن نمط إنتاج عبودي. واستنتج ماركس من هذا "أن الأحداث التي لها أفعال متشابهة، وتحدث في سياقات تاريخية مختلفة، تؤدى إلى نتائج متباينة تمامًا." ولابد لنا حتى نفهم التحولات التاريخية الحقيقية، من

---

[183]في رسالة إلى 'Otechestvennye ZaPiski ص 135. انظر أيضا - كارل ماركس، Le Capital. Paris: Flammarion, 1985,ص.169 تلك نقطة هامة، أضيفت أثناء اشتغال جوزيف روي Joseph Roy على الترجمة الفرنسية، لم يضمنها إنجلز في الطبعة الألمانية الرابعة سنة 1890، والتي أصبحت فيما بعد الطبعة المعتمدة في ترجمة أعظم إبداعات ماركس.

[184]' رسالة إلى - 'Otechestvennye ZaPiski 135 ص ,

[185]المرجع السابق، ص- 136.

[186]المرجع السابق.

دراسة كل ظاهرة على حدة، عندئذ فقط يمكن مقارنة كل منها بالأخرى. ولا يمكن على الإطلاق تفسيرها باستخدام مفتاح رئيسي master–key لنظرية فلسفية تاريخية، تأتي فضيلتها العليا من أنها فوق التاريخ الفعلي.[187]

وهكذا، قدم ميخائيلوفسكي، الذي يجهل بالفعل الموقف النظري الحقيقي لماركس، نقده بطريقة بدت وكأنها تنبؤًا بما ستعتنقه ماركسية القرن العشرين، والتي كانت بالفعل تنتشر بسرعة عجيبة بين أتباع ماركس في روسيا وفي كل مكان. وكان نقد ماركس لهذا التصور أهم ما في الموضوع، لأنه لم يكن متعلقًا بلحظتها فقط، ولكن بالمستقبل أيضًا.[188]

3. الطريق الأخر المحتمل

لمدة تقارب ثلاثة أسابيع، انهمك ماركس في أوراقه، كان مدركًا تمامًا أن عليه تقديم إجابة على سؤال نظري شديد الأهمية، وتوضيح وجهة نظره في مسألة سياسية حاسمة.[189] حصيلة عمله هي ثلاث مسودات طويلة، تحمل حجج متناقضة في بعض النقاط، أحيانًا. وفي النهاية، أرسلها في رده على رسالة زاسوليتش، وكانت كلها مكتوبة بالفرنسية، ومستهلة بطريقة واحدة.

وحتى يوجز تحليله حول الانتقال من "الإنتاج الإقطاعي إلى الإنتاج الرأسمالي"،[190] اختار مقطعًا من الطبعة الفرنسية لرأس المال، كان قد أدخلها في رسالة لهيئة تحرير "مذكرات وطنية" في نوفمبر 1877 (ولم يرسله). وفي مسار ثاني، كرر ماركس تأكيده على أنه قصر بوضوح (...) الحتمية التاريخية للانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية في نطاق "بلدان أوروبا الغربية".[191]

---

[187] المرجع السابق.

[188] Pier Paolo Poggio, *L'Obščina. Comune contadina e rivoluzione in Russia*, Milan: Jaca Book, 1978, p. 148.

[189]انظر Buber "مسارات اليوتوبيا" إلى نيكولاي دانيلسون، ص91 : كانت الجهود التي بذلها ماركس لإعطاء إجابة صحيحة على درجة عالية من الدقة والتدقيق، مما يجعلها فعلا جديرة بالإعجاب. قبل ذلك بالفعل كان يعمل على تلك القضية المعقدة، والان يعود إلى مهاجمة ما توصل إليه بعنف شديد. ومرة بعد أخري نراه يستبعد صيغة على درجة عالية من الدقة، فقط ليبحث عن صيغة أخري أكثر ملائمة. ورغم أن هذه الملاحظات ليست سوى مجموعة من التخطيطات المتفرقة، إلا أنها تبدو لي أهم محاولة انجزت لفهم موضوع مجتمع القرية الروسية.

[190]كارل ماركس، :Drafts of the Letter to Vera Zasulich' المسودة الثانية'، الأعمال المجمعة، جزء 24، ص 360 followed by the indication of the number of the draft and the Page number).ماركس،(hereafter:

[191].360 ص جزء 24، الأعمال المجمعة، ،'المسودة الثانية' كارل ماركس،

وضع هذا باعتباره مقدمة، ثم طور بعض الأفكار الثرية والمفصلة حول المشاعة الريفية بوصفها بذرة أولية للمجتمع الاشتراكي المستقبلي، وبحث الإمكانيات الملموسة لاحتمال تحقق ذلك في الواقع.

في المخطوطة الأولي،[192] والأطول بين المخطوطات الثلاثة، حلل ماركس ما اعتبره "الحجة الوحيدة الجادة"، على ضرورة "تفكك المشاعة الريفية الروسية". حيث بالرجوع إلى الماضي البعيد، قد نعثر على أشكال ملكية جماعية، بانماط متفاوتة القدم، في أوروبا الغربية، اختفت في كل مكان مع تقدم التطور الاجتماعي، فلماذا يجوز تفادى المصير نفسه في روسيا وحدها؟[193] في رده على تلك الحجة، كرر ماركس أنه لن يضعها في الاعتبار، إلا بقدر استنادها على التجارب الأوربية.[194] أما بالنسبة لروسيا:

إذا كان للإنتاج الرأسمالي أن يؤسس لسيطرته على روسيا، فلابد من تحويل الأغلبية العظمى من الفلاحين، غالبية الشعب الروسي، إلى عمال مأجورين. وبناء على ذلك، نزع ملكيتهم من خلال إلغاء ملكيتهم المشاعية أولًا. ولكن في كل الأحوال، ما حدث سابقًا في الغرب لا يمكن أن يبرهن على شيء هنا مطلقا.[195]

لم يستبعد ماركس احتمال تحطم المشاعة الريفية وانهاء تجربتها الطويلة. ولكن إذا حدث ذلك، فلن يكون بسبب حتمية تاريخية ما.[196] كتب تعليقًا إلى زاسوليتش، مشيرًا إلى القائلين عن أنفسهم أنهم اتباعه، الذين زعموا أن ظهور الرأسمالية أمر حتمي، مستخدمًا سخريته المعهودة: لا علم لي إطلاقًا عن "الماركسيين" الروس الذين تحدثتى عنهم. وفي حدود علمي يحمل الروس الذين أتواصل معهم شخصيًا أفكارًا على النقيض من ذلك تمامًا.[197]

كانت تلك الإشارات المستمرة إلى التجارب الغربية مصحوبة بملاحظات سياسية بالغة الأهمية. ففي مقالته المرسلة إلى جريدة نيويورك تربيون في بداية الخمسينات، والمعنونة "الأثار المستقبلية للحكم البريطاني في الهند" (1853)، أشار إلى أن إنجلترا عليها القيام بمهمة مزدوجة في الهند: "الأولى

---

[192] For an alternative dating of the drafts of the letter to Vera Zasulich, see Haruki Wada, ' and ماركس
Re جزء in Shanin ,'utionary Russia(المحرر.)Late ,ماركس والطريق الروسي, .o سبق ذكره. صفحات.76-40 .

[193] ماركس. "المسودة الأولى" المرجع سبق ذكره، ص – 349.

[194] كارل ماركس،' المسودة الثالثة'، الأعمال المجمعة، جزء 24، ص.365

[195] ماركس،"المسودة الثانية" ص .361

[196] انظر - Teodor Shanin" ماركس الأخير: ألهه وحرفيين" في Teodor Shanin(المحرر.). ماركس المتأخر والطريق الروسي، ص – 61.

[197] .361 ص إلى نيكولاي دانيلسون،'المسودة الثانية' ماركس،

تدميرية والثانية خلَّاقة، تدمير النظام الاجتماعي الأسيوي القديم ووضع الأسس المادية لمجتمع غربي في أسيا".[198] ثمة تغير واضح في المنظور بالنسبة لأفكاره حول روسيا.

في 1853، لم يكن لدى ماركس أى وهم حول السمات الرئيسية للرأسمالية، فهم يعلم جيدًا أن البرجوازية لن تحرز تقدمًا، ما لم يصاحبه سحل الأفراد والشعوب في الدماء والوحل، عبر البؤس والتدهور.[199] لكنه كان مقتنعًا أيضًا أنه من خلال التجارة العالمية، وتطور قوى الإنتاج، وتحويل الإنتاج إلى شيء بمقدوره الهيمنة علميًا على قوى الطبيعة، ستخلق الصناعة والتجارة البرجوازية الشروط المادية اللازمة لإقامة عالم جديد.[200]

ونظرت القراءات المحدودة، السطحية أحيانًا، إلى هذا باعتباره دليلًا علي وجود نزعة مركزية أوربية أو استشراقية لدى ماركس.[201] في الحقيقة لم تكن هذه المفاهيم أكثر من رؤية جزئية متساهلة مع السياسة الاستعمارية، في كتابة صحفية، لشخص بلغ بالكاد الخامسة والثلاثون من عمره. وبعد ثلاثة عقود من البحث النظري العميق والملاحظة الدقيقة للتغيرات في السياسات العالمية، ناهيك عن ملخصاته الهائلة في "كراسات اثنولوجيية" (1880– 1882)، كانت لديه في 1881 وجهة نظر مختلفة تمامًا حول إمكانية تبنى الأشكال المشاعية ما قبل الرأسمالية. لذلك، وفي إشارة إلى "الهند الشرقية" كتب ماركس: "أن الجميع، باستثناء السيد هنري ماين Sir Henry Maine وآخرون على شاكلته يدركون أن حظر ملكية الأراضي المشاعية، لم يكن إلا عملًا من أعمال التخريب الإنجليزية، لا تدفع الشعب الهندي إلى

---

[198]كارل ماركس،' النتائج المستقبلية للحكم البريطاني في الهند'، الأعمال المجمعة، جزء12 .صفحات.18-217 .

[199]المرجع السابق ,.ص.221

[200]المرجع السابق ,.ص .222

[201]انظر، على سبيل المثال، إدوارد سعيد، الاستشراق. London: Routledge، 1995، صفحات6-153 .. يري، فعلا وليس فقط من باب الافتراض، أن "التحليلات الاقتصادية لماركس تعد متلائمة تماما (...) مع مشروع استشراقي قياسي"، ولكن أيضا ليوحي بأنها تعتمد على "التمييز القديم بين الشرق والغرب" (الاستشراق، لندن: بنغوين، 1995، P 154). في الواقع، كانت قراءة سعيد لعمل ماركس أحادية وسطحية. أول من اكتشف اختلال تفسيره هو صادق جلال العظم (1934-2016)، الذي كتب، في مقاله "الاستشراق والاستشراق المعاكس"، الخماسين، العدد. 8 (1980): "إن هذا الفهم لوجهات نظر ماركس وتحليلاته للعمليات والحالات التاريخية شديدة التعقيد هو قالب هزلي للحقيقة. (...) فلا يوجد شيء محدد لآسيا أو الشرق في متن أعمال ماركس، P 14-15. وبخصوص "القدرات الإنتاجية، التنظيم الاجتماعي، الهيمنة التاريخية، القوة العسكرية والتطور التكنولوجي، (...) عرف ماركس، مثل أي شخص آخر، عن تفوق أوروبا الحديثة على الشرق. لكن اتهامه (...) عن طريق تحويل هذه الحقيقة الظرفية وكأنه يراها واقع ضروري في كل الأوقات هو ببساطة أمر عبثي "، ص 15-16. وكذلك قام إعجاز أحمد (1932)، في نظرية: الطبقات، الأمم، الآداب (London: Verso, 1992،)، بإظهار كيف أن سعيد قام بالتقاط "اقتباسات غير متجانسة سياقيا "من اعمال ماركس، أعطى معنى محدود لما يمثله المقطع المقتطف، وذلك لتسكينه بسهولة داخل "أرشيف المستشرقين" (P 231، 223). وفي مواجهة وجود فكرة المركزية الأوروبية عند ماركس، انظر أيضا عرفان حبيب، "رؤية ماركس للهند"، في إقبال حسين (محرر)، كارل ماركس - حول الهند، New Delhi: Tulika, 2006صفحات,xix-liv. See also Kevin Anderson . ماركس في الهوامش . Chicago: University of Chicago ress, 2010,ص .238

التقدم بل إلى الخلف."[202] كل ما نجح فيه الإنجليز، هو تدمير الزراعة المحلية وزيادة عدد المجاعات وحالات الشدة.[203]

وهكذا، ليس من المقدر سلفًا، أن تعاني المشاعة الريفية الروسية من نفس مصير أشكال أوروبا الغربية في القرون السابقة. لقد كانت التحولات في تلك البلدان تتم من مجتمع قائم على الملكية الجماعية إلى مجتمع قائم على الملكية الفردية،[204] وتمت بدرجة، كبيرة أو قليلة، بطريقة متشابهة. وعن السؤال حول ما إذا كان ذلك حتميًا في روسيا، رد ماركس بصيغة جازمة "بالقطع لا".

إلى جانب رفضه القاطع لتطبيق نفس النموذج التاريخي بشكل سطحي بين سياقات متباينة، طرح ماركس أيضًا أن الخصائص المميزة للمشاعة الريفية الروسية تجعل دراستها عن قرب أمرًا مرغوبًا. ففي أوروبا الغربية "ساعدت مصادرة ملكية المنتجين الزراعيين (...) على نقل الملكيات الخاصة والموزعة للعمال والحرفيين إلى ملكية خاصة ومتركزة للرأسماليين". غير أنه يجب التشديد على أن الأمر في روسيا سيتعلق بإحلال الملكية الرأسمالية محل الملكية المشاعية،[205] بالإضافة إلى ذلك، انتهت الملكية الجماعية، وولد الإنتاج الرأسمالي في بلدان غرب أوروبا، مع فواصل زمنية طويلة جدًا بين كل حالة وأخرى، تضمنت سلسلة من الثورات والتطورات الاقتصادية.[206]

ومع مرونته المعتادة وبعده عن استخدام تخطيطات بيانية، أخذ ماركس في اعتباره احتمال حدوث تغييرات في المشاعة الريفية. ومن وجهة نظره، كانت المشاعة الريفية مفتوحة على نوعين من التطور: إما أن يظفر عنصر الملكية الخاصة بالتفوق على العنصر الجماعي، أو أن الثاني سيكون له الهيمنة في مواجهة الأول. (...) كل ذلك يتوقف علي السياق التاريخي الذي ستواجهه المشاعة.[207] وهذا يتم في وقت لا يستبعد حدوث تطور اشتراكي اثناءه.

النقطة الأولي التي شدد عليها ماركس هي التعايش بين المشاعة الريفية وأشكال اقتصادية أخري أكثر تقدمًا. ولاحظ ماركس أن روسيا كانت:

---

[202] ماركس، ' المسودة الثالثة' إلى نيكولاي دانيلسون، ص.365

[203] المرجع السابق ,.ص.368

[204] .367 ص ,.المرجع السابق

[205] ماركس، ' المسودة الثانية' إلى نيكولاي دانيلسون، ص.361

[206] .362 ص ,.المرجع السابق

[207] .352 ص الأعمال المجمعة، جزء 24، ،'مسودة أولى، كارل ماركس

متعاصرة مع ثقافة أرقي، ومرتبطة بسوق عالمي يهيمن عليه الإنتاج الرأسمالي. وباستحواذها على المزايا الإيجابية لهذا النمط من الإنتاج، فأنها في وضع يسمح لها بتطوير وتحويل الشكل القديم للمشاعة الريفية بدلًا من تدميره.[208]

"وهكذا، يستطيع الفلاحون دمج العناصر الإيجابية للنظام الرأسمالي في مشاعتهم دون المرور عبر انعطافاته وأزمات تطبيقه"،[209] موجهًا حديثه إلى الذين ينكرون إمكانية حدوث قفزات في التطور ويرون أن المرور بالرأسمالية هو أمر حتمي بالنسبة لروسيا أيضًا، يتساءل ساخرًا حول ما إذا كان على روسيا المرور بفترة حضانة طويلة داخل الصناعات الهندسية (...) لتتمكن من استعمال الآلات، والمحركات البخارية، والسكك الحديدية.. الخ. وبالمثل أيضًا، ألا يمكنها في طرفة عين إدخال كل آليات التبادل (بنوك، ومؤسسات وائتمان، الخ)، التي استغرق ابتكارها في أوروبا الغربية قرونًا؟ [210]

لا تستطيع روسيا أن تكرر بخنوع كل المراحل التاريخية التي مرت بها إنجلترا وبلدان غرب أوروبا الأخرى. ولهذا فمن المنطقي أيضًا، أن التحول الاشتراكي للمشاعة الريفية قد يحدث دون أن يكون المرور بالرأسمالية ضروريًا.

في النهاية، رأى ماركس أن من المهم تقييم اللحظة التاريخية التي كان ينظر فيها إلى هذه الفرضية. و"أفضل دليل" على أن التطور الاشتراكي للمشاعة الريفية قد يسير باتجاه الميل التاريخي للحقبة، هو في حد ذاته "الأزمة المهلكة المهلكة التي قاسى منها الإنتاج الرأسمالي في البلدان الأوروبية والأمريكية، حيث وصل إلى أعلي قمة له" (وهنا دفعته تمنياته السياسية إلى تكرار كلمة مهلكة أكثر من مرة). وانطلاقًا من أفكار استوحاها من قراءته للعالم الأنثروبولوجي لويس هنري مورجان Lewis Henry Morgan (1818–1881) توقع أن الأزمة الاقتصادية الجارية حينها، قد تخلق شروطًا افضل لتدمير الرأسمالية و"عودة المجتمع الحديث إلى شكل أعلي، من أكثر أنماط الإنتاج والتوزيع الجماعية قدمًا".[211]

---

[208] .362 ص ,.سبق ذكره ،'المسودة الثانية' ماركس
[209] .368 ص ,.سبق ذكره ،'المسودة الثالثة' ماركس
[210]ماركس، مسودة أولى'، سبق ذكره. ,ص.349
[211] .357 ص ,.المرجع السابق

ويوضح هذا أن ماركس لم يكن يفكر في "الأنماط البدائية للإنتاج التعاوني أوالجماعي (بسبب) ضعف الفرد المنعزل،" ولكن في ثمار "إضفاء الطابع الاجتماعي على وسائل الإنتاج".[212] ولاحظ أن المشاعة الريفية الروسية كانت "أحدث الأنماط القديمة" للملكية المشاعية، والتي "مرت في حد ذاتها عبر سلسة كاملة من التطورات."[213]

كانت تلك الدراسات والتحليلات الشيء المؤثر في خيارات ماركس، وليست النماذج التخطيطية المجردة. فلم تقم المشاعات الفلاحية الروسية على "علاقات الدم بين أعضائها"، بل ربما كانت "أول تجمع اجتماعي لرجال أحرار لا تربطهم معًا صلات الدم."[214]

انتقد ماركس "عزلة" المشاعات الزراعية القديمة، لأنها منغلقة على نفسها وليست لها أي اتصال مع العالم الخارجي، وكانت تتحدث من الناحية السياسية، بالشكل الاقتصادي الأكثر تماشيًا مع النظام القيصري الرجعي: "الافتقار إلى التواصل بين حياة المشاعة والأخريات، دائمًا ما يساعد هذا العالم المصغر ذو الطابع المحلي (...) على إعطاء الفرصة لهيمنة الاستبداد المركزي على المشاعات."[215]

وبالتأكيد، لم يغير ماركس حكمه النقدي المركب حول المشاعات الفلاحية في روسيا، وظلت أهمية التطور الفردي والإنتاج الاجتماعي دون مساس في تحليله. ولم يظهر في مسودات الرسالة التي أرسلها إلى زاسوليتش أي لمحة لهذا التغيير الدرامي في قناعاته السابقة، كما اكتشف بعض الباحثين.[216] العنصر الجديد هو الانفتاح النظري على طرق أخرى ممكنة للاشتراكية، لم يسبق النظر فيها من قبل، أو كان ينظر إليها باعتبارها غير قابلة للتحقيق.[217]

---

[212] .351 ص ,.المرجع السابق

[213] .362 ص ,.سبق ذكره ،'المسودة الثانية' ماركس،

[214] .366 ص ,.سبق ذكره ،'المسودة الثالثة' ماركس،

[215] .353 ص ,.سبق ذكره ،'مسودة أولى ماركس،

[216] انظر التفسيرات في (المحرر.)Shanin ، Late ماركس والطريق الروسي، سبق ذكره.، ص60 ، حيث زعموا أن مسودات ماركس أظهرت "اختلافا هاما" بالقياس إلى أفكاره عند نشر رأس المال في عام 1867. وكذلك يتحدث إنريك دوسيل عن "انقطاع" في "يوتوبيا ماركس" (1882-1863)، la liberación latinoamericana, México D.F.: Siglo XXI, 1990 وصفحات . 260 and 268-9. - اقترح مؤلفون آخرون قراءة "العالم الثالث" في أعمال ماركس المتأخرة، حيث لم يعد الموضوع الثوري عمال مصانع، بل الجماهير في الريف والمحيط.

[217] انظر العمل الرائع لماريان ساور Marian Sawer "الماركسية ونمط الإنتاج الأسيوي". The Hague: Martinus Nijhoff, 1977, ص:67 - "ما حدث ، في سبعينيات القرن التاسع عشر على وجه التحديد ، لم يكن أن ماركس قد غير رأيه في طبيعة المجتمعات القروية ، أو قرر بدلا من ذلك أنها تصلح أن تكون أساسا للاشتراكية كما كانت ؛ ، ما حدث هو أنه أخذ بعين الاعتبار إمكانية أن يتم تثوير تلك المجتمعات من خلال الاشتراكية وليس من خلال الرأسمالية. (...) يبدو أنه كان يعتنق بجدية الأمل في أنه مع تكثيف التواصل الاجتماعي وتحديث أساليب الإنتاج، يمكن دمج النظام القروي في مجتمع اشتراكي. في عام 1882، بدا ذلك لماركس فعلا بديلا حقيقيا للتفكك الكامل للمشاعة القروية تحت تأثير الرأسمالية".

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في ظل إصلاحات القيصر الكسندر الثاني (1818–1881) تغيرت بالفعل أوضاع المشاعة الريفية، وأظهرت عدد من الجوانب المتناقضة.[218]

ومع التحرر من روابط القرابة الطبيعية القوية، المقيدة في الوقت نفسه، والملكية المشتركة للأرض، والعلاقات الاجتماعية المترتبة عليها مع ما تمنحه من قاعدة صلبة في الوقت ذاته، مثل المنزل والفناء، أُعطى المجال الحصري للأسرة الفردية، وزراعة قطعة من الأرض، والحيازة الخاصة لثمارها، مجالًا أكبر من الفردية غير المتوافقة مع النظام العضوي للمجتمعات الأكثر بدائية.[219]

ربما تحولت تلك "الثنائية" إلى "جرثومة للتحلل"، وأظهرت أن "المشاعة حملت عناصر فساد من داخلها".[220] ولكن كان هناك أيضًا "تأثيرًا مهلكًا" من خارجها مهددًا لبقاءها، مثل قيام الدولة بوضع قوانين لدعم "بعض فروع النظام الرأسمالي الغربي". ومع عدم "تطوير القدرات الإنتاجية للمشاعة بأي صورة (...) ساعد هذا، على استشراء طفيليات رأسمالية جديدة تمتص دماء "الكوميونة الريفية" التي تعاني أصلًا من فقر الدم."[221]

لذلك استنتج ماركس أن البديل الذي تصوره الشعبويون الروس قد يكون أمامه فرصة للتحقق:

من الوجهة النظرية. يمكن أن تحافظ "المشاعة الريفية" الروسية حينها على نفسها من خلال تطوير أسسها، والملكية المشتركة للأرض، والقضاء على مبدأ الملكية الخاصة الذي تطبقه أيضًا، ويمكن أن تصير نقطة انطلاق مباشرة إلى النظام الاقتصادي الذي ينحو إليه المجتمع الحديث، ويمكن أن تتحول إلى حياة جديدة دون حاجة إلى أن تبدأها بالانتحار. ويمكن أيضًا أن تحصل على الثمار التي أثرى بها النظام الرأسمالي الجنس البشري، دون المرور بالنظام نفسه.[222]

---

[218] بعد تحرر الأقنان في 1861، كان في إمكان الفلاحين المطالبة بالأرض، ولكن فقط عن طريق دفع مقابل في شكل ضريبة.

[219] .367 ص إلى نيكولاي دانيلسون،'المسودة الثالثة' ماركس،

[220] .المرجع السابق

[221] .355 ص إلى نيكولاي دانيلسون،'مسودة أولى ماركس،

[222] المرجع السابق ,.ص.354

ومع ذلك، فلو كان لهذا أن يحدث، لابد للفرضية أن "تهبط من النظرية الصرفة إلى الواقع الروسي."[223] ومن أجل تلك الغاية، حاول ماركس تحديد "إمكانية المزيد من التطور" للمشاعة الريفية.[224] المشاعة الريفية الروسية في تلك اللحظة الدقيقة:

تشغل (المشاعةالريفية) موقعًا فريدًا، لم يسبق له مثيل في التاريخ. الوحيدة في أوروبا، التي لا تزال تمثل الشكل العضوي السائد للحياة الريفية عبر إمبراطورية هائلة. تمدها الملكية المشتركة للأرض بالأسس الطبيعية للحيازة الجماعية. ويوفر لها وضعها التاريخي وتزامنها مع الإنتاج الرأسمالي بالشروط المادية المطلوبة للعمل التعاوني المنظم واسع النطاق، بصورة متطورة تمامًا. ومن ثم يمكنها إدماج المكتسبات الإيجابية التي استحدثها النظام الرأسمالي، (...) ويمكن أن تستبدل تدريجيًا الزراعة المجزئة بزراعة مجمعة بمساعدة الآلات. ويمكن أن تصير نقطة انطلاق مباشرة إلى النظام الاقتصادي الذي ينحو إليه المجتمع الحديث، ويمكن أن تتحول إلى حياة جديدة دون حاجة إلى أن تبدأها بالانتحار.[225]

وكان هذا البديل ممكنًا، وكان متلائمًا بالفعل مع سياق الاقتصاد الاجتماعي الروسي، أكثر من "الزراعة ذات الطابع الرأسمالي وفقًا للنموذج الإنجليزي".[226] ولكن يمكن الإبقاء عليها فقط، إذا حل "العمل الجماعي محل العمل المجزئ – مصدر الحيازة الفردية". وحتى يحدث ذلك يجب توفر أمرين: "الحاجة الاقتصادية لمثل هذا التغيير، والشروط المادية لتحقيقه"[227]

ويمكن ان تتوفر "كافة الشروط الضرورية اللازمة للإنتاج الجماعي" للمشاعة الزراعية الروسية بسبب تعاصرها مع الرأسمالية في أوروبا.[228] بينما ستعمل معرفة الفلاحين بخبرة أرتل artel[229] على تيسير التحول الفعلي إلى العمل التعاوني. [230]

---

[223].المرجع السابق

[224] .368 ص ,.سبق ذكره ،'المسودة الثالثة' ماركس،

[225] .المرجع السابق

[226] .358 ص ,.سبق ذكره ،'مسودة أولى ماركس،

[227] .356 ص ,.المرجع السابق

[228].المرجع السابق

[229]كان شكل أرتل artel للرابطة التعاونية، يعود في نشأته إلى التتار Tatar، ويقوم على روابط الدم، وظهر كنوع من المسؤولية الجماعية لأعضاء الرابطة تجاه الدولة والأطراف الأخرى. انظر - PierPaolo Poggio, L'Obščina. Comune contadina e uzione in Russia. Milano: Jaca Book, 1978, جزء ri119.ص

[230] .356 ص ,.سبق ذكره ،'مسودة أولى ماركس،

وبخصوص انفصال كل من المشاعات عن الأخرى، الشيء المتلائم مع الطابع الاستبدادي للنظام السياسي الروسي، فهذا يمكن "تلافيه بسهولة"؛"[231] إذ سيكون من الضروري استبدال "الفولوست"[232] volost – الهيئة الحاكمة – بجمعية عمومية للفلاحين منتخبة من أعضاء المشاعة أنفسهم، تعمل كجهاز إداري واقتصادي لصالحهم.[233]

ومن ثم، مثلت الإرادة السياسية ومجموعة من الظروف التاريخية الملائمة، شروطًا لازمة لبقاء المشاعة الريفية وتحولها الجذري. وبعبارة أخرى، بصرف النظر عن كافة الإضطرابات التي هددت الرأسمالية بإثارتها، يظل تحول المشاعية العتيقة إلى الاشتراكية ممكنًا:

لم يعد الأمر مسألة حل مشكلة، أنه ببساطة مسألة هزيمة عدو ما. فلكي ننقذ المشاعة الروسية، هناك حاجة إلى ثورة روسية، (...) ولو أتت الثورة في لحظة ملائمة، ولو ركزت كل قوتها حتى تتيح للمشاعة الريفية المجال الكامل، فسرعان ما ستتطور المشاعة الريفية بوصفها عاملًا مساعدًا للإحياء في المجتمع الروسي، وعنصرًا للتفوق على البلدان المستعبدة بالنظام الرأسمالي.[234]

عاد ماركس إلى تناول أفكار مشابهة في 1882. ففي يناير، في مقدمة الطبعة الروسية الجديدة لبيان الحزب الشيوعي، الذي ألفه بالمشاركة مع إنجلز، ارتبط مصير المشاعة الروسية مع نضالات البروليتاريا في أوروبا الغربية:

في روسيا، نجد مواجهة مباشرة بين احتيال رأسمالي يتطور بسرعة وملكية برجوازية للأراضي بدأت تطورها للتو، بينما أكثر من نصف الأراضي الروسية ملكية مشتركة للفلاحين. والسؤال الآن هو: هل تتمكن المشاعة القروية الروسية، الشكل الروسي من للملكية البدائية المشاعية للأرض من العبور المباشر إلى شكل أعلى من الملكية المشتركة الشيوعية، حتى ولو تم إضعافها بدرجة كبيرة؟ أم إنها على العكس لابد أن تمر أولًا بعملية التفكك نفسها، كما ينص التطور التاريخي للغرب؟ الإجابة الوحيدة

---

[231] 353. ص ,.المرجع السابق

[232] التقسيم الإداري التقليدي في روسيا وأجزاء من أوروبا الشرقية.

[233] 353. ص ,.سبق ذكره ،'مسودة أولى ماركس،

[234] .60-359 صفحات.المرجع السابق

الممكنة الآن هي: لو صارت الثورة الروسية إشارة بداية لثورة بروليتارية في الغرب، بحيث تكمل كل منهما الأخرى، ربما تكون الملكية الروسية المشتركة للأرض بمثابة نقطة بداية لتطور شيوعي.[235]

وفي 8 مارس 1881، أرسل رده على زاسوليتش أخيرًا، بعد أن ظل تحت الصياغه وقتًا طويلًا جدًا. ورغم كتابته عديد من المخطوطات الطويلة التي تتضمن مناقشات دقيقة، فقد قرر في النهاية إرسال نسخة نهائية قصيرة تمامًا، وفيها اعتذر عن عدم إرسال "التقرير الموجز" الذي طلبته للنشر.[236] وأضاف إنه قام بالفعل بمداخلة حول الموضوع مع لجنة سانت بطرسبورغ لمنظمة "إرادة الشعب" الشعبوية[237] – لكن ذلك لم يحدث فعليًا.

ومع ذلك، كانت "السطور القليلة" لماركس تهدف إلى "إزالة أي شكوك" قد تكون لدى زاسوليتش "بالنسبة لإساءة الفهم فيما يتعلق بما يسمى نظريتي."[238] وأحالها إلى مقتطف من الطبعة الفرنسية لرأس المال حول "نزع ملكية المنتج الزراعي"، نفس المقتطف الذي أدرجه في مسودة رسالته إلى أوتشيستينى زابسكى Otechestennye Zapiski – وشدد علي أن تحليله "كان مقصورًا بوضوح علي بلدان أوروبا الغربية"، التي شهدت "انتقالًا من أحد أشكال الملكية الخاصة إلى شكل أخر لها"[239] بينما في حالة روسيا، فعلى العكس "سيتعين على الملكية الجماعية أن تتحول إلى ملكية خاصة"[240] ومن ثم استنتج:

لم يورد التحليل المقدم في رأس المال أسانيد ضد أو مع قدرة المشاعة الفلاحية على البقاء، لكن الدراسة الخاصة التي أجريتها عنها، والمصادر الأصلية التي استقيت منها، أقنعوني أن تلك المشاعة تعد نقطة

---

[235]كارل ماركس and فريدريك إنجلز، 'Preface to the Second Russian Edition of the Manifesto of the Communist Party'، الأعمال المجمعة، جزء 24، ص 426.

[236]ماركس في رسالة إلى فيرا زاسوليتش، الأعمال المجمعة، جزء 24، ص.370 . دافيد ريازانوف، الذي اكتشف المسودات الأولية للرسالة أولا وقام بنشرها، يؤكد أن ماركس لم يرد على زاسوليتش كما كان يرغب، وذلك بسبب هبوط قدرته على العمل، انظر "ديفيد ريازانوفDavid Ryazanov : اكتشاف المسودات" Shanin(المحرر.)، *Late* ماركس والطريق الروسي، ص..129 هذا التصور مشترك بين Maximilien Rubel "ماركس. نقد الماركسية"، Paris: Payot, 2000, ص.104 ، والأكثر منطقية هي حجة Poggio في L'Obščinaسبق ذكره. ,ص157 – أن ماركس تردد في إعلان موقف حاسم بخصوص قضية مثل هذه بما من لها انعكاسات سياسية ونظرية شديدة الحساسية."

[237]يشير ماركس هنا إلى منظمة سرية انشقت عن جماعة الأرض والحرية، 'terrorist' for andted 1879 in (ZiV) struggle.

[238]ماركس،' رسالة إلى فيرا زاسوليتش،' ص.370

[239] .المرجع السابق

[240] .370-1 . صفحات.المرجع السابق

ارتكاز للتجديد الاجتماعي في روسيا، ولكن لأنها يمكن أن تقوم بتلك الوظيفة، من الضروري إزالة التأثيرات الضارة التي تحيط بها من كل الجوانب، وحينها تؤمن لها شروط ملائمة للتطور التلقائي.[241]

الرؤية الجدلية لماركس جعلته يمتنع عن زعم أن نظام اقتصادي جديد، قائم علي التعاون بين المنتجين، يتحقق فقط عبر عملية تعاقب لمراحل محددة ثابتة. وفي نفس الوقت استنكر فكرة أن تطور نمط الإنتاج الرأسمالي كان بمثابة حتمية تاريخية في أي جزء من العالم.

الاعتبارات التي شدد ماركس في طرحها حول مستقبل المشاعة الريفية الروسية، تختلف تمامًا عن معادلة الاشتراكية مع قوى الإنتاج، المفهوم المحمل بالإيحاءات القومية والتعاطف مع الاستعمار، الذي أكد نفسه سواء داخل الأممية الثانية أو أحزاب الاشتراكية الديموقراطية وفي الحركة الشيوعية الدولية، مع نداءها بما يفترض أنه "منهج علمي". [242]

وانتهز ماركس الفرصة لعرض وجهة نظره حول عدة اتجاهات ثورية متباينة في روسيا في ذلك الوقت. وبخصوص الشعوبيين، قدر قيمة قرب نشاطهم السياسي من أرض الواقع، وحقيقة أنهم لم يلجئوا في نشر أفكارهم إلى التباهي بمبالغات ثورية لامعنى لها، ولا إلى تعميمات مضللة.

في رسالة بعث بها ماركس إلى سورج Sorge نهاية 1880 تقريبًا، يظهر في حكم ماركس على بعض المنظمات الاشتراكية، أنه لم يتأثر بأي درجة بالصلات الشخصية مع أعضاءها، ولم يتأثر أكثر بإعلانها الولاء لنظرياته. وقد وصف القوى النشطة في روسيا على النحو التالي: من جهة، نجد النقاد (أساتذة جامعة شباب غالبا، بعضهم أصدقاء شخصيون لي، وبعض الأدباء أيضًا) وفي الجهة الأخرى، هناك اللجنة المركزية الإرهابية، وأعني منظمة إرادة الشعب. وأثارت الطبيعة العملية لبرنامج المنظمة، التي حبذها ماركس، حنق المجموعة سالفة الذكر، وهم مناضلي منظمة "إعادة التوزيع السوداء" –وبينهم فيرا زاسوليتش وجورج بليخانوف (1856 – 1918 Georgii Plekhanov)، وهو واحد من أوائل

---

[241] .371 ص ,.المرجع السابق

[242]لم ينجو إنجلز أيضا من خطأ الاستقبال السلبي لحركة التاريخ. فقد تبني في عدد من كتابته وأحاديثه ورسائله، موقفا مشابها لذلك الذي عبر عنه في رسالة كتبها إلى نيكولاي دانيلسون في 24 فبراير 1893: "عملية استبدال حوالي 500،000 من Pomeshchiki (ملاك الأرض -التقليدين. م-) وحوالي 8 مليون فلاح بطبقة جديدة من ملاك الأرض البرجوازيين يستحيل تحقيقها إلا تحت وطأة اضطرابات وحشية رهيبة. إن حركة التاريخ هي الأكثر قسوة بين جميع إلهة الكون، لكنها تسوق عربتها المنتصرة فوق أكوام الجثث، ليس فقط في الحرب، ولكن في مجري التطور الاقتصادي "السلمي" أيضا. ونحن نساء ورجال للأسف على درجة من الغباء تجعلنا لا نستجمع شجاعتنا لتحقيق تقدم حقيقي، إلا إذا حثتنا على ذلك معاناة تفوق قدرتنا على الاحتمال" الأعمال المجمعة، جزء 50, ص .112

"الماركسيين" الروس– الذين وصفهم ماركس بالفوضويين.[243] وعلق على هؤلاء الذين خرجوا من روسيا بإرادتهم (في أغلب الأحوال):

وعلى عكس الإرهابيين، الذين يغامرون بروحهم وسلامتهم الجسدية، شكل (هؤلاء) ما سمى بحزب دعائي. (لكي يقوموا بنشر الدعاية في روسيا، نزحوا إلى جنيف، يا لها من مقايضة) ويتعارض سلوك هؤلاء النبلاء جميعًا مع الفعل السياسي الثوري. إن روسيا على وشك القفز رأسًا على عقب إلى الألفية الشيوعية الفوضوية الملحدة! بينما يمهدون هم الطريق للقفزة باستخدام المذهب العقائدي الممل. [244]

في نهاية أبريل 1881، بعث برسالة إلى ابنته جيني Jenny انتقد فيها مجددًا موقف المثقفين الروس اللاجئين في سويسرا: ليسوا "سوى عقائديين، اشتراكيون فوضويون مشوشون، ودرجة تأثيرهم في "ميدان القتال" الروسي تساوي الصفر".[245] وبالنسبة لمحاكمات المتهمين بجرائم اغتيال في سان بطرسبورغ، فقد أثنى على موقفهم السياسي وأساليبهم الدعائية:

أنهم عملة نادرة إلى حد بعيد، يتسمون ببطولة بسيطة بحكم الواقع دون أوضاع ميلودرامية. الصراخ والفعل ضدان لا يمكن التوفيق بينهما. أصدرت اللجنة التنفيذية لبطرسبورغ،[246] التي أخذت ذلك الفعل القوي على عاتقها، بيانات عبرت عن "اعتدال" رائع. وفي الواقع، هم بعيدون عن هذا الأسلوب الأخرق، الذي يدافع به اغلب المتشدقين الصبيانيين الأخرين عن قتل المستبد باعتباره "نظرية"، ودواء شافي لكل داء. (...) ومن جهة أخري، يجدون صعوبة في تعليم أوروبا أن طريقة عملهم روسية بشكل خاص، ونوع من الأعمال لا يمكن تفاديه تاريخيًا، ولا تخضع نفسها للمواعظ الأخلاقية –مع أو ضد– بأكثر مما يفعل زلزال في الجزيرة اليونانية خيوس[247] Chios.

هكذا يتضح أن وجهة نظر ماركس حول إمكانية قيام الاشتراكية في روسيا لم تكن قائمة فقط على الوضع الاقتصادي هناك. وفي 1881، ساعده اتصاله بالشعبوية الروسية –مثل اتصاله قبل عقد برفاق

---

[243] 45. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 5 November 1880, كارل ماركس إلى فريدريك سورج

[244] 45-6. . صفحات.المرجع السابق

[245] جيني لونجيت إلى كارل ماركس 11 April 1881, سبق ذكره. ص. 83.

[246] بخصوص تعاطف ماركس مع الشعبوية الروسية، انظر شهادة نيكولاي موروزوف Nikolai Morozov، (1854 - 1946) فقد أشار إلى مناقشة دارت في ديسمبر 1880 حيث قال ماركس أنه مهتم جدا بجماعة إرادة الشعب People's Willوأن نضالها ضد الأوتوقراطية بدا له (...) نوع من الحكاية الخيالية، قصة من رواية فانتزية ' Nikolai Morozov, in Institute of ماركس Reminiscences of،(المحرر.)ism-Leninism and Engels, ماركس سبق ذكره. ص. 302.

[247] كارل ماركس إلى جيني لونجيت 11 April 1881, الأعمال المجمعة، جزء 46، ص .83

من كميونة باريس– في تطوير قناعة جديدة: أنه الآن أكثر مرونة في إعطاء اعتبار لظهور الأحداث الثورية، وللقوى الذاتية التي شكلتها، بالإضافة إلى تعاقب أنماط الإنتاج في مجرى التاريخ. الأمر الذي ساعد في اقترابه من أممية حقيقية على النطاق العالمي، وليس الأوروبي فقط.[248]

مفهوم المسارات المتعددة الذي طوره ماركس، في سنوات اكتمال نضجه الفكري، قاده إلى النظر بدقة أكبر إلى الخصوصيات التاريخية، والتطور السياسي والاقتصادي المتفاوت في البلدان المتباينة والسياقات الاجتماعية المختلفة. وبلا شك، زادت هذه المقاربة الصعوبات التي واجهها في المسار، الوعر أصلًا، لاستكمال الجزئيين الثاني والثالث من رأس المال.

إلا أن ماركس لم يغير منظور المجتمع الشيوعي الذي وضع خطوطه الرئيسية في الجرندروسه، دون أن يسقط إطلاقًا في يوتوبيا مجردة.[249] بينما كان مدفوعًا بالشك،[250] والعداء للنزعة التخطيطية السابقة، ودوجمائية جديدة تنشأ تحت اسمه، اعتقد أن الثورة يمكن اندلاعها في ظروف وبأشكال لم تؤخذ في الاعتبار من قبل. كان المستقبل في يد الطبقة العاملة، واعتمد على قدراتها التنظيمية، ونضالاتها لتحقيق انتفاضات اجتماعية عميقة.

---

[248] في : *Le repliche della storia. Karl Marx tra la Rivoluzione francese e la critica della politica*, Torino - Bollati Boringhieri, 1989, - يقول برونو بونجوفاني Bruno Bongiovanni لا ينبغي لنا نبخس قيمة الأفق السياسي الدولي في مسار ماركس الفكري (...) وحول روسيا. تسمح "أعمال ماركس في مجملها "بالاستدلال على رؤيته للتسلسل التالي للأحداث: "حرب ضد روسيا، هزيمة عسكرية لروسيا، ثورة روسية (غير اشتراكية ولكن يعقوبية-Jacobin)، غياب (مؤقت أو دائم؟) للحرس الرجعي لأوروبا، تحول اشتراكي في أوروبا (...)، وعودة الثورة في روسيا، عندئذ- ولكن عندئذ فقط – وجود إمكانية لاستخدام المشاعة القروية في الانتقال إلى الاشتراكية". صفحات 2-201 .ومع ذلك ، فإن ما يعتقد بونجيوفاني أنه "آلية تطور الثورة" يصبح منظور ضعيف من وجهة نظر أفكار ماركس في سنواته الأخيرة. الثورة ليست ملزمة بقوة دفع الأحداث بأن تبدأ أولا في أوروبا ثم تنتقل إلى روسيا في "الجولة الثانية "فحسب، المرجع ذاته، ص 212.

[249] رغم أن بونجيوفاني يشدد بقوة على كلمة "حتمية" لكنه يؤكد عن حق "أنه لا يمكن في التحليل الأخير أن يتحول المجتمع القروي المشترك بمعجزة عجائبية إلى الاشتراكية دون حدوث حتمي لثورة تحرر المجتمع برمته"، المرجع السابق ,.ص .189

[250] ظل ماركس، على مدار حياته كلها، مخلصا لشعاره المفضل، كل شيء خاضع للشك، de omnibus dubitandum انظر، - كارل ماركس،' اعتراف ,1 April 1865 , 'الأعمال المجمعة، جزء ,42 .ص .567

الفصل الثالث

متاعب السيد "نيك" العجوز

1. الانتشار المبكر لرأس المال في أوروبا

في عام 1881، لم يكن ماركس قد أصبح بعد المرجع النظري الرئيسي للحركة العمالية الدولية، كما صار لاحقًا في القرن العشرين. وعلى مدار أربعينيات القرن التاسع عشر، كان عدد القادة السياسيين والمثقفين الذين تأثروا بأعماله محدودًا للغاية. ولم يزد عدد مناضلي ما أطلق عليه البوليس الدولي وخصومه السياسيون اسم "حزب ماركس"[251]، على عدد قليل في الواقع. ولم يتحسن الوضع خلال العقد التالي، فبعد هزيمة ثورات عام 1848، لم يكن ممكنًا اعتبار سوى قليل من اللاجئين الفارين "ماركسيين"، ومعظمهم لجأ في بريطانيا.[252]

لكن تغير المشهد مع تطور الرابطة الأممية للعمال، والصدى الواسع الذي أحدثته الكوميونة الباريسية في ارجاء أوروبا، قد ساعدا على ذيوع شهرة ماركس، وضمنا انتشارًا معقولًا لمؤلفاته. وبدأ تداول رأس المال في ألمانيا (حيث ظهرت طبعة المانية جديدة 1873) وفي روسيا (ترجم إلى الروسية في 1872) وفرنسا. ورغم ذلك، فحتى هذه اللحظة، كان على أفكار ماركس منافسة الاشتراكيين الأخرين في عصره – غالبًا من موقع أقل بالنسبة لعدد الأنصار.

في ألمانيا، انعقد مؤتمر جوتا Gotha المقرر لاندماج حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي (SDAP)، المرتبط بماركس، مع الرابطة العامة للعمال الألمان (ADAV) التي أسسها فيردناند لاسال Ferdinand Lassalle وتبنت في 1875 برنامجًا تبدو بصمات لاسال واضحة عليه. وفي فرنسا وبلجيكا، كانت نظريات بيير جوزيف برودن Pierre–Joseph Proudhon الأكثر تأثيرًا في أوساط العمال، ولم تكن

---

[251] استخدم هذا التعبير لأول مرة في عام 1846للتمييز انصار ماركس والشيوعي الألماني ويلهلم ويتلنغ Wilhelm Weitling (1808-1871) واستخدم فيما بعد في محاكمات كولونيا Cologne trials عام 1852 ضد الشيوعيين. سبق ذكره، ماكسيميليان روبيل Maximilien Rubel ، ص2 هامش26 .

[252] ظهر هذا الوصف أول مرة عام 1854. انظر جورج هاوبت Georges HauPt، أوجه الاشتراكية الدولية، .1871-1914 Cambridge: Cambridge University Press, 1986, ص2.

المجموعات المتأثرة بأفكار ماركس ذات ثقل كبير، سواء عدديًا أو في المبادرات السياسية، مقارنة بهؤلاء الذين يصنفون أنفسهم في جانب أوجست بلانكي Auguste Blanqui. وفي روسيا، ظهرت التعقيدات الواضحة في قراءة وتفسير نقد ماركس لنمط الإنتاج الرأسمالي في وضع اجتماعي وسياسي متخلف، بعيد تمامًا عن النمط الغربي الأوربي في التطور الرأسمالي. وفي بريطانيا من ناحية أخرى، ظل ماركس غير معروف تقريبًا.[253] وكانت كتاباته تلاقي صعوبة في أن تجد لها جمهورًا في إيطاليا واسبانيا وسويسرا، حيث كان النفوذ السياسي والأدبي لميخائيل باكونين أعظم مما كان عليه في سبعينات القرن التاسع عشر. وعلى الجانب الأخير من الأطلنطي، لم يسمع وقتها عن ماركس سوى قليلين في الواقع.

ثمة سبب أخر لهذا وهو أن أعماله لم تكن اكتملت، بداية من كتاب رأس المال نفسه. وفي 1882، سأله كارل كاوتسكى Karl Kautsky مباشرة عما إذا كان الوقت قد حان لنشر أعماله المجمعة، فأجابه في تهكم "ينبغي أن تكون قد كُتبت أولًا". [254]

هكذا لم يعش ماركس ليري تداول العالم بأكمله لأفكاره، غير أن السنوات الأخيرة من حياته شهدت زيادة ملحوظة في الاهتمام بأفكاره النظرية في عدة أنحاء من أوروبا، وخاصة أعظم إبدعاته. وأثار ذلك رود أفعال متباينة. ففي نهايات 1881، كتب إنجلز إلى إدوارد برونشتاين عن مشاعر الغيرة من ماركس التي بدأت تطل برأسها. على سبيل المثل، عرفت الحياة الداخلية للاتحاد الفرنسي لحزب العمال الاشتراكي (FPTSF) صراعًا بين تيارين رئيسيين: أنصار مذهب الإمكانية possibilists بقيادة الفوضوي السابق بول بروس Paul Brousse (1844–1912)، وتيار أقرب إلى أفكار ماركس بقيادة جول جوسيد Jules Guesde (1845–1922). وفي الفترة السابقة على الانشقاق الذي تعذر منعه –الذي أسفر عن الانقسام إلى حزبين: الاتحاد الفرنسي للعمال الاشتراكيين الإصلاحيين (FTSF) وأول حزب ماركسي فرنسي، حزب العمال الفرنسي (POF)– اشتبكت الجماعات المتنافسة في معارك أيدولوجية كثيفة. وجذبت الصراعات ماركس عمليًا إلى التدخل فيها، وفي يونيو 1880 بالاشتراك مع جوسيد وبول

[253] ويلاحظ هنري هيندمان فيما بعد أنه: "في 1880، كان من الصعب زعم أن ماركس غير معروف فعلا للجمهور الإنجليزي، لكنه كان معروفا كمدافع خطير، وربما يائس، عن الثورة، وكانت منظمته الأممية كانت أحد أسباب قيام كميونة باريس المريعة، فقد سببت الذعر لجميع السادة المهذبين المحترمين، هنري هيندمان، سيرة حياة مغامر. New York: Macmillan, 1911صفحات .50-249

[254] Karl Kautsky, in Benedict Kautsky (المحرر.) ,فريدريك إنجلز ' :Briefwechsel mit Karl Kautsky. Wien Danubia Verlag, 1955, ص32.

لافارج Paul Lafargue، كتب البرنامج الانتخابي لحزب العمال الفرنسي، المنصة السياسية لليسار الفرنسي.

وفي ذلك المناخ، استخدم بروسيه Brousse و بنوا مالون Benoît Malon (الكاتب الاشتراكي الكوميوني 1841–1893)، كل الأساليب الممكنة لتشويه نظريات ماركس. وعلق إنجلز على ما اثاراه من جدل عنيف، منتقدًا مالون تحديدًا، فقال عنه أنه عانى في العثور على رواد أخرين (لاسال Lassalle وشافيل Schäffle وحتى دي بابي De Paepe) لنسب اكتشافات ماركس إليهم. ولقد ذهب مالون إلى ما هو ابعد، فهاجم بحدة محرري النشرة الأسبوعية "البروليتاري" متهمًا جوسيد ولافارج بأنهم مجرد "أبواق لماركس" و"يريدون بيع العمال الفرنسيين إلى بسمارك".[255] وفسر إنجلز تلك الروح العدائية من مالون وبروسيه كعلامة على التعصب القومي:

مصيبة بالنسبة لأغلب الاشتراكيين الفرنسيين، أن يكون على الأمة التي قدمت للعالم أفضل الأفكار الفرنسية (...) –وعلى باريس، مركز التنوير– أن يستوردا الآن فجأة، أفكارًا اشتراكية جاهزة – صناعة ماركس الألماني. ولكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، أن عبقرية ماركس، ودقته العلمية القاطعة وسعة معرفته الفائقة يضعانه في مكانة تسمو علينا جميعًا، وأي شخص يجازف بنقد اكتشافاته من المرجح أنه سيحرق أصابعه فحسب. هذا النقد يجب تركه لعصور أكثر تقدمًا.[256]

بينما كان إنجلز عاجزًا عن فهم "لأي مدى يمكن لشخص الشعور بالغيرة من شخص عبقري، استطرد قائلًا:

أن أكثر ما يضايق هؤلاء النقاد محدودي الذهن، ممن لا قيمة لهم، الذين لايزالون يظنون لأنفسهم أهمية فائقة، هو أن يروا ماركس، الذي تستحق إنجازاته النظرية والعملية كل شكر وتقدير، حاز مكانة يتمتع فيها بالثقة الكاملة لأفضل الأشخاص في كل الحركات العمالية في مختلف البلدان. وفي اللحظات الحرجة، يكون الأجدر بالتماس النصح منه، حيث يلقون في نصائحه بوجه عام التوجيهات الأفضل. فمن غيره بإمكانه احتلال تلك المكانة في ألمانيا، وفرنسا، وروسيا، ولن نتحدث عن البلدان الأصغر؟ الواقع

[255] .146 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 25 October 1881, فريدريك إنجلز إلى إدوارد برنشتاين.
[256] .المرجع السابق.

أن ماركس لا يقوم بفرض وجهات نظره على هؤلاء الناس، ولننحي رغبته جانبًا، ولكنهم يسعون إليه فعليًا بملء إرادتهم. ومما لا شك فيه أن هذا التأثير المتميز لماركس يظل بالغ الأهمية بالنسبة للحركة.[257]

وعلى نقيض ما استمر عليه بروس وأنصاره، لم يكن ماركس يكن لهم أى عداء خاص. وأوضح إنجلز أن "موقف ماركس (...) تجاه الفرنسيين لم يكن يختلف عن موقفه تجاه باقي الحركات في البلدان الأخرى التي كانت على اتصال مستمر به (...) لأبعد درجة تفرضها الأهمية، وتتيحها الفرص." وفي الختام شدد إنجلز على أن "أي محاولة لفرض تأثير أو نفوذ على الناس ضد إرادتهم (سوف) تؤدي فحسب إلى خسارتنا وتحطيم الثقة السابقة التي اكتسبت من العالم عبر ممارسة تاريخية."[258]

وبعيدًا عن جوسيد ولافارج، تواصل عدد من المناضلين الفرنسين الأخرين مع ماركس. وفي بداية 1881، أخبر ماركس صهره تشالرز لونجوست Charles Longuet (1839–1903) باتصال تلقاه من إدوارد فورتين Édouard Fortin (1854–1947)، وهو مناضل اشتراكي وصحفي:

كتب لي عدة رسائل بدأها بعبارة "معلمي العزيز". وكان طلبه متواضعًا؛ إذ اقترح أن يُعد تلخيصًا شهريًا أثناء دراسته لرأس المال، سيسره أن يرسله لي حتى أراجع ما يكتبه كل شهر، وأن أوضح النقاط التي ربما لم يفهمها بطريقة صحيحة. وبهذا الأسلوب الهادئ، عندما يصل لي أخر جزء من تلخيصاته وأرسله له بعد المراجعة، سيكون لديه مخطوطة جاهزة للنشر، لتغمر فرنسا بفيض من النور، وفقًا لقوله.[259]

وبسبب انشغاله، حيث توجبت عليه أمورًا أكثر أهمية، رد على فورتين معتذرًا بأنه لا يضمن تمكنه من فعل ذلك.[260] إلا أن شيئًا جيدًا حدث نتيجة لهذا كله، فقد قام فورتين لاحقًا بترجمة كتاب ماركس "الثامن عشر من برومير – لويس بونابرت" إلى الفرنسية، ونشره هناك عام 1891.

وظهر موجز شعبي لرأس المال أيضًا باللغة الهولندية في1881.[261] وكان الثالث بعد موجز جون موست Johann Most (1846–1906) عام 1873[262]، وكارلو كافييرو Carlo Cafiero (1846–

---

[257] .149 ص ،.المرجع السابق.
[258] .50-149 . صفحات.المرجع السابق.
[259] .55 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 4 January 1881, ,كارل ماركس إلى تشالرز لونجيت.
[260].المرجع السابق
[261].1881 .Den Haag: s.e ,.رأس المال والعمل سبق ذكره. Ferdinand Nieuwenhuis
[262]رأس المال والعمل. مقطع مشهور من "رأس المال" لكارل ماركس، Chemnitz 1873، الأعمال الكاملة 2، مجلد.II/8 صفحات- 735 -800.

1892) عام 1873[263]. وذيل مؤلف الموجز الهولندي، فرديناند نيوفينهويس Ferdinand Nieuwenhuis الكتاب بالكلمات الأتية: يهدى المؤلف هذا العمل إلى كارل ماركس، المفكر الثاقب والمحارب النبيل من أجل حقوق العمال، تعبيرًا عن تقديره لتفانيه البالغ.[264] بتلك الكلمات عبر المؤلف عن تقديره لعمل ماركس الذي بدأ انتشاره في عدد من البلدان الأوربية.

وفي فبراير 1883، بينما كان نيوفينهويس يتطلع إلى طبعة ثالثة ستصدر لاحقًا، أخبره ماركس أن ما انجزه كان عملًا جيدًا، وأنه يود تقديم بعض المقترحات من جانبه: "التعديلات التي أراها ضرورية متعلقة بالتفاصيل فقط، فالشيء الرئيسي، روح العمل، متوفرًا بالفعل."[265] وفي نفس الرسالة، أشار إلى سيرة شخصية له، كتبها الصحفي الليبرالي الهولندي ارنولدوس كيرديك Arnoldus Kerdijk (1846–1905)، وصدرت عام 1879 في سلسلة معنونه "أشخاص مهمون في عصرنا". وكان الناشر نيكولاس بالسيم Nicolas Balsem (1835–1884) قد اتصل قبل ذلك بماركس حول بعض التفاصيل المتعلقة بحياته، وأوضح أنه علي الرغم من أنه لا يتفق مع تصوراته، إلا أنه يعرف مدي أهميتها. وعادة ما يرفض ماركس طلب كهذا، وقد غضب بشدة فيما بعد عندما قرأ النص ووجد نفسه متهما "بخطأ متعمد في الاقتباس" وعلى إثر ذلك أخبر نيوفينهويس:

عرضت جريدة هولندية إتاحة أعمدتها لي (لتقديم رد)، ولكنى لا أهتم من حيث المبدأ، بالرد، على استفزازات من هذا النوع. لم أعر قط أدنى اهتمام طفيف لهذا الهراء، حتى أيام وجودي بلندن. وسيعني التعامل على غير ذلك النحو إهدار الجزء الأفضل من وقتي، لتقديم تصحيحات في كل الانحاء، من كاليفورنيا حتى موسكو. في أيام شبابي قمت أحيانا بتوجيه ردود عنيفة، إلا أن الحكمة تأتي مع تقدم العمر، على الأقل فيما يتعلق بتجنب المرء التبديد العبثي لطاقته.[266]

وكان ماركس قد توصل إلى هذه الخلاصة قبلها ببضعة سنوات. ففي لقاء صحفي نشر في جريدة شيكاجو تربيون في 5 يناير 1879، قال ساخرًا: "لو كنت سأقوم بالرد على كل شيء يقال أو يكتب

---

[263] Carlo Cafiero, Il CaPitale di Carlo Marx brevemente com Pendiato da Carlo marx Cafiero. Libro o della Produzione CaPitalistica. Milano: E. Bignami e C. Editori, 1879.صفحاتPrimo: Svilu

[264] ص 3.المرجع السابق.

[265] .65 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 22 February 1881, كارل ماركس إلىFerdinand Nieuwenhui .

[266] .66 ص ,.المرجع السابق

عني، سيتطلب الأمر وجود عدد من السكرتيرين."[267] واتفق إنجلز مع هذا الموقف تمامًا. فقبل رسالة ماركس إلى نيوفينهويس بوقت قصير، تحدث إنجلز في رسالة موجزة إلى كاوتسكي عن القدر الهائل من الأخطاء وسوء الفهم، التي نشرها كل من الاقتصادي الألماني البيرت شافيل Albert Schäffle (1831–1903) والاشتراكي، المتسم بتفضيل الجلوس في المكتب، كازيدر سوزياليستين Katheder sozialisten[268] بخصوص أعمال ماركس:

إن الرد مثلًا على الهراء السخيف الذي جمعه شافيل وحده في مجلداته العديدة الضخمة، ليس إلا إهدارًا تامًا للوقت من وجهة نظري. إذ سيمتلئ كتاب من نفس الحجم، لمحاولة تصحيح كل الاقتباسات الخاطئة من رأس المال التي قدمها هؤلاء السادة المحترمون بين علامات تنصيص.[269]

وختم في صيغة حاسمة: "يجب أن يتعلموا أولًا القراءة والاقتباس، قبل المطالبة بالإجابة على أسئلتهم."[270]

إلى جانب سوء التفسير وانعدام الدقة، ومحاولات العزل السياسي أيضًا، واجهت كتابات ماركس أعمال تخريب حقيقية. ففي رسالة كتبها إلى نيكولاي دانيلسون Nikolai Danielson في فبراير، بعد قراءة مقاله "خطوط عامة حول مابعد إصلاح اقتصادنا الاجتماعي" التي وجدها "رائدة بأفضل معاني الكلمة" أشار ماركس:

لو عصفت بشبكات التفكير الروتيني، فكن على يقين بأنك ستقابل دائمًا: "بالمقاطعة"، ويبدو هذا لأول وهلة مجرد سلاح دفاعي، يعرف الروتينيون كيفية إشهاره في لحظات ارتباكهم الأولى. لقد قوطعت في ألمانيا لسنوات عديدة عديدة، ولا زلت بنفس الوضع في إنجلترا مع اختلاف طفيف، إذ أتعرض من وقت لآخر لشن هجمات غبية وسخيفة ضدي، أخجل من ذكر أي شيء علني عنها.[271]

وفي ألمانيا، رغم أن مبيعات أهم إبداعاته بدأت تتزايد، وفي أكتوبر 1881، مع خروج الطبعة الثانية للمطابع، طلب منه الناشر أوتو ميسنر Otto Meissner (1819–1902) أن يجري بعض التعديلات أو بعض الإضافات في التحضير للطبعة الثالثة. وبعد شهرين اعترف ماركس لصديقه فريدريك سورج

---

[267] كارل ماركس s.n., '(Account of ’s Interview with the Chicago Tribune Correspondent)', 5 January 1879, الأعمال المجمعة ,جزء 24, ص.577

[268] ص 56. الأعمال المجمعة، جزء 46، 1 February 1881, فريدريك إنجلز إلى كارل كاوتسكى

[269] المرجع السابق ,.ص .57

[270] المرجع السابق.

[271] ص 61. الأعمال المجمعة، جزء 46، 19 February 1881كارل ماركس إلى نيكولاي دانيلسون

Friedrich Sorge (1828–1906) أن "هذا جاء في توقيت غير ملائم بالمرة"[272] وكان قد كتب إلى إبنته جيني قبلها بفترة قصيرة إنه يريد تخصيص كل وقته –بقدر ما تسعفه الظروف– للتفرغ لأنهاء الجزء الثاني. قال نفس الشيء لدانيلسون Danielson "أريد أن انتهي من الجزء الثاني[273] بأسرع ما يمكنني" مضيفًا:

رتبت مع ناشري أني سأدخل بعض التعديلات والإضافات القليلة فقط على الطبعة الثالثة، ولكنه عليه بدوره طبع عشرة الاف نسخة هذه المرة بدلًا من ثلاثة آلاف، كما اعتاد من قبل. وعندما تباع تلك النسخ، ربما أتمكن في ظروف مختلفة من تغيير الكتاب بالطريقة التي كان علي انجازه بها حاليًا.[274]

بدأت أفكار ماركس في الانتشار، ربما ببطء أكبر من أي مكان أخر، داخل البلد الذي عاش فيه منذ 1849. وفي يونيو 1881 نشر هيندمان Hyndman كتاب "إنجلترا للجميع" الذي عرض فيه مبادئ إرشادية لما كان ينتوي عمله في الاتحاد الديموقراطي. وكان فصلان من فصوله الثمانية – تحت عناوني "رأس المال" و"العمل"– قد تم جمعهما من ترجمات، أو على أحسن تقدير إعادة صياغة لرأس المال. ورغم هذا لم يشر لمؤلف رأس المال، ولا حتى ورد اسم ماركس في مؤلفه "انجلترا للجميع"– في حين إنه كان زائرًا منتظمًا منذ أواخر 1880 لطريق منتزه ميتلاند،[275] وكان يعمل على تلخيص نظريات ماركس. لقد أدرج فقط هذه العبارة "أدين فيما يتعلق بالأفكار وكثير من المسائل التي تضمنها الفصلين الثاني والثالث، لعمل مفكر عظيم وكاتب أصيل، أثق أنه سيصل قريبًا لأغلب المواطنين في بلدنا."[276]

---

[272] .161 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 15 December 1881, كارل ماركس إلى فريدريك سورج

[273] .158 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 7 December 1881, كارل ماركس إلى جيني لونجيت .

[274] .161 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 13 December 1881كارل ماركس إلى نيكولاي دانيلسون

[275]تحتوي مراسلات ماركس على إشارتين إلى هيندمان، قبل وبعد انتهاء علاقاتهم، وتوحي كل منهما بأن ماركس كان لديه تحفظات عليه. في 11 أبريل 1881، كتب إلى جيني لونجيت: "يوم أول أمس (...) تم غزونا من قبل هيندمان وزوجته، وكلاهما لديه الكثير من القوة ليبقي. تعجبني الزوجة تمامًا لأسلوبها الفكري وكونها غير تقليدية وأسلوبها الحازم في الأفكار والحديث، ولكن من المضحك أن ترى كمية الثرثرة التي أطلقتها إعجابا بزوجها! "، الأعمال المجمعة، جزء 46، ص.82 . بعد بضعة شهور في مشاجرتهم الأخيرة، علق ماركس قائلا: "سرق مني هذا الزميل عديد من الأمسيات ليخرجني وليتعلم بأسل الطرق "كارل ماركس إلى فريدريك سورج ,15 December 1881 ,الأعمال المجمعة، جزء 46، ص.163

[276] Henry Hyndman, إنجلترا للجميع. New York: Barnes & Noble, 1974, ص xxxviii.

عرف ماركس بكتيب هيندمان بعد نشره فقط. وكان مندهشًا وغاضبًا، ذلك، لأنه، بغض النظر عن أي شيء أخر، وضع الاقتباسات التي أخذها من رأس المال "دون علامات تنصيص تفصلها عن غيرها، وأغلبها ليس صحيحًا أو حتى يمكن وصفه بسوء الفهم."[277] لذلك كتب إليه في بداية يوليو:

اعترف أني شعرت بشيء من الدهشة عند اكتشافي أنك، أثناء وجودك في لندن، استطعت أن تخفي ببراعة سر خطتك، ثم نضجت وأنجزت، لتنشر مع مقالة "القرن التاسع عشر" المرفوضة، تعديلات محددة، في شكل الفصلين الثاني والثالث من "إنجلترا للجميع"، وذلك بقول أنها تعقيبات خاصة بك حول برنامج تأسيس الاتحاد.[278]

وعاد ماركس إلى الموضوع مرة أخرى في ديسمبر في رسالة إلى سورج:

فيما يتعلق بأموري، كتب الزميل رسائل اعتذار غبية، مثل "أن الانجليز لا يحبون أن يعلمهم أشخاص أجانب" وأن "أسمي مكروهًا جدًا، وما إلى آخره". ومع كل ذلك فان كتابه الصغير –بقدر ما هو سرقات– من رأس المال، إلا إنه قام بدعاية جيدة، رغم أن الرجل لا باع له، وبعيدًا حتى عن الاتسام بالصبر –الشرط الأول لتعلم اى شيء– ليتمكن من دراسة شأنًا من الشئون بدقة.[279]

بعد انقطاع علاقتهما، صنف ماركس هيندمان باعتباره "أحد كتاب الطبقة الوسطى الظرفاء الذين لديهم شبق عنيف لتكوين ثروة أو اسم أو رأس مال سياسي فورًا، من أى أفكار جديدة قد تحملها إليهم صدفة سعيدة ما".[280] ولا تعود حدة كلمات ماركس بالفعل إلى شعوره بالاحباط لأن عمله لم ينسب إليه بالاسم، حيث كانت وجه نظره كالتالي:

---

[277]ماركس إلى هيندمان ,2 July 1881 ,الأعمال المجمعة، جزء 46، ص.103 هذه مسودة الرسالة التي احتفظ بها ماركس في ملفاته. قال هيندمان، الذي أثبت عدم نضجه كانسان وطبيعته الصبيانية، "للأسف قمت بتدمير معظم رسائل ماركس أثناء اختلافنا"، Hyndman، سجل حياة مغامر، سبق ذكره. ,ص.283 ، تنبأت جيني فون فيستفالن بكل شيء عندما كتبت إلى ابنتها لورا لافارج من إيستبورن في 2 يوليو 1881: "يوم السبت، تلقى هيندمان فاتح العينين ضربة على رأسه. لا أظن أنه حمل الرسالة أمام مرآته، فمع كل حدتها، كانت صياغتها بشكل ذكي، حتى أن الغضب لا يكاد يظهر بوضوح. أعتقد أن مور كان سعيدا جدا بذلك. انظر - Yvonne KaPحياة، إليانور ماركس :الحياة الأسرية ,1883-1855جزء 1. London: Virago, 1979, .ص.211

[278] .102 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,2 July 1881 ,كارل ماركس إلى هنري هيندمان

كارل ماركس إلى فريدريك سورج ,15 December 1881 ,الأعمال المجمعة، جزء 46، ص [279] .163

15 December 1881, ,الأعمال المجمعة، جزء 46، ص [279] .163

[280]المرجع نفسه. وفي وقت لاحق، اتصل هيندمان أيضا بـ Engels، الذي كتب له فيما: "سأكون مسرورا للغاية أن أتعرف عليك شخPيا بمجرد أن تكون قد رتبت أمورك بشكل جيد مع صديقي ماركس الذي أراك الأن تجتهد في الاقتباس منه "، فريدريك إنجلز إلى هنري.. ,circa 31 March 1882 الأعمال المجمعة, جزء 46، ,ص .228 وعلق ماركس: "ذلك يساعد مباشرة الغلام الذي أري أن ملاحظتك يجب أن تكون أزعجته، خاصة أنه أخذ هذه الحريات معي فقط لأنه كان يعتمد على ضعف قدرتي، في" تكاليف

ستكون الإشارة إلى رأس المال ومؤلفه خطأً فادحًا. يجب أن تتحرر برامج الأحزاب من أي ارتباط واضح بأي مؤلفين محددين أو بكتب معينة. ولكن اسمح لي أن أضيف أيضًا أن المكان ليس مناسبًا للجديد من التطورات العلمية، مثل التي استعرتها من رأس المال، كما أن رأس المال كله لا معنى لوجوده قط في سياق تعليق على برنامج أهدافه المعلنة لا صلة له بها إطلاقًا. ربما تكون مقدمته مناسبة لعرض برنامج من أجل تأسيس حزب طبقة عاملة متميز ومستقل.[281]

وبجانب افتقار هيندمان إلى اللياقة الأخلاقية، كان السبب الرئيسي لغضب ماركس هو قلقه لأن رأس المال لا يجب استخدامه في مشروع سياسي يناقض بوضوح الأفكار الواردة فيه.[282] كانت الاختلافات بين الرجلين شاسعة فعلًا. لم يكن هيندمان يميل إلى فكرة أن السلطة يجب الاستيلاء عليها من خلال عمل ثوري. وكانت وجهة نظره، التي صارت سمة للإصلاحية البريطانية، أن التغييرات يمكن إنجازها عبر طرق سلمية فقط، وخطوة فخطوة. وفي فبراير 1880 أخبر ماركس: "أن الموضوع الذي يجب أن يشكل قناعة كل رجل إنجليزي، هو أن تكون التعبئة القادمة، سياسيًا واجتماعيًا، بدون توترات، أو صراعات خطيرة."[283]

على خلاف ذلك، رد ماركس –الرافض لأي تخطيط مسبق وثابت– على هيندمان في أخر 1880 بأن "حزبه اعتبر أن الثورة الإنجليزية غير ضرورية، ولكنها ممكنة وفقًا للسوابق التاريخية". لقد أدى توسع البروليتاريا إلى جعل "تطور" المسألة الاجتماعية أمرًا "حتميًا":

إذا تحول (هذا التطور) إلى ثورة، فلن يكون هذا من جراء الطبقات الحاكمة وحدها، ولكن الطبقة العاملة أيضًا. كل تنازل سلمي من الطبقات الحاكمة ينتزع منها "بضغط من خارجها". وتحافظ أفعالها على

الدعاية "، حتى أقوم بتسوية حسابي معه علنا"، كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز , 8 April 1882 الأعمال المجمعة، جزء 46، ص234 .

[281] Karl Marx to Friedrich Sorge, 15 December 1881, in MECW, vol. 46, p. 163.

[282] انظر - Emile Bottigelli, 'La rupture ماركس'Hyndman-، in Annali dell'Istituto Giangiacomo Fentrinelli, جزء1961 III, Milano: Feltrinelli, 1961. - : 'أسباب الفجوة بينهما لم تكن شخصية أو متعلقة بطموحات كاتب محبط. (...) بل أسباب تتعلق بالمواقف النظرية حيث أعلن ماركس للاتحاد الديمقراطي وأحد مؤسسيه الأساسيين أنه لم يعد لديه اى مساومة مع هذه المبادرة "، ص 625.

[283] هنري هيندمان إلى كارل ماركس، 25 February 1880, IISH, ماركس.262 C 261, C Engels Papers,-. "معظم رسائل هيندمان لم تنشر مطلقا" وبعضها اقتبس في تشوشيشي تسوزوكي Chushichi Tsuzuki, H.M. Hyndman and British Socialism. London: Oxford University Press, 1961 (the Present letter is mentioned at ص34).

التماشي مع ذلك الضغط، ولو ضعفت الطبقة العاملة أكثر فأكثر، فذلك فقط لأنها لا تعرف كيف تستخدم قوتها والحريات التي حصلت عليها، وكلتاهما يتم امتلاكهما بصورة شرعية.[284]

وبعد هذا الموقف بعقد من الزمن، عقد مقارنة مع الأحداث في ألمانيا، حيث كتب:

كانت الطبقة العاملة تعي تمامًا من بداية حركتها أن التخلص من الاستبداد العسكري غير ممكن إلا من خلال ثورة. وفي الوقت نفسه، فهموا أن مثل هذه الثورة، حتى لو كانت ناجحة في البداية، سوف تنقلب ضدهم في النهاية، إذا كانوا بدون تنظيم مسبق، ولم يحصلوا المعرفة اللازمة، ولم يقوموا بالدعاية. (...) ولذلك تحركوا داخل حدود قانونية صارمة. في حين تملك الحكومة إلى جانبها كل أدوات نزع الشرعية، فأعلنت أنهم خارجين عن القانون . ولم تكن جرائمهم أفعالًا محددة، لكن وجهات نظر لا تسر حكامهم.[285]

إن مراعاة مثل تلك الاعتبارات يثبت إلى حد كبير أن الثورة بالنسبة لماركس لم تكن ببساطة اندفاعًا متعجلًا للإطاحة بالنظام، ولكن مسارًا طويلًا ومعقدًا. [286]

بالرغم من إثارة أفكار ماركس لحالات جدل ومنازعات حادة، لكنها بدأت في إحداث تأثير حتى في إنجلترا. لذلك، في نهاية 1881، لاحظ ماركس في رسالة لسورج "أن الإنجليز بدأوا مؤخرًا في استقاء ملاحظات كثيرة من رأس المال". وفي أكتوبر نشرت المجلة المعاصرة The Contemporary Review مقالًا بعنوان "اشتراكية كارل ماركس والهيجليون الشباب"[287]، اعتبره ماركس "غير لائق بالمرة،

---

[284] 49. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 8 December 1880, كارل ماركس إلى هنري هيندمان.

[285] .المرجع السابق

[286] انظر تقرير Mountstuart ElPhinstone Grant Duff (1829 - 1906) عن لقاءه مع ماركس في بداية عام 1879. سأله النبيل الإنجليزي سؤالا استفزازيا:

"حسناً، لنفترض أن ثورتك قد حدثت وأن لديك شكلا خاصا للحكومة الجمهورية – سيظل أمامك طريق طويل جدا أنت وأصدقائنا لتحقيق الأفكار الخاصة بكم.

أجاب – هذا صحيح تماما، لكن كل الحركات العظيمة (في التاريخ -م) تسير ببطء. سيكون الأمر مجرد خطوة نحو أشياء أفضل مثل ثورتكم عام 1688 - مجرد مرحلة على الطريق "،

(السير ماونت ستيوارت إلفينستون جرانت داف بيان عن حوار مع كارل ماركس: من رسالة إلى الأميرة المتوجة فيكتوريا)، الأعمال المجمعة، جزء 24، ص 580.

[287] John Rae, 'The Socialism of كارل ماركس and the Young Hegelians', The Contemporary Review, جزء(July-December 1881) XL . صفحات.587-607 .

وممتلئ بالأخطاء" إلا أنه كان مؤشرًا على أن أعماله حظيت باهتمام جديد. وأضاف ماركس ساخرًا إن المقال كان "منصفًا"، لأن مؤلفه جون ري John Rae (1845–1915)، لم يفترض أني خلال الأربعين عامًا التي كنت انشر فيها نظرياتي الضارة، لم تحركني دوافع "خبيثة". ويجب أن اشكره على "سماحته". ورغم هذا، لخص ماركس باقتضاب وجهة نظره في مثل تلك المنشورات جميعًا: "يبدو أن نزاهة إلمام المرء، على الأقل، بالمعرفة الكافية عن الموضوع الذي ينقده، تعد شيئًا مجهولًا تمامًا للكتاب البريطانيين المحافظين."[288]

وتعاملت جريدة بريطانية أخري، الفكر الحديث Modern Thought، مع ماركس بصورة أكثر احترامًا، وكانت حاضرة للاعتراف بالطابع العلمي لأعماله. ووصف مقال بقلم المحامي والصحفي ارنست بيلفورت باكس Ernest Belfort Bax (1854–1925) رأس المال بإنه كتاب "يجسد العمل وفقًا لمذهب في الاقتصاد، يضاهي من حيث طبيعته الثورية وأهميته الكبيرة جدًا النظام الذي وضعه كوبرنيكوس في علم الفلك، أو تأثير قانون الجاذبية في الميكانيكا بوجهٍ عام".

لم يكتف باكس بتقرير إن رأس المال "أحد اهم الكتب في عصرنا"، وقد تمنى ترجمته للإنجليزية قريبًا، لكنه امتدح أيضًا أسلوب ماركس وقارنه بأعمال شوبنهور Schopenhauer في "سحره وحيويته" و"أسلوبه الساخر" و"طريقة عرضه سهلة الفهم لأكثر المبادئ تجريدية".[289]

ابتهج ماركس بهذا "المنشور الأول من نوعه باللغة الإنجليزية الذي يسوده حماس حقيقي للأفكار الجديدة ويقف بشجاعة في مواجهة الميول البريطانية المحافظة". وأشار في ترجمته "اقتباسات من رأس المال" إلى أن "كثير مما ذكر (كان) يشوبه الخطأ والارتباك (...) في عرض مبادئي الاقتصادية،" لكنه أشاد بالكاتب لجهوده، وأعرب عن تأثره لأن "ظهور هذه المقالة، التي أعلن عنها بحروف كبيرة في لافتات على حوائط "ويست إند أوف لندن"، قد أحدث شعورًا رائعًا". [290]

كان انتشار أفكار ماركس لافتًا للانتباه بحق في سبعينيات القرن التاسع عشر، ومن ثم استمر في بدايات العقد التالي. والآن، لم تعد أفكاره حبيسة دوائر صغيرة من الأنصار والنشطاء السياسيين، لكنها صارت تجذب اهتمام أعداد أكبر من القراء والمستمعين. إن الاهتمام بالماركسية لم ينحصر في كتاباته السياسية

---

[288] .162 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 15 December 1881, كارل ماركس إلى فريدريك سورج

[289] E. Belfort Bax, "قادة الفكر الحديث" .xxiii :كارل ماركس'، جزء2 .(December 1881) 3 .صفحات.354 and 349 .

[290] .163 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 15 December 1881, كارل ماركس إلى فريدريك سورج

فقط –على سبيل المثال بيان الحزب الشيوعي وتقارير رابطة العمال الدولية– لكنه امتد إلى إسهاماته النظرية الرئيسية: نقد الاقتصاد السياسي. وتحولت المفاهيم النظرية الموجودة في رأس المال إلى موضوع للنقاش والتقدير في عديد من الدول الأوربية، وبعد بضعة سنوات فقط –ولنقتبس الآن تعبيرًا سيصبح ذائعًا فيما بعد– لم يتردد إنجلز في وصف كتاب رفيقه أنه "إنجيل الطبقة العاملة".[291] من يدري إذا ما كان ماركس، الذي لم يكن صديقًا أبدا للكتب المقدسة، سوف يقدر هذا الوصف.

2. تقلبات الحياة

في النصف الأول من يونيو 1881، تدهورت صحة جيني فون فيستفالن بدرجة كبيرة. وكان "نقص وزنها وقوتها المتزايد" مثيرًا للقلق، وغير مستجيب لأي علاج. وقد أقنعها الدكتور دونكين بالابتعاد عن مناخ لندن، على أمل أن يؤدي ذلك إلى استقرارها نفسيًا بقدر يكفي لتخطيط رحلة لزيارة ابنتها جيني وأحفادها الأحباء في باريس. وعلى ذلك قرر ماركس وزوجته قضاء بعض الوقت في إيستبورن، على ساحل القنال.

وفي هذا الوقت، لم يكن ماركس في حالة صحية جيدة أيضًا. وكان من المأمول أن تتيح له الراحة بجوار البحر، ليس فقط مرافقة زوجته المريضة كما يتمنى، بل وأن تتحسن صحته أيضًا. كتب إنجلز إلى جيني لونجيت Jenny Longuet في النصف الثاني من الشهر إن "التغيير (سيكون) مفيدًا بنفس القدر لمور[292]، "هو أيضًا في حاجة إلى استجماع قواه، فلم يعد سعاله شديد السوء ليلًا، كما أن نومه تحسن

---

[291]فريدريك إنجلز إلى كارل ماركس،' مقدمة الطبعة الإنجليزية'، رأس المال، جزء أول، الأعمال المجمعة، جزء 35, .ص.35

[292]"مور" 'Moor' هو لقب ماركس في محيط العائلة وبين رفاقه المقربين: "لم يكن يسمى ماركس أبدا هناك، أو حتى كارل، بل مور فقط، مثلما كان لكل واحد منا لقبه الخاص. كان الأمر على هذا النحو في الحدود التي لا تستخدم فيها الالقاب، والعلاقات الحميمية كذلك. كان مور لقبه منذ أيامه الجامعية وعلى نهر الراين Rheinische كان يطلق عليه دائما مور. إذا خاطبته بأي أسم أخر سيعتقد أن هناك خطأ ما ولا بد من تصحيحه "، Engels to Theodor Cuno, 29 March 1883, الأعمال المجمعة، جزء 46، ص466 . وأيضا أشار أوغست بيبل في وقت لاحق إلى أن: "زوجة ماركس وبناته دائما يطلقون عليه اسم" مور "، كما لو أن ليس له اسم آخر. الاسم المستعار المستمد من شعره الأسود الفاحم ولحيته السوداء، والذي يتناقض مع شاربه، الذي تحول إلى اللون الأبيض، Hans Magnus Enzensberger(المحرر.)، GesPräche mitماركس وإنجلز، جزء :2. Frankfurt / Main . Insel Verlag، 1973، ص528 .

كما ذكر برنشتاين: "كنت ارغب الآن في الانصراف، لكن إنجلز قال بإصرار:" لا، لا، تعال معي إلى المور ". قلت للمور؟ "ولكن من هذا؟" أجاب إنجلز في نبرة تشير إلى أنه كان يجب على معرفة من كان يقصده بالطبع "ماركس. من غيره؟"، إدوارد بيرنشتاين، أعوام المنفى. London: Leonard Parsons, 1921, ص154 . للحصول على قائمة كاملة بالألقاب المستخدمة في محيط عائلة ماركس، انظر - Olga Meier(المحرر.)، The Daughters ofكارل ماركس Family :المراسلات New .1866-1898 York: Harcourt Brace Jovanovich, 1982, صxiii .

كثيرا".[293] وتحدث ماركس بنفسه عن معاناته لسورج Sorge، فقد كشف له في 20 يونيو أنه "مر بمعاناة شديدة لمدة ستة أشهر أو أكثر، متألمًا من السعال والبرد والتهاب الحلق والروماتيزم، مما جعله غير قادر على الخروج من المنزل إلا نادرًا، و(أبقاه) بعيدًا عن المجتمع".[294]

سافر ماركس وزوجته إلى إيستبورن في نهاية الشهر، وظلوا هناك لمدة ثلاثة أسابيع تقريبًا. وتحمل إنجلز تكاليف الرحلة واستشارات الأطباء. وفي شهر يوليو طمأن صديقه: "يمكنك الآن الحصول على من 100 إلى 120 جنيهًا إسترلينيًا، لا تحتاج سوى أن تحدد ما إذا كنت تريدهم دفعة واحدة، وكم المبلغ الذي تود إرساله لك هنا، وكم تريد هناك".[295]

واغتنمت لورا وإيلينور الفرصة بدورهما، لقضاء وقت مع والديهما لمساعدتهما في الحصول على الراحة المطلوبة.[296] إلا أن صحة جيني فون ويستفالن لم تتحسن. إذ كتبت إلى لورا "رغم الظروف المواتية، إلا أنى لا أشعر بتحسن وقد وقعت فعلًا في حوض الحمام. ومثل هذه الأشياء، بينما المعروف عني إجادة رياضة المشي، لا مفر من النظر إليها باعتبارها تقلل أحساسي بنفسي منذ عدة أشهر."[297]

عند عودتها إلى لندن، وجد الطبيب أن جيني أفضل نوعًا ما، ووافق على رغبتها في رؤية إبنتها وأحفادها في باريس بعد انقطاع دام خمسة أشهر أو أكثر. أرسل ماركس خمسة جنيهات إسترلينية إلى ابنته جيني، حيث كان عليها "أن تدفع مبالغ نقدية لاستئجار بياضات للسرير، وأشياء من هذا القبيل"، وأصر على أن ذلك لا مفر منه، إذا كانت ستستقبلهم في بيتها. وأضاف "الباقي" سيكون بطريقة "الدفع عند الوصول".[298]

وفي 26 يوليو، وصل ماركس وزوجته إلى فرنسا، وبصحبتهما هيلين ديموت، ومنها إلى أرجينتيول Argenteuil، الضاحية الباريسية التي تعيش فيها جيني مع زوجها. وفور وصوله طلب مقابلة طبيب العائلة غوستاف دورلين Gustave Dourlen الذي من المفترض أن يتابع صحة جيني زوجته. كتب

---

[293] .97 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، to Jenny Longuet, 17 June 1881, فريدريك إنجلز

[294] .98 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 20 June 1881, كارل ماركس إلى فريدريك سورج

[295] .104 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 7 July 1881, كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[296] ماركس إلى لورا ابنته، 13 April 1882, الأعمال المجمعة، جزء 46، ص.238 ، ابلغها كم يتذكر بحنين زيارتها اليومية الودودة، وابتهاجه بصياحها العصبي، نيك العجوز.See also Ka صفحات ,إليانور ماركس :الحياة الأسرية ,1883-1855سبق ذكره. ,ص .218

[297] .المرجع السابق As qquoted in

[298] .106 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 22 July 1881, كارل ماركس إلى جيني لونجيت

إلى إنجلز أنه، في اليوم الأول من زيارته، ناداه الأطفال باسم "نيك العجوز" Old Nick[299] واستخدم هذا الاسم مع ما له من ارتباطات سيئة وسط العائلة، بدلا من اسم "مور"، وخصوصًا في سنوات حياته الأخيرة، وأحيانًا استخدمه في توقيع رسائله إلى بناته، لقد كان أمرًا طريفًا، أكثر منه مبهجًا، أن يستخدم اسم الشهرة هذا مع ماركس.[300]

ثارت بعض الشكوك على أثر خبر عودة ماركس إلى فرنسا، رغم أسبابها الشخصية تمامًا. خمن لونجويت "إن الفوضويون ما أن يتلقوا خبر عودته، سيحملون ذلك على نيته الخبيثة في تأجيل التصويت" في الانتخابات القادمة، إلا أنه سمع من صديقه كليمنصو Clemenceau، إن ماركس "ليس لديه مطلقًا ما يجعله يخاف من البوليس."[301] وأخبرت إليانور، ابنته، كارل هرش Carl Hirsch (1841–1900)، مراسل الصحافة الألمانية الديموقراطية، عن وصول الأب والأم. وبخصوص هذا قال ماركس مازحًا إن وجوده في فرنسا كان "سرًا معروفًا للجميع".

إنجلز، الذي أمضى أسبوعين في بريدلينجتون Bridlington، يوركشاير Yorkshire، كان مطمئنًا بما أخبره به صديقه، ورد عليه بحرصة المعتاد عليه: "معي بعض الشيكات التي حصلت عليها، لذلك إذا احتجت أي شيء، فلا تتردد أن تخبرني بصراحة كم تريد. الآن أو فيما بعد، لا يجب أن تشعر زوجتك بالحاجة إلى شيء. احضر لها فورًا أي شيء ترغب فيه أو أي شيء تعرف أنه سيسرها". كما أنه أنعش ماركس بالإشارة إلى واحدة من ملذاته العظيمة في الحياة: "هنا يمكن أن يكون المرء في حالة جيدة دون حاجة إلى البيرة الألمانية، لأن هناك نوع من البيرة الرائعة في المقهى الصغير على الرصيف البحري، ولها تأثير مشابه للبيرة الألمانية".[302]

---

[299] .107 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 27 July 1881, كارل ماركس إلى جيني لونجيت

[300] أول رسالة وقعها ماركس بهذا الاسم كان في العام الذي نشر فيه رأس المال، انظر ماركس إلى لورا ابنته، 13 مايو 1867، الأعمال المجمعة، مجلد 42 ص 376. من بين كل المزاعم التافهة حول ماركس، وبعضها مشوب بمعاداة السامية أو العنصرية، فإن أحد أكثر العبارات سخيفة هو أنه "كان لديه رؤية شيطانية للعالم، وفي داخله خبث وشر الشيطان" وأحيانا يبدو عليه أنه يعرف أنه فعلا يقوم بعمل الشيطان؛ Robert Payne, ماركس، سيرة ذاتية. New York: Simon & Schuster, 1968. ص.317 .: ضمن هذا التراث العدائي، الشيء الهزلي هو شيطانية ماركس؟ Glendale: Diane Books, 1979, قام القس الأمريكي (الروماني سابقا) priest Richard Wurmbrand، بتصوير ماركس، مستخدما الاسم العائلي، على أنه يدخل بواسطة هذا الاسم إلى الوريد العضلي مباشرة. فعلى سبيل المثال، كتب ماركس إلى لورا في 25 سبتمبر 1869:" اعتذر عن عدم حضوري للمشاركة في عيد ميلاد عزيزي عين العصفور النقية، لكن تفكير Old Nick معكم، ولذلك أنتم محفوظين في قلبي، الأعمال المجمعة، مجلد 43ص 355. ومرة ثانية في 4 فبراير 1871 بعد أن أنجبت لورا طفلا، كتب إلى زوجها بول "احتضن لي الصغير Schnappy وأبلغه أن Old Nick سعيد للغاية بصوره التي التقطت له.". الأعمال، مجلد 44 ص 112.

[301] .109 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 27 July 1881, كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[302] .109 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 29 June 1881, فريدريك إنجلز وكارل ماركس

على الجانب الآخر من القنال، لم يكن لدى ماركس مثل هذا الوقت المناسب. وشكر إنجلز على مساعدته: "إن السحب بشكل كبير من حسابك المالي هو إحراج ضخم بالنسبة لي، لكنها الفوضى التي كان لها أثار وخيمة على تدبير شئون أسرتي على مدار العامين الماضيين، وأدت إلى مطالبتي بجميع أنواع الديون المتأخرة، ووضعتني تحت ضغط شديد لوقت ليس قليل".[303] ثم ذكر بعد ذلك حالة زوجته جيني: "كل يوم نشهد نفس التقلبات في حالتها، هنا كما كان يحدث في إيستبورن، فقط مع الفارق في معاناتها من نوبات مفاجئة ومخيفة من الألم –وعلى سبيل المثال حدث هذا بالأمس– وعندها كان الدكتور دورلين مستعدًا بجرعة المواد الأفيونية المسكنة". لم يستطيع ماركس إخفاء مخاوفه: ""المهدئات" المؤقتة لا تمنع فعلًا التطور الطبيعي للمرض، لكنها تخدع زوجتي وتشجع جيني (لونجيت) على الاعتقاد بأن إقامتنا في أرجينت يجب أن تستمر لأطول فترة ممكنة – بغض النظر عن عتابي الشديد لهما بسبب ذلك."[304]

ولم يكن هذا التقلب الدائم بين الخوف والرجاء شيئًا طيبًا بالنسبة لصحته، لدرجة أنه يقطع عليه لحظات راحته "كانت الليلة الماضية، في الحقيقة، الفرصة الأولى التي استطعت فيها الحصول على نوم هادئ. أفكاري باهتة وميتة، وكأن عجلة طاحونة تدور في رأسي". ولذلك لم يذهب إلى باريس أو يكتب ولو سطر إلى رفاقه في العاصمة يدعوهم لزيارته في منزل ابنته.[305] كان 7 أغسطس هو اليوم الأول من رحلتهم إلى وسط باريس، وقد استمتعت بها جيني فون فيستفالن تمامًا. وبالنسبة لماركس –الذي لم يذهب إلى هناك منذ عام 1849– كانت باريس "تعطيك انطباعًا أنها معرض دائم".

ومع العودة إلى أرجينت، كتب ماركس إلى إنجلز يشرح مخاوفه من حدوث تدهور مفاجئ في حالة زوجته. وحاول إقناعها بالرجوع إلى لندن. لكن مشاعرها الأمومية هيمنت، وقالت إنها ترغب في قضاء أطول وقت ممكن مع ابنتها جيني. "ودبرت حيلة بالفعل (...) بإرسال كمية من الغسيل"[306] كان موعد

---

[303]ماركس إلى إنجلز في 3 أغسطس 1881، كريم كما أنت دائما، يجيبه إنجلز فورا، بخصوص هذا المبلغ التافه "30 جنيه إسترليني" ليس ثمة أي داعي إلى الخجل...) .) فقط اخبرني إن كنت بحاجة إلى نقود اكثر وسوف ارسل شيك بمبلغ اكبر، ا5 أغسطس 1881، إنجلز إلى ماركس، الأعمال المجمعة ، مجلد 46، صفحات، 113، 116.

[304].110 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 3 August 1881, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[305]المرجع السابق. قدم لهم ماركس علامات فقط بعد بضعة أيام حياة: أنا هنا منذ أسبوعين تقريبا، لم أقم بزيارة باريس ولا زيارة أيا من معارفي. ظروف زوجتي لا تسمح بزيارة أي شخص. ماركس إلى كارل هيرش Carl Hirsch، 6 أغسطس 1881، الأعمال، مجلد 46 ص 115.

[306].116 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 9 August 1881, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

ردها أول الأسبوع التالي.[307] وختم ماركس ببضع سطور عن نفسه: "الغريب أني حصلت على قليل من تلك الراحة اللعينة في الليل، ومرت ساعات النهار كلها في قلق وحزن، الكل يقول لي أنى أبدو في حالة جيدة، كما لو كان هذا هو الحال فعلًا". [308]

حدثت واقعة أخري محزنة اضطرته إلى مغادرة فرنسا على وجه السرعة. في 16 أغسطس، تلقى ماركس أنباء عن مرض شديد أصاب ابنته الثالثة، إليانور. وعلى الفور توجه إلى لندن، ولحقته زوجته وهلين ديموت بعد بضعة أيام. سرعان ما اتضح أن توسي –الاسم العائلي لاليانور– تعاني من اكتئاب شديد.[309] إلى درجة تجعلها تبدو "شاحبة وهزيلة" بشكل مثير للقلق، لم تكن قد أكلت "حرفيًا لعدة أسابيع"، ولجأ ماركس إلى ابنته جيني، وأبلغها أن أختها كانت تعاني من "الارق المستمر، وارتعاش اليدين، وتشنجات عصبية في الوجه وما إلى آخر ذلك"، وأنها ستكون في "خطر كبير إزاء المزيد من التأخير".[310] ولحسن الحظ، ساعد ماركس في تلك الأزمة، احتفاظه بذكريات عن الأسابيع الجميلة التي قضاها في أرجينتويل، بصرف النظر عن أي شيء. "كان وجودي معكم ومع أولادكم الأعزاء متعة هائلة، أعطتني قدرًا من السعادة الحقيقية أكبر مما يمكن أن احصل عليه في أى مكان أخر."[311]

وبالكاد بعد يومين، وصلت الأخبار من أرجينتويل عن المرض الشديد الذي أصاب لونجويت وهاري الصغير. وكتب ماركس لإنجلز معلقًا على هذا "لم يبق للعائلة هذه اللحظة سوى سوء الحظ"[312] ويبدو أن لا نهاية لتلك المصاعب والمحن التي لاحت في الأفق.

3. وفاة زوجته والعودة إلى دراسة التاريخ

[307]كتب ماركس الأمر نفسه إلى لورا في لندن: "ماما في حالة خطيرة نتيجة لضعفها المتزايد. وأنوي (بجرد ما أن نكون قادرين على السفر فقط في ظروف أفضل هذه المرة) أن أرتب للسفر بأي ثمن في نهاية الأسبوع، وأبلغت المريضة بذلك. بالأمس، ومع ذلك فقد أفسدت خطتي عن طريق إرسال الغسيل، كارل ماركس إلى لورا لافارغ، 9 أغسطس 1881. الأعمال المجمعة، المجلد. 46، ص - 118.

[308] .116 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، August 1881, 9 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[309]تفترض إيفون كاب أن مشكلة إليانور كانت ذات شقين ومؤلمة: كانت تحاول قطع اتصالها السري مع ليساجاراي، صديقها الذي لم تقبله العائلة أبدا، وفي الوقت نفسه كانت تتوق إلى أن تصبح ممثلة مسرح. Kapp، إليانور ماركس :الحياة الأسرية -1855 1883، سبق ذكرهy.، ص 227.

[310]ماركس إلى جيني الابنة، 18 أغسطس 1881، الأعمال، مجلد 46 ص 135. كتب إلى إنجلز: اعتقد دكتور دونكين أن ما يراه خارق للطبيعة (...) فلم يحدث انهيار مثل هذا من قبل. ماركس إلى إنجلز، .1881 August 18الأعمال، مجلد 46، ص 133.

[311] .135 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، August 1881, 18 ,كارل ماركس إلى جيني لونجيت

[312] .136 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، August 1881, 19 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

مهمة رعاية إليانور، التي امتصت كثير من طاقته في النصف الثاني من الصيف، بجانب تطورات مرض جيني فون ويستفالن –الذي "يقترب يومًا بعد يوم من أقصى درجاته"[313]– منع عائلة ماركس من مواصلة أي علاقات اجتماعية. في بداية هذا الشهر، كتب إلى مينا كاوتسكى Kautsky Minna (1837–1912) –وهي ممثلة سابقة، وأصبحت مؤلفة روايات ملتزمة اجتماعيًا– معتذرًا عن عدم تمكنه من دعوتها إلى لندن، لأن حالة زوجته الصحية حرجة (وخشيته) أن يكون "المرض مميتًا"، قد "حدا فعلًا من اتصالهم بالعالم الخارجي".[314] وكتب في اليوم نفسه إلى إبن مينا كاوتسكى، أنه أصبح "ممرضة مريضة".[315]

خلال هذه الفترة استأنف ماركس دراسته للرياضيات. وقد ذكر بول لافارج لاحقًا، علاقة أبو زوجته المميزة للغاية بهذا الموضوع:

بجانب القراءات في الشعر والرواية، كان لدى ماركس أسلوبًا آخرًا مميزًا في الاسترخاء الذهني، هو الرياضيات، التي كان له اهتمامات خاصة بها. حتى أن الجبر جلب له عزاءً معنويًا ولجأ إليه في أكثر اللحظات المؤلمة خلال حياته الصعبة. أثناء آخر مراحل مرض زوجته لم يكن قادرًا على تكريس نفسه لعمله العلمي المعتاد، والطريقة الوحيدة التي كانت تمكنه من التخلص من الشعور بالضغط الناجم عن معاناته، هو الانغماس في الرياضيات. خلال ذلك الوقت من المعاناة النفسية كتب عملًا حول عمليات التفاضل والتكامل متناهية الصغر. (...) رأى في الرياضيات العليا منطقية أكثر، وفي الوقت نفسه كانت الشكل الأبسط للحركة الجدلية. كان يرى أن العلم لن يتطور فعلًا إلا بتعلم كيفية استخدام الرياضيات.[316]

في منتصف أكتوبر، تعثرت مرة أخرى صحة ماركس، التي كانت تتهاوى تحت ثقل الأحداث العائلية، كما تطور الالتهاب الشعبي إلى حالة شديدة من متاعب بالغشاء البلوري. هذه المرة، قضت إليانور كل

---

313 .143 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 1 October 1881, ,كارل ماركس إلى كارل كاوتسكى

314 .4-143 .الأعمال المجمعة، جزء 46، صفحات 1 October 1881, , كارل ماركس إلى مينا كاوتسكى.

315 .143 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 1 October 1881, ,كارل ماركس إلى كارل كاوتسكى

316لافارج، معهد الماركسية اللينينية(المحرر.)، ذكريات عن حياة ماركس وإنجلز. :Moscowدار نشر اللغات الأجنبية ,1958 , ص.75 .

وقتها على سرير والدها، تحاول مساعدته على درء خطر الالتهاب الرئوي. ومنعت أختها من مغادرة أرجينتويل لتكون قادرة على الانضمام إليهم.[317]

كتب إنجلز القلق إلى برنشتاين في 25 أكتوبر: "كان راقدًا في الفراش طوال الاثني عشر يومًا الماضية، يعاني من الالتهاب الشعبي وكل أنواع المضاعفات، لكن منذ يوم الأحد –نظرًا لاتخاذ كافة التدابير الواجبة– لم يعد هناك أي خطر. وبإمكاني أن أقول لك، إني قلق إلى حد بعيد.[318] وبعد بضعة أيام، أخبر أيضًا الرفيق القديم يوهان بيكر Johann Becker (1809–1886): "في هذه المرحلة من حياته، وبالنظر إلى الحالة العامة لصحته، (التهاب الشعب الهوائية) لا يمكن اعتبار أن المسألة هينة. ولحسن الحظ يمكن قول أن الأسوأ قد انتهى، وفيما يتعلق بماركس، ففي الوقت الراهن تم تلافي جميع المخاطر تمامًا، على الرغم من أنه يتعين عليه قضاء الجزء الأكبر من اليوم في الفراش، بعد أن ضعفت صحته بشكل كبير."[319]

في نهاية نوفمبر، أرسل إنجلز نشرة طبية أخرى إلى برنشتاين: "لا يزال ماركس متداعيًا إلى حد كبير، وغير مسموح له بمغادرة غرفته أو الانهماك في أي عمل جدي، إلا أن وزنه يتحسن بوضوح". في هذا الأثناء "لو هناك حدث خارجي واحدا يساهم بدرجة ما في شغل ماركس مرة أخرى، سيكون الانتخابات".[320] وفي 27 أكتوبر 1881، حصل الديمقراطيون الاشتراكيون الألمان على أكثر من 300 ألف صوتًا في الاقتراع للبرلمان الجديد – وهي نتيجة نادرة في أوروبا.[321]

كانت جيني فون فيستفالن أيضًا مسرورة جدًا بالنتيجة، لكنها كانت آخر المسرات في حياتها. ففي الأسابيع التالية حدثت تطورات سيئة في حالتها: وقال دكتور دونكن "حتى تشعر ببعض التغيير" يجب

---

[317] "يجب عليك عدم ترك الأطفال. سيكون ذلك جنون رهيب وسوف يسبب قلقا شديدا لبابا أكثر من شعوره بالسعادة لوجودك ولن يجعله في حالة جيدة، رغم أننا جميعا نتمنى وجودك. مقتبس في Kapp، الحياة الأسرية، إليانور ماركس 1855-1883، سبق ذكره. ص .219

[318] إنجلز إلى إدوارد برنشتاين، في 25 أكتوبر 1881، الأعمال المجمعة، مجلد46 .ص-150 .، كتب ماركس نفسه إلى بيكر: الأمر جديا تماما، لقد مررت بأزمة مرضية عنيفة وألام شديدة لفترة ما، تقريبا عدة أيام، ولم يكن الطبيب واثقا انى قد أتخطاها." كارل ماركس إلى جون فيليب بيكر ,10 December 1881 ,الأعمال المجمعة، مجلد ,46 .ص.127 .

[319] 151 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,4 November 1881 ,فريدريك إنجلز إلى جون فيليب بيكر

[320] .155 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,30 November 1881 ,فريدريك إنجلز إلى إدوارد برنشتاين

[321] كان إنجلز مبتهجا: "إن البروليتاريا لم تقم بهذا الأداء الرائع أبدا من قبل. بعد الهزيمة الثقيلة عام 1848، في إنجلترا، تراجعت أخيرا حالة السلبية وعدم الاكتراث، وفي النهاية، اضطروا إلى التراجع أمام الاستغلال البرجوازي، ولكن بشرط، أن يخوض الاتحاد النقابي معارك فردية من أجل أجور أعلى '، فريدريك إنجلز إلى إدوارد برنشتاين، 30 نوفمبر. 1881، سبق الإشارة إليه، صفحات. 3-152.

على إليانور وغيرها من المعاونين "رفعها –في ملائتها– من سرير النوم إلى المقعد" والعودة بها مرة أخرى.[322] وكانت تحت تاثير التخدير القوي بالمورفين بسبب الألم الشديد. وذكرت إليانور فيما بعد:

كانت أمنا ترقد في الغرفة الأمامية الفسيحة، ومور في غرفة صغيرة في الخلف. (...) لن أنسى أبدًا هذا الصباح عندما شعر أنه قوي بما يكفي للذهاب إلى غرفة أمي. وعندما اجتمعا صارا شبابين من جديد: هي فتاة محبة وهو شاب عاشق، على عتبة الحياة، وليس رجل مسن دمره المرض، وامرأة عجوز تحتضر. ويوشك كليهما على مفارقة الحياة.[323]

في اليوم الثاني من ديسمبر 1881، توفت جيني فون فيستفالن، المرأة التي شاركت ماركس متاعبه وشغفه السياسي، بسرطان الكبد. وكانت خسارة لا تعوض بالنسبة لماركس. وجد نفسه وحيدًا للمرة الأولى منذ عام 1836، عندما وقع في غرامها في سن الثامنة عشرة فقط، محرومًا من "أعظم كنوزه"[324]، بدون "الوجه (الذي) يوقظ فيه أروع وأجمل ذكريات حياته".[325]

لتجنب مزيدًا من التدهور في صحته المتداعية، لم يتمكن حتى من حضور جنازتها: "فلا يمكن مخالفة أوامر الطبيب"، كتب ذلك بحزن شديد إلى ابنته جيني. لقد فكر في الكلمات التي قالتها زوجته إلى الممرضة، قبل وفاتها بوقت قصير، حول بعض الشكليات غير المهمة: "نحن لسنا مثل هؤلاء الناس في الخارج." [326] إلا أن إنجلز، الذي قالت عنه إليانور أنه "رجل على درجة من العطف والتفاني بما يصعب وصفه."[327] فقد حضر الدفن. وفي خطابه أمام القبر، أشار إلى تابوت زوجة ماركس قائلًا: "إن كان هناك امرأة على الإطلاق تكمن سعادتها العظمى في جعل الآخرين سعداء، كانت هذه هي."[328]

---

[322] 219 ص ,.سبق ذكره ,1883-1855 الحياة الأسرية :إليانور ماركس,صفحاتQuoted in Ka

[323] المرجع ذاته، صفحات 219 و20. فيما بعد كتب ماركس إلى دانيلسون أنه كان في حالة سيئة للغاية لعدم تمكنه من رؤية زوجته "خلال 3 أسابيع من آخر 6 أسابيع في حياتها"، رغم أنهم كانوا متواجدين "في غرفتين متجاورتين "، كارل ماركس to Nikolai Danielson، 13 December 1881، الأعمال المجمعة، مجلد. 46، ص. 160.

[324] ماركس إلى ابنته جيني، 15 ديسمبر 1863، الأعمال. مجلد 41، ص. 499. في حياة جيني فون ويستفالن وعلاقتها مع ماركس، انظر كتاب Mary Gabriel ماري غابرييل، الحب ورأس المال.Little : New York، Brown and Company، 2011 . Also، Luise Dornemann. Jenny Marx: Der Lebensweg einer Sozialistin برلين: Dietz، 1971، وHeinz Frederick Peters، Red Jenny: A Life with Karl Marx. 1986. New York: St. Martin's

[325] 56 ص ,40 .جزء الأعمال المجمعة، 21 June 1856, ماركس كارل ماركس إلى جيني

[326] 156. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 7 December 1881 , جيني لونجيت إلى كارل ماركس

[327] Kaصفحات ,إليانور ماركس :الحياة الأسرية ,1883-1855سبق ذكره. ,ص 219.

[328] 221. ص ,.المرجع السابق

بالنسبة لماركس، الألم النفسي الرهيب الذي عاناه جراء فقد زوجته، فاقم من متاعب جسده. العلاج الذي كان عليه المرور به كان مؤلمًا إلى أقصى درجة، لكنه واجهه بروح حمولة. وكتب لابنته جيني:

لازلت مضطرًا إلى دهن صدري وعنقي وما إلى آخره، باليود، وعندما يتكرر ذلك بانتظام، يسبب التهابًا للجلد مؤلمًا ومملًا. وظيفة العملية المذكورة مجرد منع الانتكاس خلال فترة النقاهة (التي تكتمل الآن بصرف النظر عن السعال الطفيف). لا يوجد سوى دواء واحد فعال للمعاناة النفسية، وهو الألم الجسدي، وضع نهاية العالم في جهة، ورجلًا يعاني من ألم أسنان رهيب في الجهة الأخرى. [329]

أصبحت صحته منهارة وغير مستقرة لدرجة أنه في مرحلة ما –كما كتب إلى دانيلسون– كان "قريبًا جدًا من الرحيل عن هذا العالم الرديء". وأضاف: "إن الأطباء يريدون إرسالي إلى جنوب فرنسا أو حتى إلى الجزائر".[330] لكنه كان مجبرًا على البقاء في الفراش لعدة أسابيع، وفي رسالة إلى سورج تحدث عن "كونه مقيدًا بالمنزل" وعن "إهداره وقتًا طويلًا جالسًا هكذا ينفذ خطة استعادة صحته".[331]

رغم كل شيء، فقد خصص ماركس جزءًا كبيرًا من اهتمامه النظري في الفترة ما بين خريف 1881 وشتاء 1882، إلى الدراسات التاريخية. وقد بدأ أبحاثه بطريقة منظمه خلال تتابع زمني للأحداث الأساسية، عامًا تلو الآخر، بدأ من القرن الأول قبل الميلاد، ملخصًا أسبابها وأهم معالمها. واتبع المنهج نفسه لإنجاز "ملاحظات حول تاريخ الهند (664–1858)" في الفترة ما بين خريف 1879 وصيف 1880، والتي استند جمعها على كتاب "التحليل التاريخي للهند" لروبرت سيويل Robert Sewell (1845–1925).[332] وكان هدفه التحقق من صحة أفكاره باختبارها على الماضي الفعلي للبشرية، وليس مجرد التركيز على التغيرات في الإنتاج، وتجاوز الحتميات الاقتصادية، مع إيلاء اهتمام دقيق بالمسألة الرئيسية الخاصة بتطور الدولة الحديثة.[333]

---

[329] 156. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 7 December 1881, , جيني لونجيت إلى كارل ماركس

[330] 160. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 13 December 1881,كارل ماركس إلى نيكولاي دانيلسون

[331] 162. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 15 December 1981, ,كارل ماركس إلى فريدريك سورج

[332]الطبعة الأحدث تاريخا لهذه المخطوطات هي "كارل ماركس، ملاحظات حول تاريخ الهند". Honolulu: University Press of the Pacific, 2001.

[333]انظر - 'Michael Krätke, 'Marx und die Weltgeschichte Beiträge zur Marx-Engels-Forschung. Neue Folge, vol. 2014, الذي يزعم إن ماركس فهم هذه العملية بوصفها: "تطور كلى في التجارة والزراعة، والصناعات التعدينية، والبنية التحتية والنظام الضريبي" جمع ماركس هذه الملاحظات اعتقادا منه أنه هكذا كان "يقدم أساس اجتماعي علمي صلب للحركة الاشتراكية، وليس مجرد خلق فلسفة سياسية" ص 143.

وبعيدًا عن المصادر الثانوية غير المذكورة في الملاحظات، اعتمد ماركس على نصين رئيسيين لدراسته التاريخية الجديدة. الأول هو "التاريخ الشعبي لإيطاليا" (1825)، للمؤرخ الإيطالي كارلو بوتا Carlo Botta(1766–1837)، الذي نُشر أصلًا في ثلاثة مجلدات بالفرنسية حيث اضطر مؤلف الكتاب إلى الفرار من تورين في عام 1814 هربًا من الاضطهاد على أيدي حكومة سافويارد (ولم يرجع إلى بيدمونت إلا بعد هزيمة نابليون بونابرت). والثاني كتاب حاز رواجًا ضخمًا وهو (التاريخ العالمي للشعب الألماني)، فريدريش شلوسر Friedrich Schlosser (1776–1861). ملأ ماركس أربعة دفاتر حول هذين العملين، بالألمانية والإنجليزية والفرنسية. تضمنت بعض التعليقات النقدية القصيرة.[334]

في الدفتر الأول، كتب في تسلسل زمني منتظم، ما مجموعه 143 صفحة، مسجلًا بعض الأحداث الرئيسية التي وقعت بين العام 91 قبل الميلاد و1370 ميلادية. ابتداءً من روما القديمة، إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية، والأهمية التاريخية للملك شارلمان Charlemagne (742–814)، ودور بيزنطة، والجمهوريات البحرية الإيطالية، وتطور الإقطاع، والحروب الصليبية، وبغداد وخلفاء الموصل. وفي الدفتر الثاني، كتب 145 صفحة تتضمن ملاحظات، تغطى الفترة من 1308 إلى 1469، والموضوعات الرئيسية فيها هي التقدم الاقتصادي في إيطاليا[335] والوضع السياسي والاقتصادي في ألمانيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. بينما يتناول الدفتر الثالث، في صفحاته البالغة 141 صفحة، الفترة من 1470 إلى 1580، مسجلًا الصدام بين فرنسا وأسبانيا، وجمهورية فلورنسا في عصر جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarola(1452–1498)، والإصلاح البروتستانتي لمارتن لوثر

[334] لا توجد إشارة إلى هذه الدراسات في مراسلات ماركس، ولذلك من الصعب تحديدها زمنيا بدقة، وذلك لما أكده محرر أعمال ماركس وإنجلز في المجلد 19، وقد حدد مؤقتا تاريخها في الفترة بين "أواخر 1881 وأواخر 1882"، ص. 621-2، بينما يؤكد ماكسيميليان روبي Maximilien Rubel، في كتابه "ماركس: حياة وأعمال. لندن": Macmillan، 1980، ص. 121، على أنها "بلا شك" تعود إلى أواخر 1881. الفرضية الأولى عامة جدا، ولكن الثانية لا تبدو دقيقة تماما، بما أن ماركس، بعد أن نفذ الجزء الأكبر من العمل في عام 1881، فالأرجح أنه استمر في محاولة تأكيد بعض النقاط في عام 1882. يمكننا أن نفترض هذا من وجود أساليب تسطير متباينة في المخطوطات، وكذلك من رسالة ماركس في 23 ديسمبر 1882 إلى ابنته إليانور (انظر الملاحظة 1 من الخاتمة). لذا يمكن القول إن هذه الدفاتر (IISH Marx-Engels Papers B 157، B 158، B 159، B 160) تنتمي لفترتي ماركس الوحيدتين في النشاط الفكري خلال الثمانية عشر شهراً الأخيرة من حياته أثناء انتقاله بين لندن وجزيرة وايت: من خريف 1881 إلى 9 فبراير 1882، ومن أوائل أكتوبر 1882 إلى 12 يناير 1883. الثابت لدينا هو أنه لم يقم بعمل تسلسل زمني أو تأريخ خلال ثمانية أشهر متفرقة من عام 1882 التي قضاها في فرنسا والجزائر وسويسرا.

[335] يؤكد Krätke في كتابه "Marx und die Weltgeschichte" مرجع سابق. الذي يقدم فيه إعادة بناء رائعة لهذه الدفاتر الأربعة، أن الموقع التاريخي الذي يعمل عليه ماركس هنا "بدايات الرأسمالية الحديثة (...) في التطور الاقتصادي لدولة المدينة الإيطالية، في نهاية القرن الثالث عشر"، ص. 163.

(1483–1546). وأخيرًا، دفتر الملاحظات الرابع، الذي يتضمن 117 صفحة، يغطي الصراعات الدينية العديدة في أوروبا بين عامي 1577 و1648.[336]

وبجانب الدفاتر الأربعة للمقتطفات من بوتا Botta وشلوسير Schlosser، أعد ماركس أيضًا دفترًا له نفس الخصائص التي يعتقد أنها متعاصرة مع الدفاتر الآخرى، ومتصلًا بنفس موضوع البحث. ملاحظات حول كتاب "تاريخ جمهورية فلورنسا" (1875) تأيف جينو كابوني Gino Capponi (1792–1876) ويغطي الفترة من 1135 إلى 1433، بينما استندت إلى مختارات جديدة عن الفترة من 449 إلى 1485 من كتاب "تاريخ الشعب الإنجليزي" (1877) بقلم جون غرين John Green (1837–1883). ولم تسمح له حالته الصحية المتقلبة بالذهاب إلى أبعد من ذلك؛ وتتوقف ملاحظاته في التسلسل الزمني عند "السلام في وستفاليا"، الذي وضع حدًا لحرب الثلاثون عامًا في 1648.

عندما تحسنت حالة ماركس الصحية، كان يجب عليه أن يفعل كل ما في وسعه لتفادى "خطر الانتكاس".[337] في 29 ديسمبر 1881، سافر برفقة إليانور إلى فينتنور على جزيرة وايت، وكان قد زارها عدة مرات من قبل، ونصحوه الآن بالعودة إليها، على أمل أن يساعد "المناخ الدافئ والهواء الجاف هناك في تسريع شفاءه."[338] وكتب إلى جيني قبل سفره: "يا طفلتي العزيزة، أفضل خدمة يمكنك القيام بها هي الحفاظ على رأسك مرفوعًا! آمل أن أقضي المزيد من الأيام السعيدة معك وان أكون جديرًا تمامًا بوظيفتي كجد"[339]

أمضى أول أسبوعين من يناير 1882 في فينتنور. ولكي يستطيع التجول دون التعرض لمتاعب كبيرة نتيجة للمشي، وحتى يكون "أقل اعتمادًا على نزوات الطقس"، كان عليه أن يرتدي قناع التنفس "في حالة الضرورة"، والذي يشبه "الكمامة" إلى حد كبير.[340] حتى في هذه الظروف الصعبة، لم يفقد ماركس لمسته

---

[336] تحمل أغلفة هذه الدفاتر الأربعة العناوين التي وضعها إنجلز لهم أثناء تفحصه لتراث صديقه: "ترتيب زمني للمقتطفات: I: 96 to c. 1320; II: c. 1300 to c. 1470; III: c. 1470 to c. 1580; IV: c. 1580 to c. 1648.' في الواقع تختلف محتوياتهم قليلا مع التأريخ الذي اقترحه إنجلز. الجزء الوحيد الذي نشر من تلك المخطوطات عبارة عن جزء طويل من الدفتر الرابع، انظر – كارل ماركس وفريدريك إنجلز - Über Deutschland und die deutsche Arbeiterbewegung. Berlin: Dietz, 1953, pp. 285-516.

[337] كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز, 8 January 1882, الأعمال المجمعة، جزء 46، ص 174.

[338] ص 167. الأعمال المجمعة، جزء 46، to Ferdinand Nieuwenhuis, 29 December 1881 فريدريك إنجلز

[339] ص 131. الأعمال المجمعة، جزء 46، 17 December 1881, كارل ماركس إلى جيني لونجيت

[340] ص 171. الأعمال المجمعة، جزء 46، 5 January 1882, كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

الساخرة، وكتب إلى لورا أن "العنف العدائي الذي أعلنت به الصحف البرجوازية في ألمانيا إما وفاته، أو أنه على وشكها"، "جعله يغرق في الضحك".[341]

الأيام التي قضاها ماركس مع إليانور لم تكن سهلة على الإطلاق. فقد هبط وزنها بسبب معاناتها من مشاكل وجودية، وكانت ما تزال غير مستقرة إلى درجة كبيرة، غير قادرة على النوم ويراودها الخوف من أن تسوء حالتها النفسية أكثر من ذلك. ومع كل المشاعر العميقة المتبادلة بينهما، كان من الصعب عليهما التواصل: فقد كان هو "غاضبًا وقلقًا" ورأى أنها "مرهقة وساخطة".[342]

ومع كل ذلك، كان ماركس مستعدًا لمتابعة الأحداث السياسية الرئيسية وقتها. فحين كان المستشار الألماني، يخطب في البرلمان، لم يكن باستطاعته تجاهل شعور عدم الثقة الهائل في سياسة الحكومة بين العمال الألمان، [343] وكتب إلى إنجلز: "أعتبره انتصارًا كبيرًا، ليس فقط في حدود ألمانيا نفسها ولكن في مواجهة العالم الخارجي بشكل عام، يجب أن يعترف بسمارك في الرايخستاج بأن العمال الألمان قادرين إلى حد ما على استخدام أصبع "الإبهام" في الإشارة إلى رغبتهم في سقوط اشتراكية دولته".[344]

وكان الالتهاب مزمنًا ولا يفارقه، ومع ذلك، وبعد عودته إلى لندن، تشاور أفراد العائلة مطولًا مع الدكتور دونكين حول المكان الذي يمكن أن يوفر أفضل الظروف المناخية لتحسن حالته. وكانت الراحة في مكان دافئ ما يحتاج إليه ليتم له الشفاء التام؛ فجزيرة وايت لم تحقق الهدف. وتم استبعاد جبل طارق لأن ماركس كان سيحتاج إلى جواز سفر لدخول الإقليم، ولم يكن لديه هذا الجواز، أو بإمكانه الحصول عليه، باعتباره شخصًا لا يحمل جنسية دولة. كانت إمبراطورية بسمارك مغطاة بالثلوج، وهو في كل الأحوال

---

[341] كارل ماركس إلى جيني لونجيت ,4 January 1882 ,الأعمال المجمعة، جزء 46، ص .170

[342] إليانور إلى أختها جيني، 8 يناير 1882، Meier، Olga (المحرر.) (1982) ، بنات كارل ماركس: مراسلات العائلة 1866-1898. New York: Harcourt Brace Jovanovich (1982) ص 145-6. لمعرفة شاملة بهذا الموضوع انظر: Kapp. إليانور ماركس، حياة أسرة 1883-1855. سبق الإشارة إليه، صفحات. 8-225. في 4 يناير كتب ماركس إلى لورا" مرافقتي لا تأكل شيئا على الإطلاق وتعاني بشدة من نوبات عصبية، تمضي اليوم كله في القراءة والكتابة (...)، ويبدو أنها تحتمل البقاء معي فقط بدافع الإحساس بالواجب، كنوع من التضحية بالنفس على مذبح الواجب." ماركس إلى لورا، 4 يناير ،1882، مرجع سابق ص 169

[343] See the stenograPhic reports of Reichstag debates, StenograPhische Berichte über die Verhandlungen des Reichstags, I, Berlin 1882, ص486. Bismarck's speech followed his electoral defeat in the great industrial centres of Germany.

[344] كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز , ,15 January 1882 الأعمال المجمعة ,46 ص .109

ممنوعًا من دخولها، في حين كانت إيطاليا غير واردة، فكما قال إنجلز، "كان الشرط الأول المتعلق بقبول النازح ألا يكون وجوده مزعجًا للسلطات".[345]

وبدعم من الدكتور دونكين وبول لافارج، صهر ماركس، أقنع إنجلز صديقه المريض بالتوجه إلى الجزائر، التي كانت تتمتع في ذلك الوقت بسمعة طيبة بين الجمهور الإنجليزي القادر على تحمل تكاليف الهروب من قرص الشتاء.[346] وكما ذكرت إليانور فيما بعد، إن ما دفع ماركس إلى القيام بهذه الرحلة غير المعتادة كان هاجسه القديم: أن يكمل رأس المال.

وتستمر حالته العامة في التدهور. لو كان أنانيًا بعض الشيء، لسمح للأشياء أن تأخذ مجراها ببساطة. ولكن بالنسبة له كان هناك شيء واحد يعلو فوق كل شيء: تكريس وجوده للقضية. أراد أن يرى عمله العظيم يكتمل، وبالتالي وافق مرة أخرى على القيام برحلة لاستعادة صحته.[347]

غادر ماركس إلى البحر الأبيض المتوسط في 9 فبراير، وتوقف في طريقه بأرجينتويل، وهي ضاحية باريسية، حيث تعيش ابنته الكبرى جيني. وعندما لم تتحسن صحته، قرر بعد أسبوع واحد فقط أن يواصل طريقه دون مرافق إلى مرسيليا، بعد أن أقنع ابنته إليانور أن ذهابها معه ليس ضروريًا. قال لإنجلز: "ليس في العالم ما يبرر أن أجعل الفتاة تعتقد أنه سيتم التضحية بها على مذبح الأسرة لتكون "ممرضة" لرجل عجوز".[348]

وبعد اجتيازه فرنسا كاملة بالقطار، وصل إلى الميناء البروفنسي الهائل في 17 فبراير. واشترى على الفور تذكرة لأول سفينة متجهة إلى أفريقيا،[349] وفي اليوم التالي، في ظهيرة شتوية عاصفة، كان في الميناء يصطف للصعود إلى ظهر السفينة مع الركاب الآخرين. كان معه عدة حقائب مكتظة بالملابس

---

[345]فريدريك إنجلز إلى إدوارد برنشتاين ,25 January 1882 ,الأعمال المجمعة 46 مجلد. 186-7. In his view, 'Italy (could) hold out fewer guarantees than anywhere else – save, of course, Bismarck's empire'. See also كارل ماركس إلى ,Pyotr Lavrov, 25 January 1882الأعمال المجمعة ,46 ص.184

[346]See Gilbert Badia, ' ماركس en Algérie', in كارل ماركس , Lettres d'Alger et de la Côte d'Azur. Paris : Le Temps des Cerises, 1997, ص17.

[347]إليانور ماركس، in Enzensberger (المحرر.)، GesPräche mit ماركس وإنجلز، جزء 2, .سبق ذكره. صفحات.8-577 .

[348]ماركس إلى إنجلز، 12 يناير 1882. الأعمال المجمعة، جزء 46 ص 176. حول إليانور وعلاقتها الخاصة بوالدها. انظر - Kapp, إليانور ماركس: الحياة الأسرية ,1855-1883سبق ذكره .Also, Chushichi Tsuzuki, إليانور ماركس :1855-1898 , A Socialist Tragedy. Oxford: Clarendon Press, 1967; Eva Weissweiler, Tussy Marx: Das Drama der Vatertochter. Köln: Kiepenheuer & Witsch, 2002; and most recently Rachel Holmes, إليانور ماركس : A Life. London: Bloomsbury, 2014.

[349]كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز، ١٧ فبراير ١٨٨٢: "لا توجد مشاكل تتعلق بجوازات السفر أو ما شابه. لا يتم إدخال أي شيء على تذاكر الركاب سوي الدين المسيحي ولقب العائلة، الأعمال المجمعة، المجلد. 46، ص. 200

الثقيلة والأدوية وبعض الكتب. وفي الخامسة بعد الظهر انطلقت السفينة مبحرة إلى الجزائر، وهناك مكث ماركس لمدة 72 يومًا، وكانت تلك الأيام هي الوقت الوحيد في حياته الذي قضاه خارج أوروبا.[350]

[350]لم تحظ الرحلة إلى العاصمة الجزائرية باهتمام كبير من كتاب سيرة ماركس. حتى جاك اتالي Jacques Attali، المولود في الجزائر، لم يخصص لها سوى نصف صفحة في كتابه كارل ماركس، أو "L'Esprit du monde". Paris: Librairie Arthème-Fayard، 2005، ص. 410؛ ويشير ماركس إلى أنه كان لم يكن يعلم بانتفاضة وهران بين صيف 1881 وربيع 1883. Marlene Vesper's ماركس في الجزائر ماركس في الجزائر. Bonn: Pahl-Rugenstein Nachfolger, 1995، تابع بدقة كبيرة جميع الأحداث التي شهدها ماركس فور زيارته إلى الجزائر. انظر أيضا - René Gallissot(المحرر.)، Marxisme et Algérie. Paris: Union générale d'éditions, 1976; and the recent volume by Hans Jürgen Krysmanski, die letzte Reise des Karl Marx, Frankfurt am Main: Westend, 2014 "الرحلة الأخيرة لكارل ماركس "والذي كان مستهدفا في الأصل أن يكون سيناريو فيلم عن إقامة ماركس في الجزائر ، لكنه لم ينتج بسبب عدم وجود تمويل.

الفصل الرابع

رحلة مور[351] الأخيرة

1. الجزائر وانطباعات حول العالم العربي

بعد عبور عاصف دام 34 ساعة، وصل ماركس إلى وجهته في 20 فبراير. وفي اليوم التالي، بعث برسالة إلى إنجلز. وبعدها بأسبوع، ذكر أن "جسده تجمد حتى النخاع". تمكن ماركس من استئجار غرفة في موقع مثالي بفندق "فيكتوريا"، في منطقة "مصطفى العليا"، مع إطلالة على الميناء من جهة، وجبال القبائل في الأفق من جهة أخرى. كان المشهد بمثابة "بانوراما سحرية"، مما دفعه إلى تقدير ذلك "المزيج الرائع من أوروبا وإفريقيا".[352]

وكان الشخص الوحيد الذي يعرف هوية هذا الرجل المحترم، الذي وفد حديثًا، ويتحدث لغات عديدة، هو ألبرت فيرمي، وهو قاضي صلح من أتباع تشارلز فورييه، وقد نزل مدينة الجزائر عام 1870 بعد قضاء فترة سجن بسبب معارضته للإمبراطورية الثانية. وكان فيرميه هو المرافق الوحيد لماركس في المدينة، وعمل كمرشد له في العديد من الرحلات، وحاول أن يشبع فضوله لمعرفة العالم الجديد.

لكن صحة ماركس لم تتحسن مع مرور الوقت، فقد ظل يعاني من التهاب الشعب الهوائية، والسعال المستمر الذي يبقيه مستيقظًا طوال الليل. ونتيجة للطقس البارد والرطب والممطر على غير العادة –حيث كان ذلك أسوأ شتاء شهدته مدينة الجزائر منذ عشر سنوات– هاجمه مرض التهاب الغشاء المحيط بالرئة. وكتب يقول لإنجلز: "الفرق الوحيد بين ثيابي في جزيرة وايت وملابسي في مدينة الجزائر هو أنى استبدلت معطفي الخفيف هناك بمعطف سميك هنا". حتى أنه درس فكرة الانتقال مسافة 400 كيلومتر إلى الجنوب، حيث قرية بسكرة ذات المناخ الدافئ، الواقعة على أطراف الصحراء. لكن حالته الجسدية

---

[351] "مور" هي كُنية لماركس كان يناديه بها المقربون.

[352] كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز , 1 March 1882, صفحات 4-213. الأعمال المجمعة، جزء 46.

السيئة منعته من القيام بتلك الرحلة المجهدة. ولذلك، فقد انكب على تناول علاج معقد لفترة طويلة في مدينة الجزائر.

كتب له الدكتور تشارلز ستيفان (1840–1906)، وهو الأفضل في تلك المدينة، زرنيخ الصوديوم خلال النهار، وشراب مركب من الأفيون والكودايين لمساعدته في النوم ليلًا. كما أمره الطبيب بتقليل المجهود البدني إلى الحد الأدنى، والامتناع عن "الجهد الذهني باستثناء بعض القراءات من أجل التسلية". وبالرغم من ذلك، أصبح السعال أكثر عنفًا في 6 مارس، وأحدث نزفًا متكررًا. لذلك تم منع ماركس من مغادرة الفندق، أو حتى الانخراط في أي نقاشات. كانت "الراحة والوحدة والصمت" الآن "واجبات عليه تنفيذها كمواطن."[353] وكتب إلى إنجلز يقول إنه على الأقل "دكتور ستيفان لا ينسى الكونياك مثل عزيزي دكتور دونكن (في لندن)".[354]

وكان العلاج الأشد إيلامًا هو برنامج علاج يتألف من عشر مواد كيميائية تسبب التقرح، وهو كان علاجًا شائعًا في ذلك الوقت، ويقوم باستخدام محفزات تسبب قرحًا في الجلد من أجل إخراج السموم من الجسم. واستطاع ماركس إتمام العلاج بمساعدة صيدلي شاب. ونجح السيد كاستيلاز في طرد السوائل الزائدة من الرئة شيئًا فشيئا، عن طريق تكرار صبغ الصدر والظهر بالكولوديون وفتح القروح الناتجة عن ذلك.

لم يكن أمرًا مفاجئًا، أن بدأ ماركس يشعر بالندم كونه اختار هذا الموقع، حيث كتب إلى لافارج يقول إنه "من اللحظة التي رحلت فيها إلى مرسيليا، كان المناخ أفضل ما يمكن في نيس ومنتون"، وهما وجهتان أخرتان كان قد فكر في الذهاب إليهما.[355] وفي النصف الثاني من مارس، سر إلى ابنته جيني قائلاً: "في هذه الرحلة الحمقاء غير المحسوبة جيدًا، هبطت الآن مرة أخرى إلى المستوى الصحي الذي كنت عليه عندما غادرت لندن". كما أخبرها بأنه كانت لديه شكوك بشأن أثر السفر لمسافة طويلة، لكن إنجلز ودونكين أطلق كل منهما الأخر بصورة متبادلة وفي حماس شديد لإرسالي إلى إفريقيا، دون أن يحصل

[353] 219. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 16 March 1882, ,كارل ماركس إلى جيني لونجيت
[354] .215 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 1 March 1882, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز
[355] ماركس إلى لافارج، 22 مارس 1882. الأعمال المجمعة، مجلد 46، ص 221. أضاف" ولكن هناك تلك الفكرة الملحة ــ التي لم أكن مسؤولاً عنها ــ حوا شمس أفريقيا وهوائها الجميل!"

أي منهما على أي معلومات خاصة عن الطقس هناك هذا العام".[356] وفي رأيه، "هذا الأمر يجب أن يُخبَر به المرء قبل القيام بهذا المسعى الأحمق".[357]

في 20 مارس، كتب ماركس إلى لافارج أن العلاج توقف في الوقت الحاضر، لأنه "لم يعد هناك موضع واحد جاف سواء على ظهري أو على صدري". وذكّره منظر جسده بـ"حديقة مطبخ صغيرة مزروعة بالبطيخ". ومع ذلك، فإن ما أراحه كثيرًا أن قدرته على النوم كانت "تعود إلى طبيعتها بشكل تدريجي". وكتب قائلاً: "إن الشخص الذي لم يعان من الأرق لا يمكنه أن يقدر هذه الحالة السعيدة عندما يبدأ كابوس الأرق وعدم النوم في الانصراف".[358]

من ناحية أخرى، كان تنفس ماركس قد أصبح أكثر صعوبة نتيجة للرشح الليلي للبثور، والحاجة إلى إبقاء الضمادات مربوطة بقوة، والحظر الصارم للحك. وبعد أن عرف أن الطقس في فرنسا صار "رائعًا" منذ رحيله عن لندن، وفي ظل تذكره للتوقعات الأولية بشفاء سريع، كتب إلى إنجلز يقول إن "المرء لا ينبغي أبدًا أن يخدع نفسه من خلال التقديرات المتفائلة!"[359] من الواضح أن "هناك طريقًا يمكن الذهاب إليه ويتحقق فيه هدف العقل السليم في الجسم السليم".[360]

لم تكن معاناة ماركس جسدية فقط. فقد انتابه شعور بالوحدة وكتب في 16 مارس إلى ابنته جيني يقول: "لا يوجد ما هو أكثر سحرًا من مدينة الجزائر، إلا الريف الواقع خارج هذه المدينة... سيكون ذلك أشبه بألف ليلة وليلة العربية، لو كانت لديّ صحة جيدة، وكان كل أحبائي معي، (وخصوصًا الأحفاد الذين لا يمكن نسيانهم)".[361] وفي 27 مارس، أضاف أنه يود لو يقدر "استعمال السحر لإحضار حفيده الأكبر جوني، لديه لكي يتعجب برؤيته المغاربة، والبربر، والأتراك، والزنوج، باختصار هذه الأصوات والأزياء

---

[356] .218 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 16 March 1882, ,كارل ماركس إلى جيني لونجيت

[357]ماركس إلى جيني لونجيت، 27 مارس 1882. الأعمال المجمعة، مجلد 46 ص 224. أضاف: "هذا بيننا: رغم أن الطقس لم يكن ملائما في جزيرة وايت، لكن صحتي تحسنت فعلاً اللي حد أن الناس تعجبوا... على العكس من ذلك، في لندن، كان إنجلز منفعلاً... لقد أزعجني ذلك بالفعل: شعرت انى لا أستطيع التحمل أكثر من هذا؛ لقد نفد صبري فعلاً ولا ارغب في استقبال أى شيء من لندن مهما كان الحال. بعض أنواع الحب الشديد تقتل فعلا، ولا شيء أكثر خطورة على فترة النقاهة من هذا."

[358] .221-2 .الأعمال المجمعة، جزء 46، صفحات 20 March 1882, ,كارل ماركس إلى بول لافارج

[359] .215 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 1 March 1882, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[360].226 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 28-31 March 1882, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[361].219 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 16 March 1882, ,كارل ماركس إلى جيني لونجيت

المتباينة و(معظمها حالمة) في هذا العالم الشرقي، مختلطة مع الفرنسيين "المتحضرين" إلى آخره، والبريطانيين المملين".[362]

وكتب إلى إنجلز، الرفيق الذي اعتاد مشاركته في كل الأمور، عن أنه انتابته "نوبة عرضية من الحزن العميق، مثل دون كيشوت العظيم". كانت أفكاره كثيرًا ما تعيده إلى تذكُّر أنه فقد رفيقة عمره. وكتب يقول لإنجلز: "أنت تعلم أن قلة من الناس يكرهون إظهار مشاعرهم الحزينة. ومع ذلك، سيكون كذبًا (ألّا) اعترف بأن تفكيري مستغرق في جانبه الأكبر في استعادة ذكرى زوجتي، هذا الجزء الذي كان من أفضل أجزاء حياتي!"[363] وكان مشهد الطبيعة المحيطة به أحد الأشياء التي تشتت ذهنه عن حزن الفراق. في مستهل أبريل، كتب أنه كان هناك "ضوء القمر الرائع على الخليج"، وأنه "لا يستطيع أبدًا أن يوقف عينيه عن النظر إلى البحر أمام شرفته". [364]

كما عانى ماركس من الغياب القسري للنشاط الفكري الجاد. فمنذ بداية الرحلة، كان يعرف أنها ستكون "عملية إهدار للوقت"، لكنه وافق على القيام بها في نهاية المطاف، عندما أدرك أن "المرض الملعون" أيضًا "يضعف القوي الذهنية".[365]

وأخبر جيني أن "القيام بأي عمل" كان أمًا "غير وارد" في الجزائر –بما في ذلك "تصحيح رأس المال (الطبعة الألمانية الثالثة)".[366] أما فيما يخص الوضع السياسي الراهن، فقد اقتصر على قراءة التقارير القصيرة في نشرة محلية صغيرة اسمها، Le Petit Colon (المستوطن الصغير)، وكانت النشرة العمالية الوحيدة التي تلقاها من أوروبا هي L'Égalité (المساواة)، التي أشار إليها ساخرًا بأنه "لا يمكنك أن تُسميها صحيفة".[367]

تُظهر رسائل ماركس في ربيع 1882 أنه كان "يتوق إلى العودة إلى نشاطه مجددًا وأن يتخلص من هذه الحالة العليلة الغبية".[368] وكتب قائلاً إن هذا "وجود غير مجد، ناهيك عن كونه مكلف".[369] بل إنه حتى

---

[362] ص 225. الأعمال المجمعة، جزء 46، 27 March 1882 , كارل ماركس إلى جيني لونجيت
[363] ص 213 and 215. الأعمال المجمعة، جزء 46، صفحات 1 March 1882 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز
[364] ص 229. الأعمال المجمعة، جزء 46، 4 April 1882 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز
[365] ص 184. الأعمال المجمعة، جزء 46، 25 January 1882 , كارل ماركس إلى بيوتر لافروف Pyotr Lavrov .
[366] كارل ماركس إلى جيني لونجيت ,27 مارس 1882، الأعمال المجمعة، جزء 46، ص.225، طلب الناشر أوتو ميسنر، في أكتوبر 1881، من ماركس إجراء أي تصحيحات أو إضافات لازمة للجزء الأول من "أعظم إبداعاته"، استعدادا لإصدار جديد.
[367] ص 221. الأعمال المجمعة، جزء 46، March 20, 1882 كارل ماركس إلى بول لافارج،
[368] ص 230. الأعمال المجمعة، جزء 46، 6 April 1882 ,كارل ماركس إلى جيني لونجيت
[369] ص 210. الأعمال المجمعة، جزء 46، 20 May 1882 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

قال للافارج إنه كان مشغولاً بواقع أنه لا يفعل شيئًا حتى أنه شعر بأنه يقترب من الجنون.[370] وكان ذلك يعني أنه يشعر بالخوف لأنه لم يعد قادرًا على استرجاع وجوده المعتاد من حيث تركه.

لم يُتح تتابع الأحداث المؤسفة لماركس الوصول إلى عمق الواقع الجزائري، ولا –كما توقع إنجلز– كان في إمكانه حقًا أن يدرس خصائص "الملكية المشتركة لدى العرب".[371] في عام 1879، كان قد بدأ الاهتمام بمسألة الأرض في الجزائر الواقعة تحت الحكم الفرنسي، في سياق دراسته للإثنولوجيا والملكية الخاصة ومجتمعات ما قبل الرأسمالية. ثم قام ماركس بنسخ بعض المقتطفات من –الملكية المشتركة للأرض: الأسباب والمسار والنتائج– (Communal Landownership: Causes, Course and Consequences)، للمؤرخ الروسي مكسيم كوفاليفسكي، في دفتر ملاحظاته. وقد تناول هذا الكتاب موضوع الملكية المشتركة قبل وصول المستوطنين الفرنسيين والتغييرات التي أدخلوها. وكتب ماركس يقول:

إن خلق ملكية خاصة للأرض (في نظر البورجوازية الفرنسية) هو شرط ضروري لكل تقدم في المجال السياسي والاجتماعي. إن استمرار وجود الملكية الجماعية "كشكل يدعم الميول الشيوعية في أذهان الجمهور" (مناظرات الجمعية الوطنية، 1873)، هو أمر خطير لكل من المستعمرة والوطن: يجب تشجيع، أو حتى فرض عن طريق مرسوم، توزيع الملكيات المشتركة للعشائر، أولًا كوسيلة لإضعاف القبائل المقهورة التي دائمًا يكون لديها نزوع للتمرد، وثانيًا، باعتبارها الطريق الوحيد نحو نقل ملكية الأراضي من أيدي المواطنين إلى أيدي المستعمرين. وقد تم اتباع السياسة نفسها من قِبل الفرنسيين في ظل جميع الأنظمة.[372]

---

[370] انظر - بول لافارج إلى فريدريك إنجلز 19 June 1882, in فريدريك إنجلز، Paul and Laura Lafargue, المراسلات، جزء 1 (1868-1886). Moscow: دار نشر اللغات الأجنبية, 1959, ص 87.

[371] راجع – إنجلز إلى إدوارد برنشتاين، 22 فبراير 1882، الأعمال المجمعة، مجلد 46 صفحات 11-210. كان لافارج مبالغا فعلاً حين قال إن "ماركس عاد ورأسه ممتلئة بأفريقيا والعرب، لقد استفاد من البقاء في الجزائر بالتهام مكتبتها، يبدو بالنسبة لي أنه قرأ كمية ضخمة من المؤلفات حول أوضاع العرب" لافارج إلى إنجلز، 16 يونيو 1882، المراسلات، مرجع سابق، ص 83. وكما أشار باديا على الأغلب أن ماركس لم يكن قادرا على "تعلم الكثير عن الوضع الاجتماعي والسياسي في المستعمرة الفرنسية"؛ رغم أن خطاباته تؤكد أنه كان شغوفًا جدًا بمعرفتها. Gilbert Badia, 'Marx en Algérie', Karl Marx, Lettres d'Alger et de la Côte d'Azur. Paris: Le Temps des Cerises, 1997, p. 13.

[372] كارل ماركس، مقتطفات من M. M. Kovalevskij (Kovalevsky). Obschinnoe Zemlevladenie، Prichiny i posledstviya ego razlozheniya (Communal landhipership. الأسباب والمسار والنتائج)، Lawrence Krader نمط الإنتاج الأسيوي. تطور المصادر والنقد في كتابات كارل ماركس. أسن: Assen: Van Gorcum,، 1975، ص. 405- أضاف ماركس الكلمات الواردة بين قوسين، أثناء الاقتباس من the Annales de l'assemblée nationale du 1873, vol. XVII, Paris 1873، متضمنة في the Kovalevsky volume. وضعت

كان مشروع القانون الخاص بالوضع في الجزائر، الذي قدمه النائب عن الجمهوريين اليساريين أوجست وارنييه (1810–1875)، وحصل على موافقة برلمانية في 1873، يهدف إلى "قيام المستعمرين الأوروبيين والمضاربين بمصادرة أراضي السكان الأصليين". وكان الفرنسيون على درجة من الوقاحة بحيث لجأوا إلى "السطو المباشر"، حيث جري تحويل جميع الأراضي غير المزروعة التي كانت معدة للاستخدام المشترك من جانب الجماعات المحلية إلى "ملك للحكومة". وحقق ذلك نتيجة مهمة أخرى، هي التخلص من خطر مقاومة السكان المحليين. واستنادًا إلى كوفاليفسكي، كتب ماركس في كراسته يقول:

سوف يصبح تأسيس الملكية الخاصة وتوطين المستعمرين الأوروبيين بين العشائر العربية... أقوى وسيلة لتسريع عملية تفكيك وحدة العشيرة... إن تجريد العرب من أراضيهم الذي يهدف إليه ذلك القانون يساعد على: 1) تزويد الفرنسيين بأكبر قدر ممكن من الأراضي؛ 2) عن طريق خلع العرب من ارتباطاتهم الطبيعية بالأرض، لتحطيم آخر قوة للوحدة العشائرية ومن ثم حلها، يتم القضاء على أي خطر للتمرد.[373]

وسوف يجلب هذا النوع من "إضفاء الطابع الفردي على ملكية الأرض" منافع ضخمة للغزاة، كما أنه سوف يفيد في تحقيق "الهدف السياسي" وهو "تحطيم أسس هذا المجتمع". [374]

في 22 فبراير 1882، وثقت مقالة في جريدة الأخبار اليومية الجزائرية المظالم الناتجة عن النظام الجديد. ومن الناحية النظرية، كان يمكن لأي مواطن فرنسي أن يطلب حق الحصول على أكثر من 100 هكتار من الأراضي الجزائرية، دون حتى أن يترك بلده. ويمكنه بعد ذلك أن يبيعها إلى مواطن جزائري مقابل 40 ألف فرنك فرنسي. وفي المتوسط، باع المستعمرون كل قطعة أرض اشتروها مقابل 20 إلى 30 فرنك بـ 300 فرنك.[375]

ولم يتمكن ماركس من العودة إلى هذه الموضوعات بسبب تدهور حالته الصحية، ولم يلفت انتباهه مقال الأخبار. لكن رغبته الدائمة في المعرفة لم تختف حتى في أسوأ الظروف. وبعد استكشاف المنطقة

هذه المقتطفات في 1979 انظر كيفن أندرسون، *Marx at the Margins* - ماركس في الهوامش. Chicago: The University of Chicago Press: 2010، صفحات 20.-219.

[373] 411, 408 and 412. صفحات .سبق ذكره ,M. M. Kovalevskij مقتطفات من ماركس، 412.

[374] 412 ص ,.المرجع السابق

[375] انظر – مارلين فسبر، ,ماركس في الجزائر، Bonn: Pahl-Rugenstein، 1995، صفحات – 4 – 33. التي نسخت مقاطع من مقال "امتيازات يومية محليا" - .

المحيطة بفندقه، حيث كانت عملية الإعمار جارية على نطاق واسع، لاحظ أنه "على الرغم من أن العمال الذين يقومون بهذا النشاط هم أشخاص أصحاء وسكان محليون، فإنهم يعانون من الحمى بعد الأيام الثلاثة الأولى. وبالتالي، فقد كان جزء من أجورهم يتكون من جرعة يومية من مشروب الكينا المقوي يقدمها أصحاب العمل."[376]

وأشار ماركس إلى عدد من الملاحظات المثيرة للاهتمام في خطاباته الستة عشر المرسلة من الحافة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط.[377] وكان بعضها يعبّر جزئيًا عن رؤية استعمارية. وكانت الملاحظات التي أشار إليها في هذا الصدد تخص العلاقات الاجتماعية بين المسلمين.

وكان ماركس مندهشًا من قدرة العرب على التحمل. وكتب يقول: "حتى أشد المغاربة فقرًا يتفوق على أعظم كوميديان أوروبي في لف نفسه داخل قلنسوته والتصرف كرجل طبيعي ولطيف ومبجل".[378] ولاحظ أن الاجتماعية مختلطة فيما بينها. وكتب اللي ابنته لورا في منتصف أبريل يقول إن جماعة من العرب كانوا يلعبون الكوتشينة، "بعضهم يرتدى ملابس مبهرجة، تنم عن ثراء، وآخرون يرتدون ما يمكن أنه أجازف بتسميتها بلوزات، لكنها خرق وأسمال بالية تشبه الصوف الأبيض أحيانًا". وعلق قائلاً إنه فيما يخص "المسلم الحقيقي":

إن الأحداث، سواء كانت جيدة أو سيئة، لا تميز بين أبناء محمد. كما لم تتأثر المساواة المطلقة في تفاعلهم الاجتماعي. على العكس من ذلك، يصبحون مدركين لهذه التمايزات فقط عندما ترتبك معنوياتهم؛ فيما يخص كراهية المسيحيين، والأمل في الانتصار النهائي على هؤلاء الكفار، يراعي السياسيون لديهم شعور وممارسات المساواة المطلقة هذه، (ليست مساواة في الثروة أو المكانة، لكنها مساواة بين الأشخاص)، وهو ما يضمن الحفاظ على الثروة والمكانة بدون التخلي عن حيثية الفرد. ومع ذلك، فسوف يلحق بهم الدمار إذا لم توجد حركة ثورية.[379]

---

[376] ماركس إلى بول لافارج، 20 مارس 1882، سبق ذكره، ص 220. أضاف ماركس هذه الفقرة: "ويمكن ملاحظة وجود نفس الأداء في أماكن متعددة من أمريكا الجنوبية".

[377] ذلك يشير أجمالا إلى استمرار مراسلاته. عمليا كتب ماركس مزيدًا من الرسائل، بما في ذلك بعض الرسائل إلى ابنته إليانور، لكن هذه الرسائل ضاعت مع مرور الوقت: "لقد كتب لي رسائل طويلة من الجزائر. عديد منها لم تعد لدي، لأنني أرسلتها إلى جيني بناء على طلبها وأعادت لي منها عدد قليل فقط"، إليانور ماركس، Magnus Enzensberger (المحرر.)، Gespräche mit Marx وإنجلز، Frankfurt am Main: Insel ، ص 578 1973. مجلد 2.

[378] جيني لونجيت إلى كارل ماركس, 6 April 1882, الأعمال المجمعة، مجلد 46، صفحات 2 – 23.

[379] 242.ص. الأعمال المجمعة، جزء 46، 13-14 April 1882, , كارل ماركس إلى جيني لونجيت

اندهش ماركس أيضًا من الوجود المحدود للدولة:

لا يوجد في أي مدينة أخرى غير هذه، التي تُعد في الوقت نفسه مقر الحكومة المركزية، سياسة دعه يعمل دعه يمر السارية هنا. ويقل وجود الشرطة إلى الحد الأدنى، ويختفي الإحراج على الملأ بصورة لا نظير لها في أي مكان آخر. ذلك أن العنصر المغربي مسؤول عن ذلك. فبالنسبة للمسلم، لا يوجد ما يمكن تسميته بالخضوع. فهم ليسوا "تابعين" وليسوا إداريين"؛ لا توجد سلطة، إلا في السياسة، وهو أمر أخفق الأوربيين تمامًا في فهمه.[380]

وهاجم ماركس بازدراء الانتهاكات العنيفة من جانب الأوروبيين والإهانات الدائمة، وليس أقلها "غطرستهم السافرة والتطاول الفج على السلالات الأدنى". وهاجم أيضًا الهوس المروع الذي يصل إلى حد التقديس، بإجبار السكان على التكفير عن أي تمرد يقومون به. كما أكد أنه في التاريخ المقارن للاحتلال الاستعماري، "يتفوق البريطانيون والهولنديون على الفرنسيين". وأخبر إنجلز أنه في مدينة الجزائر نفسها، شاهد صديقه القاضي فيرمي على نحو منتظم أثناء قيامه بمهام وظيفته "شكلًا من أشكال التعذيب مارسته الشرطة... لانتزاع اعترافات من العرب (كما يفعل الإنجليز في الهند)". وقال إنه:

على سبيل المثال، عندما ترتكب عصابة عربية جريمة قتل، وعادة ما تكون بغرض السرقة، ثم يتم القبض على المجرمين الفعليين في وقت قصير، وتجري محاكمتهم وإعدامهم، فإن ذلك لا يعتبر جزاءً كافيًا من قبل عائلة الاستعماري المكلومة. بل إنهم يطالبون بالمساومة على "قتل" ما لا يقل عن ستة من العرب الأبرياء... وعندما يسكن مستعمر أوروبي بين "السلالات الأدنى"، إما كمستوطن أو لمجرد العمل، فإنه يعتبر نفسه بشكل عام أكثر حصانة من وليام الأول الوسيم.[381]

عاد ماركس إلى هذا الموضوع في سياق آخر، عندما أخبر إنجلز حول وحشية السلطات الفرنسية تجاه "شخص فقير، لص عربي، فقير، مهنته القيام بجرائم قتل". حيث إنه قبل إعدامه بفترة وجيزة، علم أنه "لن يعدم بالرصاص ولكن سيتم قطع رقبته بالمقصلة! هذا، في تحدٍ للقواعد المتبعة في السابق!" ولم يكن ذلك كل شيء:

---

[380] .238 ص ,.المرجع السابق

[381] .234 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,8 April 1882 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

كانت أسرة اللص تنتظر أن يتم تسليم رأسه وجسده لهم حتى يتمكنوا من خياطة الجزء الأول في الثاني ثم دفن "الكل". لكن طلبهم رُفض. كان هناك صراخ ولعنات وصرير أسنان. وأصرت السلطات الفرنسية على رفض طلبهم، وهي المرة الأولى التي فعل فيها الفرنسيون ذلك. الآن، عندما يصل الجسد إلى السماء، سيسألونه:

"أين تركت رأسك؟ أو كيف تم فصل رأسك عن جسدك؟ أنت غير صالح هكذا لدخول الجنة. اذهب وانضم إلى هؤلاء المسيحيين الكلاب في الجحيم". وهذا يفسر لماذا كان أقاربه مستاءين للغاية.[382]

إلى جانب هذه الملاحظات السياسية والاجتماعية، احتوت رسائل ماركس أيضًا موضوعات حول العادات العربية. في واحدة من هذه الرسائل، أخبر ابنته لورا بقصة أعجبت بشدة الجانب العملي لديه:

المراكبي جاهز وينتظر، بقاربه الصغير، على مياه النهر الهائج. ويصعد إلى القارب الفيلسوف، الذي يرغب في الوصول إلى الجانب الآخر . ويبدأ الحوار التالي بينهما:

الفيلسوف: أيها المراكبي، هل تعرف أي شيء من التاريخ؟

المراكبي: لا!

الفيلسوف: أنت إذًا أضعت نصف عمرك!

واصل أيضًا الفيلسوف: هل درست الرياضيات؟

المراكبي: لا!

الفيلسوف: أنت إذًا أضعت أكثر من نصف عمرك!

وما أن خرجت هذه الكلمات من فم الفيلسوف حتى قلبت الريح المركب، سقط كل من المراكبي والفيلسوف في الماء. عندئذٍ صاح المراكبي علي الفيلسوف: هل تعرف العوم؟

الفيلسوف: لا!

---

[382]كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز.,18 April 1882 . الأعمال المجمعة، جزء 46. صفحات 7 – 246. (يهاجم بعض الكتاب العرب ماركس لأن المحكوم عليه - وفقا لقولهم – لم يكن لصًا، ولكنه كان أحد قادة المقاومة الجزائرية وكنيته سيدي "بو عمامة "، وان ماركس هكذا كان استعماري الرؤية في نظرته إلى المقاومة الجزائرية والثقافة العربية الدينية، في التعليق على تلك النقطة، انظر مقدمة المترجم.

المراكبي: أنت إذًا أضعت عمرك كله.

وأضاف ماركس قائلًا إلى لورا "هذا سوف يحرك شهيتك للأشياء العربية".[383]

بعد أكثر من شهرين من المعاناة، تحسن وضع ماركس وتمكن أخيرًا من العودة إلى فرنسا. وفي البداية، على أي حال، كانت عنده مفاجأة ختامية لإنجلز، حيث قال له: "بسبب حرارة الشمس، اضطررت إلى التخلص من لحية النبي، التي كانت تاج فخري، لكنني (احترامًا لبناتي) صورت نفسي قبل أن أضحي بشعري على مذبح حلاق جزائري".[384] وهذه سوف تكون آخر صورة تُلتقط له. وتختلف هذه الصورة إلى حد بعيد عن شكل التماثيل الجرانيتية في ميادين "الاشتراكية الموجودة فعلًا"، والتي أمرت أنظمة الحكم القائمة أن تكون هذه التماثيل معبرة عنه. لم يفقد شاربه، كما لم تفقد أفكاره، لون الشباب، ولا يزال وجهه المبتسم، أمام جميع تجارب الحياة وخيبات الأمل، يبدو ودودًا ومتواضعًا.[385]

2. جمهوري في الإمارة

استمر الطقس السيئ في إزعاج ماركس. وخلال "أيامه الأخيرة في إفريقيا"،[386] تعرضت صحته إلى امتحان صعب بسبب هبوب الرياح الجبلية التي تأتي من الصحراء. وكان سفره إلى مرسيليا –التي هبط إليها في 5 مايو، في عيد ميلاده الرابع والستين– صعبًا بشدة على صحته. وكتب في وقت لاحق إلى إليانور قائلاً إن: "عاصفة عنيفة... حولت الكابينة إلى نفق رياح فعلي". وعند وصولهم لم تدخل السفينة البخارية إلى الميناء، لذا كان يجب إنزال الركاب بواسطة القوارب، فاضطروا إلى قضاء عدة ساعات في البرد داخل حجز جمركي معرض لتيارات الهواء، يشبه المكان الذي تتطهر فيه النفس من الذنوب قبل دخول الجنة، إلى أن حان الوقت ليغادروا إلى نيس. وقال ساخرًا إن "هذه المعاناة الشديدة جعلت جسده

---

[383].243ص. الأعمال المجمعة، جزء 46، 13-14 April 1882, ,كارل ماركس إلى لورا لافارج

[384].249ص الأعمال المجمعة، جزء 46،.1882 April 28 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[385]قال ماركس أنه على الرغم من أنه لم يكن لديه "يوم كامل للراحة "خلال الأسابيع الثمانية التي سبقت التصوير، إلا أنه "كان لا يزال يحاول التقليل من سوء حالته، وكان إنجلز مبتهجًا جدًا بما قاله صديقه. وكتب إلى بيبل يقول" لقد أخذ صورة في مدينة الجزائر... لقد عاد إلى طبيعته مرة أخرى،، "فريدريك إنجلز إلى أغسطس بيبل، 16 مايو 1882، في الأعمال المجمعة، المجلد. 46، ص. 259. Vesper، ماركس في الجزائر، صفحات 5- 130

[386].253 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 8 May 1882, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

في حالة سيئة، وألقت به في يد اسقولابيوس" (إله الطب عند الرومان–المترجم) بمجرد وصوله إلى مونت كارلو.[387]

كان الدكتور كونمان هو اسقولابيوس الذي وثق به، وهو طبيب ممتاز من الألزاس متخصص في أمراض الرئة.[388] وأظهر الكشف أن التهاب الشعب الهوائية أصبح مزمنًا، وأن "التهاب الغشاء المحيط بالرئة قد عاد مرة أخرى"، وهو ما سبب "الرعب" لماركس.[389] ذلك أن كل هذه التنقلات قد أسفرت عن حدوث مزيد من الضرر في صحته. واستخدم ماركس ثقافته الأدبية المعروفة في السخرية من ذلك مع إنجلز، فقال له: "يبدو أن "القدر" في هذه المناسبة قد لعب دور النذير بطريقة ثابتة –تقريبًا كما هو الحال في تراجيديا (أماندس) مولنر (1744–1829)– حيث يلعب "القدر" بالفعل دورًا مهمًا في الوجود البشري". وكان من الضروري أن يتلقى برنامج علاج يتألف من أربعة مواد كيميائية تسبب التقرح، وقام بذلك بالفعل في الفترة بين 9 و30 مايو.

وحيث إنه كان من الضروري أن تتحسن حالته قبل أن يواصل رحلته، فقد مكث ثلاثة أسابيع في إمارة موناكو. ويعبّر وصفه للأجواء هناك عن مزيج من الفطنة والنقد الاجتماعي: فقد قارن، على سبيل المثال، بين مونت كارلو وجيرولشتاين، وهي دولة صغيرة خيالية ألف عنها جاك أوفينباخ (1819–1880) أوبرا دوقة جرولشتاين العظيمة (1867).

ذهب ماركس عدة مرات إلى غرفة القراءة في الكازينو المشهور، والذي كان يقدم مجموعة جيدة من الصحف العالمية. لكنه أخبر إنجلز أن رفاقه في غرفة الطعام في فندق روسيا، والناس بوجه عام في هذه المدينة، كانوا "أكثر اهتمامًا بما يحدث في صالات القمار في الكازينو". وقد تناوبت رسائله من هذه الفترة بين الملاحظات المُبهجة حول الأشخاص الذين صادفهم على سبيل المثال، "ابن ألبيون (إشارة أدبية إلى الإنجليز الكلاسيكيين–المترجم) متجهم، سيئ المزاج ومُرتبك... لأنه فقد عددًا بعينه من العملات الذهبية، بينما كان مهتمًا بالقطع بالحصول على عدد مثيل من هذه العملات". والتعليقات اللاذعة مثل: "لا يستطيع أن يفهم أنه حتى الفظاظة البريطانية غير قادرة على "إرهاب" الحظ".[390]

---

[387] 267. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 28 May 1882 ,كارل ماركس إلى إليانور ماركس

[388] مشار إليه ماركس إلى إنجلز، 5 يونيو 1882، الأعمال المجمعة، مجلد 46، ص 272.

[389] ماركس إلى إنجلز، 20 مايو 1882، الأعمال المجمعة، مجلد 46، ص 262. لم يكتب ماركس إلى بناته حول هذا التطور، من منطلق" أن ذلك سوف يسبب لهم قلقًا دون ضرورة" مرجع سابق، ص 264.

[390] 254. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 8 May 1882 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

وأرسل إلى ابنته إليانور وصفًا أكثر وضوحًا عن هذا العالم الغريب، في رسالة كتبها قبل سفره بفترة قصيرة:

كان الموضوع الوحيد تقريبًا الذي يتحدث أو يتهامس الناس حوله على مائدة الطعام، وفي المقاهي... وما إلى ذلك، هو طاولات الروليت، حوالي 30 أو 40 طاولة. ويجري ربح شيء ما من حين وآخر، على سبيل المثال، ربحت سيدة روسية شابه (زوجة دبلوماسي/ جاسوس روسي) 100 فرنك... وهو في المقابل، خسر 6000 فرنك، في حين أن شخصًا آخر يلعب لا يستطيع الاحتفاظ بما فيه الكفاية من أجل رحلة العودة إلى منزله. ويقامر البعض الآخر بكل ما تملكه عائلته. ويأخذ عدد قليل جدًا حصة من الغنيمة –أعني عدد قليل من المقامرين– ويكون هؤلاء تقريبًا بلا استثناء من الأثرياء. ولا يتعلق الأمر هنا بالذكاء أو القدرة على الحساب؛ فلا يمكن لأحد أن يقوم بتقدير احتمال معين في اللعب إلا لو جازف باحتمال خسارة مبلغ معتبر.[391]

لم يقتصر هذا الهوس المنتشر على غرف الألعاب أو في ساعات المساء فحسب. بل كان يسود المدينة كلها، واليوم بأكمله بالنسبة لزوار المدينة. وعلى سبيل المثال، كان هناك كشك بجوار الكازينو.

ويتم تزيين هذا الكشك يوميًا بلافتة، ليست مطبوعة، ولكن كان يُكتب عليها بخط اليد ويوقع عليها من المتقدمين لدفع الريشة، مقابل 600 فرنك، أمام الريشة لونين أبيض وأسود، سر العلم الذي يجعلك تربح مليون فرنك بعد أن تضع 1000... ويقال إنه ليس من النادر أن يقع الناس فريسة لخدعة الثقة هذه. وفي الحقيقة، يعتقد معظم المقامرين، سواء نساء أو رجال، أن هناك أمرًا علميًا في ألعاب قائمة كليًا على الحظ. وتجلس السيدات والسادة خارج مقهى باريس، في الواجهة، أو على المقاعد في الحديقة الرائعة الملحقة بالكازينو، تتمايل الرؤوس على طاولات صغيرة (مطبوعة)، يدونون الأرقام بسرعة، أو يجرون حسابات، وقد يقوم أحدهم في جدية بشرح "أي نظام" يفضله، سواء كان يجب على المرء أن يلعب مع مجموعة "إلخ"، إلخ. أنه أشبه بمشاهدة حفنة من المجانين.[392]

---

[391] 268. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 28 May 1882, ,كارل ماركس إلى إليانور ماركس

[392] المرجع السابق، ص. 269. اكتشف المهندس الإنجليزي جوزيف جاجرز طريقة لتفليس بنك الكازينو - ليس وفقا لأي نظام علمي، ولكن ببساطة من خلال ملاحظته وجود خلل وظيفي في ميكانيكية اللعبة. أدرك في عام 1873، أن أحد عجلات الروليت لا تتحرك بطريقة متوازنة مع الأخريات، لذلك تحقق تسعة أرقام في كثير من الأحيان أكثر من غيرها. تمكن من الفوز بمليون ونصف المليار فرنك، قبل أن يصبح الكازينو على علم بالخلل ويصلحه دون صعوبة.

باختصار، أصبح واضحًا لماركس أن "القاعدة الاقتصادية لموناكو–جيرولشتاين هي الكازينو. إذا تم إغلاقه غدًا، سوف يكون ذلك بمثابة نهاية موناكو–جيرولشتاين بأكملها!" بدونه، حتى نيس "المكان الذي يلتقي فيه في شهور الشتاء ذوو المنزلة الرفيعة وصيادو الثروة على حد سواء... لن تستطيع الاستمرار كمركز للموضة... إضافة إلى ذلك، كم هو مشروع صبياني ذلك الكازينو بالمقارنة مع البورصة!"

وبعدما تلقى ماركس آخر جرعة من المواد الكيميائية التي تسبب التقرح، أطلق الدكتور كونمان سراحه، وسمح له بأن يواصل رحلته. لكنه نصحه بالتوقف في مدينة "كان لمدة يوم أو يومين" للسماح للجروح "بأن تجف"، وبعدها يمكن أن ينتقل إلى باريس. وبمجرد أن وصل ماركس إلى المنتجع الفرنسي الأنيق، قام بعمل جرد لتجربته في كوت دازور:

لقد أمضيت شهرًا فارغًا بأكمله في عرين الأرستقراطيين المتكاسلين أو المغامرين. طبيعة رائعة، وفي تقدير أخر حفرة كئيبة... لا توجد "الجماهير" العادية هنا، باستثناء العاملين بالفندق والمقهى، إلخ، وخادمات المنازل، الذين ينتمون إلى حثالة البروليتاريا.[393]

استمر الطقس في تقديم أسوأ ما لديه، وأثر سلبيًا بشدة على ماركس. وخلال الأيام الثلاثة التي قضاها في كان، كانت هناك على غير العادة "رياح قوية، وإن كانت ساخنة، ودوامات من الغبار". امتلأت "الصحافة المحلية في الريفيرا" بالحديث عنها. وأرسل ماركس بطبيعته الساخرة، يقول لإنجلز مازحًا إن "الطبيعة أيضًا، يمكن أن تعرض نوعًا معينًا من الدعابات السوقية (حسب الأسلوب الساخر، المستعمل فعليًا في العهد القديم، حيث يتم إطعام الثعبان من الغبار، راجع النظام الغذائي الغباري لديدان داروين)".

وفي الرسالة نفسها، أسهب ماركس في الحديث عن التوصيات النهائية للطبيب: "أن تأكل بشكل جيد وبكثرة حتى لو كان ذلك يتعارض مع ما تشعر به، وأن تعتاد على ذلك؛ وأن تشرب بطريقة "مناسبة" وأن تتجول كثيرًا، وما إلى ذلك... وأن تفكر أقل ما يمكن، إلخ". ولا يعجز عن التعليق بأنه "بعد أن اتبعت هذه "التوجيهات"، فإنني أسير بشكل جيد في الطريق إلى "البله". وبالرغم من كل ذلك، لم أستطع التخلص من التهابات الشعب. والفكرة التي تقدم لي عزاءً هي أنه كان التهابًا شعبيًا ذلك الذي أرسل

---

[393] كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز ,5 June 1882 , الأعمال المجمعة، جزء 46، ص 272.

غاريبالدي العجوز إلى "الراحة الأبدية"". وعلى أي حال، فقد كان مقتنعًا أنه "عند سن معين يصبح المرء غير مهتم تمامًا بالطريقة التي يتم بها إرساله إلى الأبدية". [394]

في 7 يونيو، بعد حوالي أربعة أشهر من مغادرته لندن، كان ماركس أخيرًا في حالة تسمح له أن يأخذ القطار إلى منزل ابنته في أرجنتويل. ونصحها ألا تزعج نفسها بانتظار وصوله: "حتى الآن، وجدت دائمًا أنه لا يوجد شيء يؤذيني أكثر من مكوث ناس، في المحطة، بانتظاري. ولا تخبري أيًا من الرفاق، حتى لافارج" الذي كان يترقب وصوله. فهو لا يزال بحاجة إلى "هدوء تام".[395] وكما قال لإنجلز أيضًا، شعر أنه كان لا يزال ضروريًا أن يكون "تواصله مع الناس محدودًا قدر الإمكان."[396] لقد كان العملاق مرهقًا وشعر أنه يقترب من نهاية الطريق. كانت الكلمات التي كتبها إلى جيني هي إلى حد كبير نفس الكلمات التي يكتبها أي شخص على وشك الموت: "أعني بـ"الهدوء"، "الحياة الأسرية"، "ضجيج الأطفال". إن "العالم المجهري" أكثر إثارة للاهتمام من "العالم الذي يُرى بالعين المجردة"".[397]

وعند عودته إلى أرجنتويل، قارن ماركس بين حالته وبين حالة سجين مفرج عنه، إذ كان عليه باستمرار أن يقدم "تقريرًا إلى أقرب طبيب في المكان الذي يقيم فيه".[398] كان طبيب العائلة منذ وقت طويل، غوستاف دورلين (؟) يعرف ماركس جيدًا ونصحه "ببضعة أسابيع" بأن يجرب المياه الكبريتية في إنجيان (الحمامات)،[399] وهي منطقة قريبة، حتى يكون في استطاعته مراجعة الدكتور فوجيه.

لم تسمح ظروف الطقس غير المستقرة لماركس ببدء العلاج فورًا. وتسببت أيضًا في "هجوم مؤلم جدًا للروماتيزم في منطقة ما فوق الفخذ".[400] ولم يستطع ماركس تنفيذ نصيحة الطبيب بالسفر إلى الحمامات

---

394. 274 ص ,.المرجع السابق

395. 271 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 4 June 1882, , جيني لونجيت إلى كارل ماركس

396كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز، 5 يونيو 1882، الأعمال المجمعة، جزء. 46، ص 274. المرجع الأدبي هنا يشير إلى عمل أدولف فون كنيج (1752 - 1796) المعنون "التعامل مع الناس بدقة" - (1788).

397. 272 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 4 June 1882, , جيني لونجيت إلى كارل ماركس

398. 275 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 9 June 1882, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

399المرجع السابق. قال إنجلز أن" تحركاته الأبعد مدي تتوقف كليا على الأطباء". ماركس إلى فريدريك سورج، 20 يونيو 1882. الأعمال، مجلد 46، ص278.

400كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز، 24 يونية 1882، الأعمال المجمعة، مجلد. 46، ص 284. وحول الطقس السيئ الذي أرهقه بشدة حتى عند عودته إلى منزل ابنته في أرجنتويل ، أنظر ملاحظات لافارج: "إن الباريسيين في حالة يأس من قسوة الطقس، إنهم لم يشاهدوا يونيو كهذا من قبل، على المرء أن يعتقد أنه موجود في إنجلترا، أنه فظيع جدا. يتحمل ماركس سوء الطقس. أخبرني أنه أينما ذهب، ما أن تجلس على طاولة لن تسمع سوى الاستياء الشديد وتذمر عام من الحر، كان لطيفًا بالأمس وشديد السوء اليوم ‘إنه خطئي’، واستطرد قائلاً: أنا أحضر الطقس السيئ معي. لو أني عشت في العصور الوسطي كنت هكذا سوف أُحرق باعتباري ساحرًا". بول لافارج، المراسلات. مشار إليه ص- 85.

الكبريتية إلا في أوائل شهر يوليو. وقد استفاد كثيرًا من ذلك. وكما أخبر إنجلز، يجب تكرار تلك العملية بانتظام:

إن الهواء في غرفة الاستنشاق كثير الضباب في امتزاجه مع الأبخرة الكبريتية المتصاعدة؛ استرح حوالي 30–40 دقيقة هنا. كل 5 دقائق، على طاولة خاصة، وعلى المرء أن يستنشق البخار المحمل بالكبريت المسحوق (من أحد أنابيب الزنك ذات الصمامات)؛ كل شخص مغطى بالمطاط من الرأس إلى القدم. وبعد ذلك يسيرون في طابور حول الطاولة. مشهد ساذج من جحيم دانتي.[401]

وفي فترة ما بعد الظهر، بعد عودته من الحمامات وشعوره بالراحة لفترة، كان يخرج بانتظام للتسكع والنزهة مع الأطفال، وهو ما كان له عواقب أكبر ضررًا على كفاءة البصر والسمع (ناهيك عن التفكير) أكثر من أي تجربة مر بها حتى مع ظاهريات هيجل.

رغم كل الجهود المبذولة، إلا أن النزلة الشُعبية "لم تنته بأي حال من الأحوال"، ونصحه الأطباء بمواصلة العلاج حتى منتصف أغسطس. مع ذلك، تحسنت حالته نسبيًا بشكل عام، حتى أنه في بداية ذلك الشهر، التقى ببعض قادة الحركة العمالية الباريسية، بما في ذلك خوسيه ميسا (1840–1904)، وبول لافارج، وجابرييل ديفيل (1854–1940) وجول جويسد. كانت هذه هي المرة الأولى منذ شهور التي وافق فيها على شيء من هذا القبيل، وعلى الرغم من أن اللقاء "سار بشكل جيد"، فقد كتب إلى إنجلز أنه "دائمًا ما يكون حديثًا و/ أو ثرثرة حيوية عن أمور تصلني، بعد وقوع الأحداث".[402]

وفي 20 أغسطس، أتم ماركس "جلسته الأخيرة في غرفة الاستنشاق". وفي الاستشارة الأخيرة، أخبره د. فوجيه أن "مشكلات التهاب الغشاء المحيط بالرئة لا تزال قائمة في الوضع الراهن. وهو أمر متوقع"، ونصحه، بالاتفاق مع الدكتور دورلين، بالذهاب إلى بحيرة جنيف، "حيث كانت تقارير الطقس حتى الآن مواتية"، على أمل أن "الآثار الأخيرة لنزلة الشعب الهوائية قد تشفي من تلقاء نفسها هناك". [403]

---

[401] .1-290 الأعمال المجمعة، جزء 46، صفحات 4 July 1882, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[402] .8-296 الأعمال المجمعة، جزء 46، صفحات 3 August 1882, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[403] ماركس إلى فريدريك إنجلز، 21 أغسطس 1882. الأعمال، مجلد. 46 ص 308. وبعد ذلك بوقت قصير، كتب إنجلز إلى جيني: "لدينا كل الأسباب لكي نكون راضين عن التقدم الذي أحرزه في ظل الطقس غير الملائم الذي ضايقه بإصرار شديد، وبعد ثلاث أزمات صحية منهم اثنان في منتهى الصعوبة... ومن ثم فإن العلاج المناخي على أرض مرتفعة في جبال الألب أو جبال البرانس سوف يساعده في أن يكون مستعدا تماما للعمل من جديد. "، فريدريك إنجلز إلى جيني لونجيت، 27 أغسطس 1882، الأعمال، المجلد. 46، ص. 315-6.

لم يكن هذه المرة قادرًا "على الذهاب في هذه الرحلة الخطرة بمفرده"، ومن ثم ذهب برفقة ابنته لورا، التي كان يمازحها، مقارنًا نفسه بالإسماعيلي راشد الدين سنان (1135/1132–1192)، من الطائفة الباطنية التي لعبت دورًا مهمًا خلال الحروب الصليبية، قائلًا إن "أقل واجب يمكن أن تقوم به هو أن ترافق رجل الجبل العجوز". [404]

وقبل مغادرته إلى سويسرا، تلقى ماركس رسالة من مراسل باريسي لصحف ألمانية مختلفة، قال فيها إنه: "كـ(ماركسي) متواضع وخادم مطيع، يود إجراء مقابلة معه، لأن الناس في كل دوائر "المجتمع" الألماني متلهفين للحصول على أخبار رسمية عن صحته". كتب ماركس لإنجلز يقول باللغة الإنجليزية: "بالطبع لم أرد على هذا المتملق".[405]

تم القيام بالمرحلة الأولى من الرحلة أثناء النهار فقط من أجل "تفادي أي سبب للانتكاس"، [406] وقد أخذتهم الرحلة بعيدًا إلى لوزان. ووصل ماركس بصحبة نوبة البرد، التي كان قد أصيب بها في اجتماع في باريس مع جوزيف روي (1830–1916)، المترجم الفرنسي لرأس المال. وعلى الرغم من التنبؤات الجوية المواتية، كان الطقس هناك "رطبًا وباردًا نسبيًا". وكتب لإنجلز يقول: "هناك السؤال الأول الذي سألته للنادل كان "منذ متى تمطر هنا"؟ وكان الرد "لقد أمطرت لمدة يومين فقط" (أي، منذ اليوم الذي غادرت فيه باريس). إنه أمر مضحك!".[407]

كانت الوجهة النهائية هي مدينة فيفي، الواقعة على الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة جنيف. وكتب ماركس إلى إنجلز يقول إنه "لا يزال يسعل"، لكن كل شيء كان يسير على ما يرام. وأضاف قائلاً: "إننا نعيش في أرض الكوكيجين"[408] (وهي أرض الوفرة في أساطير العصور الوسطى؛ مكان به كل وسائل الراحة في متناول اليد–المترجم). لقد افتقد بشدة صحبة إنجلز وحاول إقناعه بالخروج من لندن والانضمام إليه. لكن إنجلز كان مشغولًا بالتعامل مع جميع أنواع الأمور العملية، حتى يتمكن من الاستمرار في

---

[404] كارل ماركس إلى جيني لونجيت ,17 June 1882 ,الأعمال المجمعة، جزء 46، ص. (يوحى هذا التشبيه باهتمام ماركس العميق أيضا بالاطلاع على الثقافة العربية، وخاصة الحركات الاجتماعية فيها، فراشد الدين سنان لم يكن إسماعيليًا عاديًا من أعضاء الحركة، بل أحد أبرز قادتها، وهو أيضا "شيخ الجبل" الثالث في الترتيب، والذي تزعم الحركة في فترة صلاح الدين الأيوبي وأوشك مرتين على اغتياله بواسطة اتباعه، انظر - الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، برنارد لويس صفحات 160 إلى 170. (المترجم))

[405] كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز , ,1882 August 24 الأعمال المجمعة، جزء 46، ص .310

[406] .308 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,1882 August 21 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[407] .310 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,1882 August 24 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[408] .317 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,1882 4 SePtember , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

الوفاء بتمويل احتياجات ماركس المتكررة من العلاج. ورد إنجلز يقول: "سوف أكون سعيدًا جدًا إذا تمكنت من الحضور ورؤيتك، ولكن إذا حدث لي أي شيء، حتى ولو بشكل مؤقت، فسوف تنهار معه جميع ترتيباتنا المالية. لا يوجد إنسان هنا يمكن أن أعطيه توكيلاً أو أن أعهد إليه بمعاملات نقدية معقدة إلى حد ما".[409] وفهم ماركس وأعرب مرة أخرى عن امتنانه قائلاً: "إن اهتمامك الإيثاري بي أمر لا يصدقه عقل، وكثيرًا ما أشعر بخجل لا أستطيع إظهاره".[410]

في نهاية شهر سبتمبر، بعد رجوعه إلى منزل لورا في أرجنتويل، زار ماركس مرة أخرى الدكتور دورلين لطلب موافقته على "عبور القنال الإنجليزية".[411] ووجد الطبيب أن ماركس قد حقق "تحسنًا كبيرًا وأبلى بلاءً حسنًا على طريق تخليص نفسه من النزلة الشعبية المستمرة". لكنه أمره ألا يمكث في لندن أكثر من أسبوعين، أو "3 أسابيع لو كان الطقس جيدًا بالفعل" حيث إن "هجوم الشتاء"، كما أطلق عليه، "سيبدأ مبكرا في جزيرة وايت". ومع ذلك، قال ماركس مازحًا لصديقه إنجلز الذي ينتظره في انجلترا: "لو كانت الحكومة الفرنسية... تعرف بوجودي هنا.... فيمكنها أن ترسل لي بعض الطرود بدون الحاجة إلى موافقة الدكتور دورلين".[412]

3. "المؤكد أني لست ماركسيًا"

مرت الأيام سريعًا في لندن. وفي 9 أكتوبر، كتب ماركس إلى ابنته لورا يخبرها أن السعال "لا يزال مزعجًا"، وأن عليه أن يشفي منه تمامًا إن كان يرغب أن يكون في حالة مناسبة للعمل مرة أخري.[413] وأصبح الجو رطبًا وباردًا بسبب مجيء الخريف. ونصحه دكتور دونكين، الذي تولي رعايته مجددًا، بالرجوع إلى جزيرة وايت. وفي البداية، قضي اليوم بأكمله مع إنجلز – الذي كتب إلى لافارج يقول:

409. 319 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,12 SePtember 1882 كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز
410. 326 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,16 SePtember 1882 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز
411. 337 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,28 SePtember 1882 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز
412. 338-9. الأعمال المجمعة، جزء 46، صفحات ,30 SePtember 1882 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز
413. 340 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,9 October 1882 , كارل ماركس إلى جيني لونجيت

"بالأمس تناول ماركس الغداء معي، وفي المساء تناولنا جميعًا العشاء في منزله، ثم جلسنا نحتسي الروم حتى الساعة الواحدة".[414] وفي 30 أكتوبر استقل ماركس القطار في طريقه إلى فينتور.

لكن سرعان ما ساءت صحة ماركس مرة أخرى بسبب الروماتيزم، "ووصلت إلى حالة قريبة للغاية من حالة التهاب الغشاء المحيط بالرئة التي كانت قد أصابته في السابق"،[415] وهو ما اضطره إلى الذهاب لطبيب قريب، هو جيمس ويليامسون، الذي وصف له أدوية بها مكونات الكينا والمورفين والكلوروفورم.[416] وعلاوة على ذلك، فكي لا يكون رهنًا لتقلبات الرياح والحرارة أثناء تجواله خارج المنزل، كان يتعين عليه ثانيةً حمل قناع للتنفس يستخدمه عند الضرورة. ثم بعد هذه "الفترة الطويلة من عدم القدرة على القيام بالعمل للذهني المعتاد"،[417] وجد أنه لا يزال من المستحيل العمل على تطوير الطبعة الألمانية الثالثة من رأس المال. وفي 10 نوفمبر كتب إلى ابنته إليانور: "في ظل هذه الظروف أجدني غير قادر علي إنجاز أي عمل فعلي، لذلك فكرت أن اشغل وقتي بالتحضير لعمل ما".[418]

واظب إنجلز على إطلاعه على الوضع في لندن قائلاً إن "كل شيء جيد هنا كأنك في منزلك، إلا أن البيرة رديئة جدًا في كل مكان، باستثناء البيرة الألمانية في ويست إند التي تُعتبر جيدة إلى حد ما".[419] ولم يكن لدى ماركس وقائع جيدة كهذه يرد بها على إنجلز، حيث زادت حدة السعال، مع بحة مزعجة في الصوت. ومن ثم كان "مجبرًا على البقاء في غرفته... إلى أن يزول الاحتقان".[420]

---

[414] إنجلز إلى لافارج ،30 أكتوبر 1882، الأعمال، مجلد 46 ص 352. كتب منذ يومين إلى بيبل في ألمانيا أن: "ماركس... يذهب بعد غد إلى جزيرة وايت. ... إنه يتعافى بشكل مبشر، وإذا لم تعاوده مشاكل التهاب الغشاء المحيط بالرئة مرة أخري، سيكون أقوى في الخريف القادم، أفضل مما كان عليه لسنوات مضت"، فريدريك إنجلز إلى أغسطس بيبل، 28 أكتوبر 1882، - الأعمال المجمعة، المجلد. 46، صفحات 349 - 351. فيما بعد قدم تقريرًا أقل تفاؤلا وأدق وصفًا: "كان ماركس شديد الضجر من حياة التجوال الخاملة وهذا المنفي المتكرر، في دول جنوب أوروبا من المحتمل أن يدمر معنوياته أكثر مما يقدمه من فائدة لصحة جسده. مع بداية موسم الضباب في لندن تم إرساله إلى جزيرة وايت، ولسوء الحظ كان الجو ممطرًا هناك بشكل مستمر، وأصيب مرة أخرى بالبرد"، فريدريك إنجلز إلى فريدريك سورج، 15 مارس 1883، الأعمال المجمعة، المجلد. 46، ص. 461.

[415] .371 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 10 November 1882, ,كارل ماركس إلى إليانور ماركس

[416] كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز , 11 November 1882, الأعمال المجمعة، جزء 46، ص .375

[417] كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز , 8 November 1882 الأعمال المجمعة، جزء 46، صفحات.365 and 366 .

[418] .371 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 10 November 1882, ,كارل ماركس إلى إليانور ماركس

[419] .385 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 23 November 1882, ,كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[420] 392 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 4 December 1882, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

وفي 14 ديسمبر، كتب إلى لورا شاكيًا من أنه كان "حبيس المنزل طوال الأسبوعين الماضيين بسبب نزلة في القصبة الهوائية"، وأنه "عاش حياة ناسك". فلم يرَ أحدًا غير دكتور ويليامسون،[421] الذي أمره، بسبب رداءة الطقس "الممطر والمشبع بالرطوبة"، بعدم الخروج حتى يتحسن الطقس في "اليوم التالي".[422]

ومع ذلك، استطاع ماركس أن يقدم ملاحظاته على الأحداث الجارية وعلى مواقف قادة الحركة العمالية الفرنسية بأفضل صورة ممكنة. فقد كان "منزعجًا" من "عبارات التطرف اليساري" لدى هؤلاء، حيث اعتبر ذلك مجرد "لغو فارغ" هو "تخصص يجب أن ننصح المرتبطين بنا بأن يتركوه لمن يُطلق عليهم الفوضويين، الذين في واقع الأمر يدعمون الوضع القائم، ولا يخلقون الفوضى".[423]

وبالمثل، لم يترك ماركس أولئك الذين أثبتوا عجزهم عن الحفاظ على موقف طبقي مستقل، وشدد على أنه من الضروري للغاية أن يعارض العمال مؤسسات الدولة وخطاباتها. وعندما قام النائب البرلماني ورئيس المؤتمر التعاوني جوزيف كوين –الذي كان ماركس يعتبره أفضل البرلمانيين الإنجليز– بتبرير غزو إنجلترا لمصر،[424] أرسل ماركس إلى إليانور معبرًا عن رفضه التام لهذا الموقف.

وبادئ ذي بدء، أدان ماركس الحكومة البريطانية قائلاً: "رائع، لا يمكن رؤية مثال صارخ على النفاق المسيحي أكبر من "غزو" مصر – غزوٌ في خضم السلام!". وقد أعرب كوين في خطاب ألقاه في 8 يناير 1883 في نيوكاسل عن إعجابه بـ"الاستغلال البطولي" من جانب البريطانيين "والاستعراض العسكري المبهر"؛ كما لم يستطع أن "يمنع نفسه من اصطناع الابتسامة إزاء تلك المواقف الهجومية المحصنة من المحيط الأطلنطي حتى المحيط الهندي" إلى جانب "الإمبراطورية البريطانية–الإفريقية"، التي تمتد "من دلتا النيل إلى أقصى الجنوب الإفريقي". أنه "الأسلوب الإنجليزي" الذي يتسم بـ"المسؤولية عن المصلحة الوطنية". وفيما يخص السياسة الخارجية، استنتج ماركس أن كوين هو نسخة طبقة الأصل من "البرجوازية البريطانية التعيسة، التي تتأوه كلما تحملت مزيدًا من "المسؤولية" في خدمة مهمتها التاريخية، وفي الوقت نفسه، تهمهم عبثًا بأصوات الاحتجاج ضد السياسة البريطانية".[425]

---

[421] .398-9 الأعمال المجمعة، جزء 46، صفحات ,14 December 1882 , كارل ماركس إلى جيني لونجيت

[422] 409 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,18 December 1882 , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[423] 398 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، ,14 December 1882 ,كارل ماركس إلى لورا لافارج

[424] ماركس يشير إلى حرب عام 1882، حيث واجهت القوات المصرية بقيادة أحمد عرابي (1841 - 1911) قوات من المملكة المتحدة. وأدت إلى معركة التل الكبير (13 سبتمبر 1882)، التي أفضت إلى إجهاض ما سمى بتمرد عرابي الذي بدأ في عام 1879 ومكنت البريطانيين من فرض الحماية على مصر.

[425] .332-3 الأعمال المجمعة، جزء 46، صفحات ,9 January 1883 ,كارل ماركس إلى إليانور ماركس

كما اهتم ماركس بالجوانب الاقتصادية للصراع المصري–الإنجليزي، كما يتبين من خلال مقتطفات شملت ثماني صفحات، استخلصها من مقال بعنوان "المالية المصرية"، كتبه مايكل جورج مولهول (1836–1900)، ونُشر في من دورية لندن *Contemporary Review*.[426]

وحتى نهاية حياته، لم يفقد ماركس قط حماسه للنضال ضد الدعائم الرئيسية للرجعية الأوروبية، أي المملكة المتحدة وروسيا. وكان منذ أن تعلم القراءة بالروسية، في 1869 أولى اهتمامًا كبيرًا بالسياسة في الإمبراطورية القيصرية، كما يتضح من الفقرات التي كتبها في كراستي الملاحظات الأخيرتين، حيث استمر في تتبع التحولات المختلفة في روسيا في أواخر 1881 وخريف 1882.[427] ودرس على وجه الخصوص الأعمال الروسية المنشورة مؤخرًا حول العلاقات الاقتصادية–الاجتماعية التي ظهرت في أعقاب الإصلاح الزراعي وإلغاء القنانة في 1861. وقد تضمنت هذه الدراسات: الفلاحين في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية لفاسيلي سيميفسكى (1848–1916)، وحياة التعاونية الروسية (1881) لأندريه إيساف (1851–1924)، والأراضي الريفية المشتركة في مقاطعة أرخانجيل (1882) لجريارد منيكو (1823–1888)، و مصير الرأسمالية في روسيا (1882) لفاسيلي فورنتشيف (1847–1918)، علاوة على أعمال أقدم مثل المسألة الفلاحية في عصر كاترين الثانية (1862)، لألكسندر سكربتزكي (1827–1915)، وفي الأطراف وفي العاصمة (1870) لفيودور الينيف (1827–1902)، الذي كان ينشر غالبا تحت اسم بلوم سكالدين. [428]

وفي خلال هذه الفترة، نُشرت بعض المقالات في سان بطرسبورج، أظهرت الانتشار الهائل لنظريات ماركس في هذا البلد، وقد أخبر ابنته لورا أنه "لم يشعر في أى مكان أخر ببهجة نجاحه هكذا، فقد منحه شعورًا بالرضا، لأنه يحطم القوة، التي تمثل –إلى جانب إنجلترا– الحصن الرجعى للمجتمع القديم"[429]

من جهة أخري، لم ينجُ أحد من نقد ماركس. ذلك أنه بعد ولادة حزب العامل في فرنسا، في سبتمبر 1882، كتب غاضبًا إلى إنجلز بخصوص زوجي بناته، "لونجيت باعتباره آخر البرودونيين، ولافارج

---

[426] See IISH, ماركس-Engels Papers, B 98 صفحات. 11-18.

[427] انظر- IISH ، أوراق ماركس - إنجلز، 113 A و. 167 B يحتوي دفتر الملاحظات الأخير على قائمة بعنوان "الروسية على رفوفي"، تضم المنشورات الموجودة في مكتبته الشخصية بتلك اللغة. وذلك يثير اعتقاد أنه كان يخطط للعودة إلى تلك المواد إذا توفر له الوقت والقدرة اللازمة.

[428] لمعرفة المزيد عن استخدام ماركس لهذه النصوص، انظر Die Bibliotheken von Karl Marx und Friedrich Engels، MEGA²، مجلد. 32 / IV ، صفحات 597 .، 343، 463، 667، 603-4، 245-6.

[429] 311. ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 14 December 1882 , كارل ماركس إلى لورا لافارج.

باعتباره أخر الباكونينيين! فليأخذهم الشيطان".[430] ووفقًا للسخرية النقدية نفسها، هاجم ماركس أكثر من مرة هؤلاء الذين زعموا أنهم يعبرون عن أفكاره، حيث قال بطريقة لماحة "الأمر الأكيد هو أني لست ماركسيًا."[431]

[430].375 ص الأعمال المجمعة، جزء 46، 11 November 1882, , كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز

[431]هذا التصريح على عهدة لافارج كان تقريرا لما جاء في رسالة من إنجلز إلى إدوارد برنشتاين في 2 أو 3 نوفمبر 1882. مجلد 46 ص 356. الأعمال. ('Ce qu'il y a de certain c'est que moi, je ne suis pas Marxiste = الشيء المؤكد هو أنني لست ماركسيا) "والأن المقصود بكلمة "ماركسية" في فرنسا"، يصيح إنجلز، منتج غريب تماما. في الواقع، كرر نفس الفكرة بعد سبع سنوات، في 7 سبتمبر 1890. في اتصال مع محرر جريدة الاشتراكي الديموقراطي Sachsischen Arbeit-Zeitung'، انظر إنجلز في "مسودة الرد على محرر جريدة العمل الساكسونية "Sachsischen Arbeit-Zeitung'" الأعمال، مجلد 27، صفحات 8 – 67. وفي رسالتان خاصتان: إلى كونراد شميدت Conrad Schmidt، في 5 أغسطس 1890. وإلى بول لافارج في 27 أغسطس 1890. في الأعمال. مجلد 49، صفحات – 7 – 22. وقد أشار كاوتسكى إلى تلك العبارة بشكل غير دقيق، زاعما أن ماركس استخدمها في تعبير ذاتي مع نفسه، انظر بيندكت كاوتسكى ((ed.، مراسلات إنجلز مع كارل كاوتسكى،)، Friedrich Engels' Briefwechsel mit Karl Kautsky. Wien: Danubia 1955, p. 90. 1955, ص 90. سبق ذكره. وأيضا المترجم الروسي الأول لكتاب راس المال، German Lopatin، الذي ذكر في رسالة بتاريخ 20 سبتمبر 1883إلى Mariya Oshanina، ما يلي: "هل يمكن أن تذكريني أذا ما كان ماركس نفسه قال إنه لم يكن ماركسيا أبدا؟" قال إنجلز أنه خلال صراع Brousse, Malone وشركائه. ضد الأخرين، قال ماركس ذات مرة مازحا "كل ما يمكنني قوله هو أنني لست ماركسيا! "،(.in Enzensberger (ed ، Gespräche mit Marx und Engels, op. سبق ذكره .,ص .583 . انظر أيضا ماكسيميليان، ماركس ينقد الماركسية،.Marx critique du marxisme ، Paris: Payot، 1974، صفحات 20 – 22.

خاتمة

الأسابيع الأخيرة

لم يتمكن ماركس من متابعة تطورات حركة العمال الأوربيين بعناية، ولا من تحقيق مزيدًا من التقدم في عمله النظري. وقد ساعد تقلب حالته الصحية، وقلقه على صحة إبنته جيني بعد ولادتها طفلها الأخير، على استعصاء حالته بشكل متزايد، برغم بذله كل ما في وسعه "ليتعافى من أجل مواصلة نضاله" مرة أخرى، ورغم طلبه من إليانور احضار بعض الكتب في زيارتها آخر العام (علم الفسيولوجيا تأليف (يوهانس) رانك، وكتاب (إدوارد) فريمان قليل الأهمية "تاريخ أوروبا"، (...) كبديل لجدول يبين التسلسل الزمني[432].

وفي 6 يناير، كتب إلى دكتور ويليامسون أنه انتابته أثناء الصعود حالة "سعال تشنجي ولهاث وانقباض كما لو كان يعاني من اختناق". وبلا شك، كان يدنو من وطأة هذا المنعطف المفاجئ. وكان قد تلقى بعد ظهر اليوم السابق، خطابًا متضمنًا أخبارًا سيئة جدًا عن بكريته: "كنت أعلم بالطبع خطورة مرضها، ولكني لم أكن مستعدًا لسماع أنها تمر بمراحل حرجة منه الآن."[433]

وأعترف لإنجلز أيضًا بأنه ظن "أنه يختنق"، وأن "أي نوع من الإثارة العصبية يؤدي هذه الأيام إلى انقباض حلقه فورًا".[434] وكتب إلى إليانور:

أظن إن ذلك يرجع إلى التوتر العصبي – قلقي على جينيتشن (...) كان على الإسراع إلى أرجينتويل فورًا، لولا احتمال أن أثقل على الطفلة، بعبء إضافي لزائر مريض! ولولا أني لا أضمن ألا تصيبني

---

[432]- أشار ماركس في خطابه لإليانور في 23 ديسمبر 1882 إلى جدول يوضح التسلسل الزمني لتاريخ العالم، كان قد بدأ في إعداده خريف 1881 (Karl Marx to Eleanor Marx, 23 December 1882, MECW, vol. 46, pp. 417-8).

[433]- Karl Marx to James Williamson, 6 January 1883, in MECW, vol. 46, p. 419.

[434]- Karl Marx to Friedrich Engels, 10 January 1883, in MECW, vol. 46, p. 425.

الرحلة بإحدى الانتكاسات، مثل التي نجوت منها حتى الآن لحسن الحظ. ومع ذلك، يصعب على أن لا أكون قادرًا على رؤيتها.[435]

إذًا، كان ماركس يعاني من "تحديد إقامته في المنزل لفترة طويلة"[436]، فكان "السعال شبه الدائم" "الممل للغاية"، والمصحوب "بحالات قيء يومية"، يجعل احتمال الوضع شبه مستحيل بالنسبة له.[437] ولكن لم يبد استرداده لصحته أمرًا مفقود الأمل فيه تمامًا. فعندما اشتكى لإليانور من أن حالته جعلت العمل مستحيلًا في كثير من الأحيان، قال أيضًا أن "الطبيب يعتقد –مازال يعتقد وذلك عجيب!– أنه قادرًا على انتشالي من هذا العذاب، من خلال الاستعانة بعلاج بسيط وصفه لي توًا. من سيعيش سيرى."

ورغم ذلك، أجهزت وفاة أثيرته جيني في 11 يناير، بسبب سرطان الكبد، على أي أمل من هذا القبيل. حلت هذه المصيبة، التي فاقت وفاة زوجته، على رجل يعاني فعليًا من مرض قاتل، ويعيش حياة صعبة. ويشهد ما سردته إليانور فيما بعد على حالته حينها:

وصلنا خطاب من مور (...)، كتب فيه أن صحة جيني قد تحسنت أخيرًا، حتى أننا –هيلين (ديموث) وأنا– لا يجب أن نقلق عليها. ثم وصلنا بعد ساعة من هذا الخطاب، تلغرافًا ينبئنا بوفاة جيني. وتوجهت فورًا إلى فينتنور. وقد مرت بي ساعات ألم عصبية مراراً، ولكن ليس مثل ذلك الألم. شعرت إني كنت أحمل لوالدي حكمًا بالإعدام. ظللت أقدح ذهني خلال الساعات الطويلة لهذه الرحلة الرهيبة، في التفكير بالطريقة التي سأنقل له الأخبار بها. ولكن لم تكن بي حاجة لقول شيء، أعفاني وجهي من الكلام. وقال مور فور رؤيتي: "ماتت صغيرتنا جيني". وأراد السفر إلى باريس فورًا، ليساعد في العناية بالأطفال. وكنت راغبة في البقاء معه، ولكنه لم يتحمل أي معارضة. لم يمض على وصولي فينتنور سوى نصف ساعة فقط، وكنت بالفعل في طريقي للعودة إلى لندن بقلب كسيف مثقل بالأحزان، ولكن تعين علي السفر فورًا إلى باريس. ولمصلحة الأطفال، فعلت ما تمناه مور.[438]

---

[435]- Karl Marx to Eleanor Marx, 8 January 1883, in MECW, vol. 46, pp. 420-1.

[436]- Karl Marx to Friedrich Engels, 10 January 1883, in MECW, vol. 46, p. 425.

[437]- Karl Marx to Eleanor Marx, 9 January 1883, in MECW, vol. 46, p. 423.

[438]- Reminiscences of Marx in *Reminiscences of Marx and Engels*, Progress Publishing House, Moscow (n.d.), p.12.

وفي 13 يناير، أسرع ماركس إلى لندن. وقبل مغادرته جزيرة وايت، أوضح لدكتور ويليامسون أن رحيله كان بسبب "الأخبار المفجعة عن وفاة إبنته الكبرى." وأضاف "وجدت عزاءً في حالة صداع رهيبة. فلا يصرف انتباه المرء عن الآلام الذهنية، سوى الآلم الجسدي فقط".[439] وكانت تلك الكلمات آخر ما خط على الورق للأبد.

ورغم ذلك، فبالرجوع إلى مذكرات إنجلز، يمكنا استرجاع تفاصيلًا كثيرة عن الأسابيع الاخيرة في حياة ماركس. ونعرف من خلال خطابه إلى إدوارد برنشتاين **Eduard Bernstein**، أن ماركس بعد عودته من فينتنور "لزم المنزل نتيجة للالتهاب الشعبي، كانت إصابة متوسطة إلى حد ما – لحسن الحظ".[440] وفي 8 فبراير، كتب انجلز لبرنشتاين كذلك إنه "خلال الأسابيع الثلاثة الماضية" كان ماركس "مبحوح الصوت، لدرجة إنه لم يكن قادرًا على التحدث إلا بالكاد".[441] وفي هذا الوقت، كان برنشتاين رئيسًا للحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني (**German Social Democracy**). وحافظ إنجلز على اتصال دائم معه، سواء لكونه مديرًا لصحيفة الاشتراكي الديمقراطي (***Der Sozialdemokrat***)، أو بسبب النزاعات التي كانت قد حدثت في وقت سابق بين إنجلز وفيلهلم ليبكنخت **Wilhelm Liebknecht**.

وفي 16 فبراير، كتب إنجلز إلى لورا: "مؤخرًا، أصيب (ماركس) لعدة ليالي بأرق فظيع، الأمر الذي عطل قدراته الذهنية، ولذلك بدأ يقرأ، قوائم النشر بدلًا من الروايات". وأضاف في اليوم التالي، هناك "علامة طيبة على أي حال" لأن ماركس "ترك قوائم النشر وعاد إلى فريدرك سولي **Frédéric Soulié**" (1800–1847)، وهو من أكثر الكتاب رواجًا قبل 1848.[442] ومع ذلك ظل إنجلز قلقًا: "أسوأ ما في الأمر أن حالته معقدة جدًا، حتى الأشياء الأشد إلحاحًا، أعضاء التنفس، لابد من الالتفات لها بعناية خاصة، ولابد من إعطاءه منومًا، بين الحين والآخر، وينبغي إهمال أشياءً أخرى، كالمعدة على سبيل المثال."[443]

---

[439]- Karl Marx to James Williamson, 13 January 1883, in MECW, vol. 46, p. 429.

[440]- Friedrich Engels to Eduard Bernstein, 18 January 1883, in MECW, vol. 46, p. 430.

[441]- Friedrich Engels to Eduard Bernstein, 8 February 1883, in MECW, vol. 46, p. 434.

[442]- Friedrich Engels to Laura Lafargue, 16-17 February 1883, in MECW, vol. 46, pp. 440-1.

[443]- Ibid., p. 441

وفي نهاية الشهر، أرسل إنجلز متابعة جديدة للموقف إلى برنشتاين: "مازال ماركس غير قادر على العمل، لازمًا حجرته يقرأ روايات فرنسية. وتبدو حالته صعبة للغاية."[444] وذكر في الأسبوع التالي لبيبل **Bebel** إن صحة ماركس "مازلت لا تظهر فعليًا التقدم الواجب".[445] وأخيرا كتب في 10 مارس إلى لورا بعد فحص قام به دكتور دونكن: "رأى (الطبيب) مور مساء أمس، ويسعدني أن أقول لك، كان تقريره عن صحة ماركس، أنها أفضل إلى حد عما كانت عليه منذ إسبوعين. قال أن مور ليس أسوأ بالقطع، وإن كان ثمة تغيير منذ ذلك الحين، فهو للأحسن." ومع ذلك، "تزداد حالة ماركس سوءًا فيما يتعلق بصعوبة البلع"، و"علينا دفعه إلى الطعام والشراب".[446]

وسرعان ما اتجهت الأمور للأسوأ، حيث تضاءل جسم ماركس بسرعة، وتكون لديه خراجًا على الرئة. وبدأ القلق يساور إنجلز على حياة صديق عمره، التي باتت نهايتها وشيكة بالفعل: "كل صباح خلال الأسابيع الستة الماضية، عندما أدور مع زاوية الشارع، ينتابني خوف قاتل، أن تكون النهاية قد حلت." ووقع ما كان يخشاه، في الثانية وخمسة وأربعون دقيقة، من بعد ظهر يوم 14 مارس 1883. وكتب إنجلز أكمل رواية، مستخدمًا أبلغ الكلمات، فيما أرسله إلى فريدريش سورج **Friedrich Sorge**، الرفيق الذي أصبح سكرتيرًا لجمعية الشغيلة الأممية **International Working Men's Association**، بعد انتقالة إلى أمريكا عام 1872:

أمس، في الثانية والنصف بعد الظهر، وهي أفضل أوقات استقبال الزوار عنده، وصلت لأجد مدبرة المنزل باكية؛ وبدا كما لو كان يقترب من نهايته. كان هناك نزف طفيف، ومع ذلك أتى في إثره انهيار مفاجئ. صديقتنا الطيبة لينشين العجوز، التي اعتنت به أفضل مما تعتني أم بطفلها، صعدت الدرج، وهبطت مرة أخرى، قالت: كان نصف نائم، ودعتني لأصعد معها. عندما دخلنا، كان نائمًا هناك، ولم يستيقظ قط. إذ توقف نبضه وتنفسه. وفي غضون دقيقتين، وافته المنية دون ألم وفي سلام.[447]

ومع كل الألم الذي شعر به إنجلز لفقد أعز صديق له، إلا إنه رأى تبعات رحيل ماركس بلا عودة.

---

[444]- Friedrich Engels to Eduard Bernstein, 27 February - 1 March 1883, in MECW, vol. 46, p. 351.

[445]- Friedrich Engels to August Bebel, 7 March 1883, in MECW, vol. 46, p. 455.

[446]- Friedrich Engels to Laura Lafargue, 10 March 1883, in MECW, vol. 46, p. 456.

[447]- Friedrich Engels to Friedrich Sorge, 15 March 1883, in MECW, vol. 46, pp. 461-2

كل الخطوب، التي تأتي بها الحتمية الطبيعية، أيًا كان هولها، تحمل في طياتها عزاءها الخاص. وهكذا كان الأمر هنا. ربما استطاع فن الطب أن يؤمن له وجودًا أشبه بالنباتات لبضع سنوات، حياة المخلوق العاجز، لا يموت فجأة ولكن شيئًا فشيئًا، في شهادة على انتصار حنكة الأطباء. ولكن ذلك شيئًا لم يكن لماركسنا أن يطيقه أبدًا. أن يعيش وأمامه كثير جدًا من الأعمال غير المكتملة، مع رغبة حارقة لإتمامها واستحالة ذلك- من شأن هذا أن يكون أشد مرارة عليه ألف مرة من الموت الرفيق الذي حل به. "لا يعد الموت مصيبة للشخص الذي يموت، ولكن للشخص الذي ينجو منه"، كما كان يقول مع أبيقور. المصيبة أن ترى هذا الرجل شديد العبقرية، يواصل حياته في وجود لا جدوى منه، حطام كامل، من أجل مزيد من المجد لعلم الطب، مثل ألعوبة في يد من يتسمون بفقدان الشعور، تراه وهو في ذروة نفوذه، وقد سقط مرارًا كثيرة إلى الحضيض. لا! سيكون من الأفضل ألف مرة أن يتم الأمر على النحو الذي جرى به، من الأفضل ألف مرة أننا سنحمله بعد غد إلى القبر الذي ترقد فيه زوجته نائمة.[448] *وبعد كل ما سبق، فالذي لا يعلم به حتى الأطباء بقدر علمي به، أنه لم يكن هناك، من وجهة نظري، سوى خيارًا وحيد.*[449] *ومهما كان الأمر. فالجنس البشري هو أشد الخاسرين بفقدان ذلك العقل – في الحقيقة العقل الأكثر أهمية، الذي يمكن الافتخار به في الوقت الحاضر. ستواصل حركة البروليتاريا مسيرتها، ولكنها فقدت مركز تنسيقها، المركز الذي سيتحول إليه الفرنسيون والروس والأمريكيون والألمان تلقاءيًا في لحظات الأزمة، متلقين في كل مناسبة الاستشارة الواضحة غير القابلة للجدل، التي لا يستطيع تقديمها سوى العباقرة وأصحاب الخبرات البارعة. سيخلو المجال للشخصيات الكبيرة المحلية والأقل تألقًا، إن لم يكن للدجالون. مازال النصر النهائي أكيدًا، ولكن سوف تتكاثر الآن الانحرافات، الاختلالات المؤقتة والمحلية –التي لا مفر منها فعليًا– كما لم يحدث من قبل. حسنًا، علينا أن ننظر لها من خلال التأهب للتعامل مع كل مستجد.*[450] *ولكننا لن نفقد القلب، برغم كل ذلك – بأي حال من الأحوال.*[451]

---

[448]- The reference is to the so-called *Letter on Happiness* that Epicurus addressed to Menoeceus

[449]- "من وجهة نظري، ساعدت وفاة زوجته في البداية، ثم وفاة جيني في فترة من أشد الفترات حرجًا، في الوصول إلى المحنة النهائية": Cf. Friedrich Engels to Wilhelm Liebknecht, 14 March 1883, in MECW, vol. 46, p. 458 ..

[450]- كتب إنجلز في خطاب مشابه إلى برنشتاين: "ستستمر الحركة في طريقها، ولكنها ستفتقر إلى الهدوء، والتوقيت المناسب، التدخلات القيمة التي وفرت عليها حتى الآن انحرافًا منهكًا" Friedrich Engels to Eduard Bernstein, 14 March 1883, in MECW, vol. 46, p. 459.

[451]- Friedrich Engels to Friedrich Sorge, 15 March 1883, in MECW, vol. 46, pp. 462-3.

وهذا بالتمام ما حدث بعد وفاة ماركس، حيث رفع راياته آخرون كثيرون. ومن أمريكا اللاتينية إلى الشرق الأقصى، بمقرات النقابات في الأطراف الفقيرة أو القاعات الكبيرة لجامعات برجوازية، سيقرأ عشرات الملايين من العمال والطلبة كتاباته، مستمدين منها فهمًا لوضع المظلومين، واجدين فيها إلهامًا للالتزام بنضالات جديدة، وتنظيم الإضرابات والحركات الاجتماعية والأحزاب السياسية. سيكافحون ضد الظلم من أجل الخبز والورود، ومن أجل الحرية، وعبر ذلك، ستبقى نظريات ماركس حاضرة تمامًا.

تمت دراسة ماركس بعمق، وتحول إلى رمز، وحنط في كتيبات رسمية، وأسيء فهمه، وانتقد بعنف، وأعلنت وفاته، وأعيد اكتشافه من جديد من وقت لآخر. وفي سياق هذه العملية الطويلة، يكون هناك بعض الأشخاص الذين يديرون أفكاره في رؤوسهم، مع المعتقدات والممارست التي ناضل من أجلها بإصرار في حياته. ومع هذا، أثرى آخرون أفكاره، وحدثوها لتتوافق مع الوقت الحالي، ووضعوا يدهم على بعض المشاكل والتناقضات فيها، من خلال روح النقد ذاتها التي كان هو نفسه يعتمدها ويشجعها.

واليوم، لابد أن ينبهر الذين يتأملون في كتابات ماركس مرة أخرى، أو الذين التفتوا إليها لأول مرة، بقدراته على استخدام التحليل الاجتماعي الاقتصادي في شرح العالم. وبشكل متزايد، تسطع رسالة واحدة من مجمل عمله: هناك ضرورة لتنظيم النضال لإنهاء النمط البروجواي للإنتاج، والتوصل إلى تحرير عمال العالم من هيمنة رأس المال.

ملحق

من أجل الخبز والزهور

في أكتوبر عام 1879، عقد اتحاد حزب العمال الاشتراكي الفرنسي –الذي ولد في العام السابق نتيجة انصهار عدة مجموعات المنتمية إلى التيار الاشتراكي الفرنسي– مؤتمرًا على المستوى القومي في مرسيليا. وبعد أن حصل جول جيسد على تأييد أغلبية الحزب، بدأ في العمل على صياغة برنامج سياسي يمكن استخدامه أيضًا لأغراض انتخابية. ولجأ إلى ماركس، عن طريق بول لافارج، طالبًا مساعدته في تنفيذ هذه المهمة الضرورية. والتقى الثلاثة في لندن في مايو 1880. وما أن تمت كتابة هذا البرنامج، ظهر في عدد من الصحف الفرنسية. وكانت النسخة الأكثر مصداقية هي تلك التي تم نشرها في 30 يونيو 1880، في **L'É'galité** ، وهي نشرة أسسها جول جيسد. وقد اعتمدها مؤتمر لوهافر في نوفمبر من العام نفسه.

في العام التالي، كشف إنجلز في رسالة إلى إدوارد برنشتاين عن خلفية كتابة هذا البرنامج. إن "مقدمة البرنامج":

أملاها ماركس على جيسد، هنا في غرفتي، بحضوري أنا ولافارج: يكون العامل حرًا فقط، عندما يكون مالكًا لأدوات عمله – قد يتم ذلك إما في شكل فردي أو جماعي. إن الشكل الفردي للملكية يجري يوميًا، وعلى نحو متصاعد، تجاوزه بسبب التطورات الاقتصادية. وهكذا، فإن كل ما تبقى هو الملكية الجماعية، إلخ. إن ذلك نموذج رائع للمنطق المقنع، المعَد لشرح الأمور للجماهير في بضع كلمات. يندر أن أجد مثلها، وحتى في هذه النسخة المختصرة، أجدها مذهلة.[452]

وتذكّر إنجلز ذلك بعد فترو قصيرة، عندما جرت مناقشة حول "المحتويات الأخرى للبرنامج"، وأُدخلت بعض التغييرات على مسودة جيسد، قائلاً: "لقد أضفنا هذا وحذفنا ذاك". وجادل ماركس بقوة، ولكن دون

[452] فريدريك إنجلز إلى إدوارد برنشتاين, 25 October 1881, الأعمال المجمعة, ص 46. 148.

جدوى، من أجل حذف النقطة الثالثة من القسم الاقتصادي: "هذا الهراء حول الحد الأدنى للأجور".[453] وأشارت الابنة الكبرى لماركس، جيني لونجيت، في رسالة إلى زوجها في نوفمبر 1880، إلى المناقشة التي دارت بين والدها وجيسد:

بخصوص مسألة تثبيت حد أدنى للأجر، ربما يهمك أن تعرف أن أبي قام بكل ما في استطاعته لإقناع جيسد بحذفها من برنامجهم، موضحًا له أن مثل هذا الإجراء، إذا تم تبنيه، سوف يؤدى إلى أن تقوم القوانين الاقتصادية بجعل هذا الحد الأدنى الذي تم تثبيته حدًا أقصى. لكن جيسد تمسك به على أساس أنه على أقل تقدير سوف يمنحهم تأثيرًا كبيرًا بين الطبقات العاملة.[454]

وأشار ماركس نفسه إلى هذا الموضوع في رسالة إلى فريدريك سورج:

باستثناء بعض الحماقات مثل الحد الأدنى للأجور المحدد بواسطة القانون، وما إلى ذلك، والتي على الرغم من احتجاجنا عليها فقد اعتقد جيسد أنها يمكن أن تقدم شيئًا للعمال الفرنسيين (وقد أخبرته أنه إذا كانت البروليتاريا الفرنسية في حالة صبيانية لدرجة أن تطلب هذا المطلب، فهي ليست جديرة بوضع أي برنامج من أي نوع)، فإن القسم الاقتصادي في هذه الوثيقة القصيرة جدًا يتكون (إلى جانب بعض الكلمات التمهيدية التي تحدد الهدف الشيوعي في بضعة أسطر) فقط من المطالب التي عبّرت عنها، في الواقع، الحركة العمالية نفسها بطريقة عفوية. إن إنزال العمال الفرنسيين إلى الأرض بعيدًا عن تحليقهم في سحابات الألفاظ البلهاء كان خطوة هائلة إلى الأمام، ولهذا أثارت قدرًا كبيرًا من الاستياء بين هؤلاء المثقفين الفرنسيين المحتالين الذي يكسبون عيشهم من "صنع المشكلات".[455]

فيما يزيد قليلاً عن 700 كلمة، يحدد البرنامج المطالب الأساسية للطبقة العاملة. وانطلاقًا من الافتراض القائل بأن البروليتاريا لا تستطيع أبدًا أن تكون حرة في نظام إنتاج قائم على العمل المأجور، وأن تحررها لن يتحقق إلا بعد أن تسيطر على ملكية وسائل الإنتاج، يعلن البرنامج أنه على الطبقة العاملة أن تكافح

---

[453] .148-9 . صفحات.المرجع السابق

[454] .474 ص ,46 الأعمال المجمعة ,23 November 1880 ,جيني لونجيت إلى تشالرز لونجيت.

[455]كارل ماركس إلى فردريك سورج، 5 نوفمبر 1880، صفحات 4 – 43. من بين الأشياء شديدة "الحماقة"، أن ماركس كان مترددًا في جدوى وضع بند في البرنامج ينص على إلغاء الميراث (انظر النقطة 12 من القسم الاقتصادي)، وهو مقترح قديم لهنري دي سان سيمون (1760-1825) ودافع عنه في اختلافه مع ميخائيل باكونين خلال حقبة الأممية الأولى: "إذا كانت الطبقة العاملة تتمتع بالقدرة الكافية لإلغاء حق الإرث، فستكون قوية بما يكفي للشروع في نزع الملكية، والتي ستكون عملية أبسط وأكثر كفاءة"، كارل ماركس، "حول الميراث" "، في. مارسيلو موستو (المحرر)، العمال يتوحدون! مائة وخمسون عاما على الأممية، London: Bloomsbury، 2014، ص. 159.

بنشاط ضد أي نوع من التمييز –خاصة ذلك المرتبط بالنوع أو العرق– وأن تسعى إلى إنهاء وضع إخضاع المرأة للرجل.

يجب على العمال أن يدعموا شكلاً للحكم يقوم على أساس تشاركي ولامركزية السلطة، وأن يناضلوا من أجل إلغاء الدين العام ومن أجل قيام دولة خالية من أي بعد ديني. يجب أن يتبنوا الحق في تعليم عام لكل المواطنين تقوم بتمويله الحكومة، وان يعارضوا خصخصة الملكية العامة، ويدعموا مبدأ الملكية العامة. وفي الوقت نفسه، ينبغي عليهم أن يحتشدوا من أجل تحقيق الإدارة الذاتية لورش العمل، ومعارضة أي شكل من أشكال اشتراكية الدولة.

في سبيل تحقيق هذه الأهداف، من الضروري أن يكون العمال منظمين سياسيًا، بما في ذلك تكوين حزب سياسي مستقل، يتعين عليه التنافس مع الأحزاب الديمقراطية والنضال ضد الأحزاب البرجوازية.

برنامج انتخابي للعمال الاشتراكيين

جول جيسد، بول لافارج، كارل ماركس

تمهيد

مع الأخذ في الاعتبار أن تحرير طبقة المنتجين هو تحرير لكل البشر دون تمييز بسبب الجنس أو العرق؛

وأن المنتجين يمكن أن يكونوا أحرارًا فقط عندما يملكون وسائل الإنتاج؛ وأن هناك شكلين فقط لملكية وسائل الإنتاج:

1 – الشكل الفردي، الذي لم يوجد قط في أي حالة عامة، والذي يتم التخلص منه أكثر فأكثر من خلال التقدم الصناعي.

2 – الشكل الجماعي، العناصر المادية والذهنية التي تكونت من خلال تطور المجتمع الرأسمالي ذاته.

ومع الأخذ في الاعتبار أن هذا الاستيلاء الجماعي لا يمكن أن ينشأ إلا من خلال العمل الثوري للطبقة المنتجة –أو البروليتاريا– المنظمة في حزب سياسي متميز.

وأنه يجب النضال من أجل تكوين هذه المنظمة بكل الوسائل التي تملكها البروليتاريا، بما في ذلك حق الاقتراع العام، والذي سوف يتحول من أداة للخداع، كما هو حتى الآن، إلى أداة للتحرر.

وأن العمال الفرنسيين الاشتراكيين وقد اخذوا على عاتقهم تكريس جهودهم لتجريد الطبقة الرأسمالية اقتصاديًا وسياسيًا، واستعادة ملكية جميع وسائل الإنتاج لصالح المجتمع، قد قرروا دخول الانتخابات، باعتبارها وسيلة للتنظيم والنضال، رافعين المطالب التالية:

أ– القسم السياسي: إلغاء جميع القوانين التي تعوق حرية الصحافة والاجتماعات والجمعيات، وفي مقدمة ذلك إلغاء جميع القوانين الصادرة ضد رابطة العمال الدولية. إزالة السجلات،[456] المستخدمة للسيطرة الإدارية على الطبقة العاملة، وكل بنود القانون[457] التي تضع العمال في علاقة أدني مع الرؤساء، والمرأة في علاقة أدنى مع الرجل:

1 – إلغاء ميزانية الهيئات الدينية والعودة إلى الأمة في شأن "الأوقاف، ثابتة كانت أم منقولة" (مرسوم صادر عن الكوميونة[458] في 2 أبريل 1871)، ويدخل في ذلك جميع الملحقات الصناعية والتجارية لتلك الشركات.

2 – إلغاء الدين العام.

3 – إلغاء القوات المسلحة القائمة والتسليح العام للشعب.

---

[456]كانت ال "*livret*" عبارة عن شهادة من رب العمل أن العامل ليس عليه أي ديون وغير محمل بأي التزامات تجاه صاحب العمل. ولا يمكن تشغيل أي عامل لدى رب عمل جديد دون تقديمها. (تساوى بدقة شهادة "خلو الطرف" المستخدمة في بلادنا والعديد من البلدان حتى الآن، وقد تأخذ أسماء أخري أو إجراءات اعقد في بعض البلدان، مثل حالة الكفالة في دول الخليج. – المترجم) هذه النظام ألغي (في دول اوربا على الأكثر. - المترجم) فقط في عام 1890.

[457]يشير إلى القانون الذي وضعه نابليون في 1804.

[458]المقصود هنا هو المراسيم الاشتراكية لكميونة باريس.

4 – الكوميونة هي سيدة قرارها إداريًا وأمنيًا.

ب– القسم الاقتصادي

1 – يوم راحة واحد في الأسبوع وفرض حظر قانونى على أصحاب العمل الذين يفرضون العمل أكثر من 6 أيام في الأسبوع. خفض يوم العمل قانونًا إلى 8 ساعات فقط بالنسبة للبالغين. ويحظر على الأطفال تحت سن الرابعة عشر العمل في ورش خاصة؛ وبالنسبة للعمال ما بين الرابعة عشر والسادسة عشر عامًا، يجب خفض يوم العمل من 8 إلى 6 ساعات.[459]

2 – إشراف وقائي على المتدربين من قبل المنظمات العمالية.

3 – حد أدني للأجور، تحدده سنويًا لجنة إحصاء عمالية على ضوء أسعار الطعام المحلية.

4 – يحظر قانونًا على أرباب العمل تشغيل العمال الأجانب بأجر أقل من العمال الفرنسيين.

5 – أجر متساوٍ للعمل المتساوي، وذلك للعمال من الجنسين.

6 – التعليم المهني والعلمي لجميع الأطفال، مع بقائهم تحت مسؤولية المجتمع، ممثلاً في الدولة والكوميونة.

7 – يتكفل المجتمع بالمسؤولية عن كبار السن والمعاقين.

8 – حظر أي تدخل من أرباب العمل في إدارة الروابط الأخوية للعمال، وجمعيات الادخار، إلخ. التي تقع تحت الإشراف الحصري للعاملين[460].

9 – يتحمل أرباب العمل المسؤولية عن الحوادث التي تقع للعمال، من خلال تأمين مالي يودعوه في صناديق تحت إشراف العمال، على أن يتناسب المبلغ المودع مع عدد العمال المستخدمين والخطر الذي تمثله الصناعة.

---

[459] وضعت هذه المطالب ضمن معطيات القرن التاسع عشر.
[460] يجب النظر إلى هذه المطالب داخل سياق أوضاع أواخر القرن التاسع عشر.

10 – إشراك العمال في وضع اللوائح الخاصة بمختلف الورش، وإنهاء الحق الذي اغتصبه أصحاب العمل بفرض عقوبات مالية على العمال في شكل غرامات أو خصم من الأجور (مرسوم الكوميونة في 27 أبريل 1871).

11 – فسخ جميع العقود التي نقلت ملكية المرافق العامة (بنوك، سكك حديدية، مناجم، إلخ) وتشغيل جميع الورش المملوكة للدولة، على أن يُعهد بإدارتها للعاملين بها.

12 – إلغاء جميع الضرائب غير المباشرة وتحويل جميع الضرائب المباشرة إلى ضريبة تصاعدية على الدخل الذي يزيد على 3000 فرنك. ومنع جميع أشكال التوريث للأقارب غير الأساسيين،[461] وتوريث الأقارب الأساسيين ما لا يزيد عن 20,000 فرنك.

[461] بما في ذلك الوصية لا يجب أن تكون لغير الورثة المباشرين.

تسلسل زمني: *1881–1883*

1881

من يناير–أواخر يونيو

خلال هذه الشهور في لندن، أنهى ماركس بعض الملخصات التي بدأها في أواخر عام 1880 من أعمال مورجان ومونيه وفيراند ومين. وتبلغ الدفاتر الإثنولوجية التي تحتوي على هذه المواد حوالي 200 صفحة. وفي الوقت نفسه، انشغل بالعمل على حساب التفاضل في الدفاتر الرياضية. من النصف الثاني من شهر فبراير وحتى 8 مارس، كتب المسودات الأولية والرسالة إلى فيرا زاسوليتش، حول المشاعة الريفية في روسيا.

الأسبوع الأخير من يونيو إلى حوالي 19 يوليو: ظل في إيستبورن مع زوجته جيني فون فيستفالن.

20–25 يوليو: العودة إلى لندن والاستعداد للسفر إلى فرنسا.

26 يوليو–16 أغسطس: زيارة إلى الابنة الكبرى جيني لونجيت في ضاحية أرجينتويل في باريس، برفقة زوجته وهلين ديموت.

17 أغسطس–28 ديسمبر: العودة إلى لندن، الانهماك في الدراسات التاريخية العميقة واستخلاصات ضخمة من أعمال ف. اسكلوسير، وسي بوتا، كانت محصلتها هي الخلاصة المرتبة زمنيًا، وهي عبارة

عن توليفة ضخمة من أكثر من 550 صفحة تتعامل مع الأحداث السياسية الرئيسية من عام 91 قبل الميلاد إلى معاهدة وستفاليا في عام 1648. بينما كان يراعى باستمرار زوجته المريضة، أمضى وقت فراغه في قراءة الكتب الحديثة حول روسيا كما واصل أيضًا دراساته الرياضية. بعد منتصف أكتوبر، شلت حركته هجمات التهابات الغشاء المحيط بالرئة والتهاب الشعب الهوائية لمدة شهرين تقريبًا.

2 ديسمبر: وفاة زوجته.

29–31 ديسمبر: رحلة إلى فينتنور على جزيرة وايت مع ابنته الأصغر إليانور، بحثًا عن مناخ معتدل

1882

1–15 يناير: استمرار وجوده في فينتور.

16 يناير–8 فبراير: العودة إلى لندن لاستشارة الأطباء حول علاج أكثر فعالية لحالته، في 21 يناير أكمل ماركس وإنجلز مقدمة الطبعة الروسية لبيان الحزب الشيوعي.

9–16 فبراير: السفر للجزائر. لا يزال يرافقه إليانور، وتوقف عند ابنته جيني في أرجينتويل.

17 فبراير: واصل ماركس الرحلة وحده، بعد عبوره فرنسا، بقي ليلة واحدة في مرسيليا.

18–19 فبراير: العبور إلى إفريقيا، أعلنت الباخرة: وجهتنا الأخيرة الجزائر.

20 فبراير–2 مايو: البقاء في العاصمة الجزائرية، حيث أدي عودة الالتهاب الشعبي ونوبة مرض التهاب الغشاء المحيط بالرئة إلى إجباره علي تحمل شهرين إضافيين من العلاج المؤلم.

3–4 مايو: العودة إلى فرنسا، بعد تحسن ظروفه الصحية.

5 مايو: النزول في مرسيليا في عيد ميلاده الرابع والستين، وزيارة نيس لفترة وجيزة.

6 مايو–3 يونيو: البقاء في مونت كارلو، كان ضروريًا بسبب تدهور حالته الصحية والحاجة إلى الخضوع لمزيد من العلاج.

4–7 يونيو: زيارة قصيرة إلى مدينة كان، اقترحها عليه الطبيب، قبل الرحلة من مرسيليا إلى باريس.

8 يونيو–22 أغسطس: زيارة ابنته جيني في أرجينتويل من أوائل يوليو إلى 20 أغسطس: دورة العلاج الحراري في الحمامات في أنجيان.

23 أغسطس–27 سبتمبر: رحلة إلى سويسرا مع ابنته لورا، إقامة قصيرة في لوزان، ثم أربعة أسابيع في فيفي على بحيرة جنيف، توقف في جنيف في رحلة العودة.

28 سبتمبر–6 أكتوبر: العودة في فرنسا. وبقي مع ابنته لورا في باريس، ثم لفترة وجيزة في منزل جيني في أرجينتويل.

7 أكتوبر: رحلة العودة إلى إنجلترا.

8–29 أكتوبر: مرة أخرى في لندن لمدة ثلاثة أسابيع، تجميع مقتطفات من نصوص حول الاقتصاد والأنثروبولوجيا وروسيا.

30 أكتوبر–31 ديسمبر: قضاء فترة أخرى في فنتنور، حيث حاول بصعوبة كبيرة استعادة صحته واستئناف العمل.

1883

1–12 يناير: الإقامة في فنتنور، وهناك وصله في اليوم الثاني عشر نبأ وفاة ابنته جيني.

13 يناير–13 مارس: تنتابه موجة حزن شديد، رجوع عاجل إلى لندن. تدهور صحته بشكل مفاجئ بسبب خراج الرئة، ومع قوته المحدودة المتبقية كان يراجع كتالوجات الناشرين ويقرأ الروايات الفرنسية.

14 مارس: الوفاة بسبب قصور في القلب في منزله رقم 41، على طريق منتزه ميتلاند.

تعريف بالمؤلف والكتاب

الاسم مارشيللو موستو، من مواليد عام 1976، أستاذ علم اجتماع مساعد في جامعة يورك (تورونتو). تم نشر كتبه ومقالاته في أماكن متعددة في أكثر من عشرين لغة. من بينها كتب مؤلفة والعديد من المجلدات المحررة مثل:

1- "جروندسية" كارل ماركس: أسس نقد الاقتصاد السياسي بعد 150 عامًا (**Routledge** – 2008).

2- ماركس في عصرنا **(Routledge, 2012)** .

3- العمال يتوحدون!: الأممية بعد 150 عامًا **(Bloomsbury, 2014)** .

4- ماركس آخر: المخطوطات المبكرة إلى الأممية (**Bloomsbury – 2018**).

5- إحياء ماركس (**Cambridge University Press – 2018**).

6- التاريخ العالمي لترجمة وانتشار واستقبال "رأس مال" كارل ماركس (**Routledge – 2018**).

الكتاب وجمهور القراء

هذا الكتاب هو في المقام الأول سيرة فكرية مصممة لجمهور واسع. يمكن قراءتها بسهولة من جانب القراء العاديين، وليس مكتوبًا بلغة غامضة يستخدمها الأخصائيون. اعتمدنا فيه كمصادر مراسلات ماركس وشهادات معاصريه. يتضح من خلال الكتاب أنه ظل لديه دافع قوي وحماس لمواصلة بحثه حول الرأسمالية وتزويد الطبقة العاملة بأساس نظري لخلق نمط إنتاج بديل.

في الوقت نفسه، يمثل هذا الكتاب مصدرًا لا غنى عنه لجميع المتخصصين في فكر ماركس الذين يريدون أن يتعرفوا على مرحلة غير معروفة تقريبًا من تطوره الفكري. التفسير الجديد الذي اقترحته

دراستي مطلوب إلى حد كبير للمجتمعات الأكاديمية التي تشارك بشكل متزايد في إعادة اكتشاف ماركس بعد الماركسية، وما وراء الماركسية في القرن العشرين. هذا الكتاب مهم أيضًا لدائرة واسعة من الباحثين الذين تتعلق دراستهم بالنقد الأوروبي، والدراسات الشرقية، والدراسات ما بعد الاستعمارية وتاريخ الفكر السياسي.

بالإضافة إلى أنه، يمكن اعتماد هذا الكتاب في العديد من الدورات الجامعية في أقسام العلوم السياسية، وعلم الاجتماع والتاريخ وفي العلوم الإنسانية بشكل عام. ويمثل أيضًا مرجعًا لطلاب الدراسات العليا والباحثين الشبان المهتمين بماركس.

المراجع

ملاحظة إرشاديه: (**MECW** اختصار **Marx Engels Collected Works** ماركس وإنجلز الأعمال المجمعة. والتواريخ الحديثة هي تواريخ نشرها ضمن مجلدات وكتب هذه الأعمال. وقد أشرت اليها في الهوامش باسم الأعمال المجمعة أو الأعمال.

1 – أعمال كارل ماركس. **(MECW)**

_1.1 – ماركس وإنجلز الأعمال المجمعة.

ماركس، مساهمة في نقد فلسفة القانون عند هيجل**(1975)** . الأعمال المجمعة، مجلد. **3: 1843– 44,**صفحات.**129–3** .

ماركس وإنجلز، الأيدلوجيا الألمانية. **(1976)** **MECW, vol.5: 1845–1847,** صفحات–**19. 581.**

ماركس، بؤس الفلسفة. **(1976).** الأعمال المجمعة، مجلد. **6: 1845–48,** صفحات.**212–105** .

ماركس وإنجلز، بيان الحزب الشيوعي. **(1976).** الأعمال المجمعة، مجلد. **6: 1845–48,** صفحات.**519–477** .

ماركس، الأثار المستقبلية للحكم البريطاني في الهند. **(1979).** الأعمال المجمعة، مجلد. **12: 54–1853,** صفحات.**23–217** .

ماركس، تعليمات لمندوبي المجلس العام المؤقت. مسائل متنوعة. الأعمال المجمعة، مجلد. **20: 64–1861, (1985)**صفحات.**90–188.**

ماركس، الحرب الأهلية في فرنسا **(1986)**، الأعمال المجمعة، مجلد. **22: 1870–71,** صفحات . **307–59.**

ماركس، نقد برنامج جوته الأعمال المجمعة، مجلد. **24: 1874–83,** صفحات.**(1989)99–75** .

ماركس، مسودات الرسالة إلى فيرا زاسوليتش: المسودة الأولي **(1989)** الأعمال المجمعة، مجلد. **24**: **1874-83,** صفحات.**60-346** .

ماركس، إلى فيرا، المسودة الثانية **(1989)** الأعمال المجمعة، مجلد. **24: 1874-83,** صفحات . **360-4.**

ماركس، إلى فيرا، المسودة الثالثة. **(1989)** الأعمال المجمعة، مجلد. **24: 1874-83,** صفحات . **364-9**

ماركس، الرسالة إلى فيرا. **(1989)** الأعمال المجمعة، مجلد. **24: 1874-83,** صفحات.**1-370** .

ماركس وإنجلز، مقدمة الطبعة الروسية الثانية من بيان الحزب الشيوعي **(1989)** الأعمال المجمعة، مجلد. **24: 1874-83,** صفحات.**6-425** .

ماركس، ملاحظات حول كتاب باكونين، الفوضوية والدولة، **(1989)** الأعمال المجمعة، مجلد. **24**: **1874-83,** صفحات**526-485** .

كارل ماركس**(1989)** ، تقييم ماركس للقاء مع المراسل الصحفي لجريدة ***the Chicago Tribune***. الأعمال المجمعة. مجلد 24 – 1874- 83، صفحات 79 – 568.

كارل ماركس **(1989)**، تقييم اللقاء مع جون سونتون، مراسل جريدة ***The Sun***، الأعمال المجمعة، مجلد 24: 1874-83، صفحات. 5-583.

كارل ماركس **(1987)**، خطوط حول نقد الاقتصاد السياسي} الجرندروسية**}** ، الأعمال المجمعة، 29: 1857-61، صفحات 5-253.

كارل ماركس**(1987)**، مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي، الأعمال المجمعة، مجلد 29: **1857-1861**، صفحات. 257-417.

كارل ماركس**(1996)** ، رأس المال، الجزء الأول، الأعمال المجمعة، مجلد. **35.**

الرسائل

كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز (1983) ، الأعمال المجمعة، مجلد. 40رسائل.1850-59

كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز (1985) ، الأعمال المجمعة، مجلد. 41رسائل.1860-64

كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز (1987) ، الأعمال المجمعة، مجلد. 42رسائل.1864-68

كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز (1988) ، الأعمال المجمعة، مجلد. 43رسائل.1868-70

كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز (1989) ، الأعمال المجمعة، مجلد. 44رسائل.1870–73

كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز (1992) ، الأعمال المجمعة، مجلد. 46رسائل.1880-83

كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز (1995) ، الأعمال المجمعة، مجلد. 47رسائل.1883-86

كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز (2001) ، الأعمال المجمعة، مجلد. 48رسائل.1887-90

كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز (2001) ، الأعمال المجمعة، مجلد. 49رسائل.1890-92

كارل ماركس إلى فريدريك إنجلز (2004) ، الأعمال المجمعة، مجلد. 50رسائل.1892-95

I.2 Marx-Engels Gesamtausgabe (MEGA²)

Marx, Karl (1983), MEGA², vol. II/5: Das Kapital.

Marx, Karl and Friedrich Engels (1999), MEGA², vol. IV/32: Die Bibliotheken von Karl Marx und Friedrich Engels.

Marx, Karl (1989), MEGA², vol. II/7: Le Capital, Paris 1872-1875.

I.3 Single Editions and Unpublished Manuscripts

I.3 – طبعات لمرة واحدة ومخطوطات غير منشورة في لغات مختلفة.

Marx, Karl (1972), *The Ethnological Notebooks of Karl Marx*, Lawrence Krader (ed.). Assen : Van Gorcum, 1972.

Marx, Karl (1975), 'Excerpts from M. M. Kovalevskij (Kovalevsky), *Obschinnoe Zemlevladenie. Prichiny, hod i posledstviya ego razlozheniya* (Communal landownership. Causes, course and consequences)', in Lawrence Krader (Ed,), *The Asiatic Mode of Production. Sources, Development and Critique in the Writings of Karl Marx.* Van Gorcum: Assen, pp. 343-412.

Marx, Karl (1987), *Marx Engels Werke*, vol. 19: *März 1875-Mai 1883.* Berlin: Dietz.

Marx, Karl (2001), *Notes on Indian History*. Honolulu: University Press of the Pacific.

Marx, Karl (1983). 'A Letter to the Editorial Board of *Otechestvennye Zapiski*', in Teodor Shanin (Ed.), *Late Marx and the Russian Road*. London: Routledge, 1984, p. 135.

Marx, Karl, and Friedrich Engels (1953), *Über Deutschland und die deutsche Arbeiterbewegung.* Berlin: Dietz.

Marx, Karl, International Institute for Social History (IISH), Marx-Engels Papers, B 157, B 158, B 159, B 160.

Marx, Karl, International Institute for Social History (IISH), Marx-Engels Papers, B 98.

Marx, Karl, International Institute for Social History (IISH), Marx-Engels Papers, A 113 and B 167.

أعمال لمؤلفين أخرين بلغات مختلفة.

Alcouffe, Alain (1985), 'Introduction', in Karl Marx, Les manuscrits mathématiques de Marx, Alain Alcouffe (Ed.). Paris: Economica, pp. 9–109.

Anderson, Kevin (2010), Marx at the Margins. Chicago: The University of Chicago Press.

Attali, Jacques (2005), Karl Marx, ou l'Esprit du monde. Paris: Librairie Arthème–Fayard.

Badia, Gilbert (1997), 'Marx en Algérie', in Karl Marx, Lettres d'Alger et de la Côte d'Azur. Paris: Le Temps des Cerises, pp. 7–39.

Bax, E. Belfort (1881), 'Leaders of Modern Thought: xxiii. Karl Marx', Modern Thought, vol 3, n.12, pp. 349–54.

Beckett, James Camlin (1981), The Making of Modern Ireland 1603–1923. London/Boston: Faber and Faber.

Berlin, Isaiah (1963), Karl Marx: His Life and Environment. London: Oxford University Press.

Bernstein, Edward (1921), My Years of Exile. London: Leonard Parsons.

Billington, James H. (1958) Mikhailovsky and Russian Populism, Oxford: Clarendon Press.

Bongiovanni, Bruno (1989), Le repliche della storia. Torino: Bollati Boringhieri.

Bottigelli, Emile (1961), 'La rupture Marx–Hyndman', in Annali dell'Istituto Giangiacomo Feltrinelli. Milano: Feltrinelli, pp. 621–9.

Briggs, Asa and John Callow (2008) Marx in London: An Illustrated Guide. London: Lawrence and Wishart.

Buber, Martin (1996), Paths in Utopia. Syracuse: Syracuse University Press.

Casiccia, Alessandro (1970), 'La concezione materialista della società antica e della società primitiva', in Henry Morgan (Ed.), La società antica. Milano: Feltrinelli, pp. xvii–xxvii.

Cafiero, Carl (1879), Il Capitale di Carlo Marx brevemente compendiato da Carlo Cafiero. Libro Primo: Sviluppo della Produzione Capitalistica. Milano: E. Bignami e C. Editori.

Colin, Matthew (1995), Gladstone: 1875–1898. London: Clarendon Press.

Comyn, Marian (1922) 'My Recollections of Marx', in The Nineteenth Century and After, vol. 91, pp. 161–9.

Dardot, Pierre and Christian Laval (2012), Marx, prénom Karl. Paris: Gallimard.

Dornemann, Luise (1971), Jenny Marx: Der Lebensweg einer Sozialistin. Berlin: Dietz.

Douglas, Roy (1976), Land, People and Politics: A History of the Land Question in the United Kingdom, 1878–1952. London: Allison and Busby.

Dussel, Enrique (1990), El último Marx (1863–1882) y la liberación latinoamericana, México D.F.: Siglo XXI.

Eaton, Henry (1980), 'Marx and the Russians', Journal of the History of Ideas, vol. 41, n. 1, pp. 89–112.

Engels, Frederick (1990), The Origin of the Family, Private Property and the State, in MECW, vol. 26: Engels: 1882–89, pp. 129–276.

Engels, Frederick (1990) 'Draft of a Reply to the Editors of the Sachsischen Arbeit–Zeitung', in MECW, vol. 27, pp. 67–8.

Engels, Frederick (1996), 'Preface to the First German Edition', Capital, Volume II, in MECW, vol. 36: Karl Marx, Capital, Vol. II, pp. 5–23.

Engels, Friedrich (1996), 'Preface to the English Edition' to Karl Marx, Capital, Volume I, in MECW, vol. 35, pp. 30–6.

Enzensberger, Hans Magnus (ed.) (1973) Gespräche mit Marx und Engels. Frankfurt/Main: Insel Verlag.

Feuchtwanger, Edgar J. (1975), Gladstone. London: Allen Road.

Foner, Philip S. (Ed.), (1983), Karl Marx Remembered: Comments at the Time of His Death. San Francisco: Synthesis Publications.

Gabriel, Mary (2011), Love and Capital: Karl and Jenny Marx and the Birth of a Revolution. New York/Boston/London: Little, Brown and Company.

Gailey, Christine Ward (2006), 'Community, State, and Questions of Social Evolution in Karl Marx's Ethnological Notebooks', in Jacqueline

Solway (Ed.), The Politics of Egalitarianism. New York/Oxford: Berghahn Books, pp. 31-52.

Gallissot, René (Ed.) (1976), Marxisme et Algérie. Paris: Union générale d'éditions.

Garin, Sender (1991), Three American Radicals: John Swinton, Charles P. Steinmetz, and William Dean Howells. Boulder: Westview Press.

George, Henry (2006), Progress and Poverty. New York: Robert Schalkenbach Foundation.

——— (1997), An Anthology of Henry George's Thought, Kenneth C. Wenzer (Ed.). Rochester: University of Rochester Press.

Gibbons, James Sloan (1859), The Banks of New-York, Their Dealers, Their Clearing-House, and the Panic of 1857. New York: Appleton & Co.

Godelier, Maurice (1973), Horizon, trajets marxistes en anthropologie. Paris: Francois Maspero.

Hall, Alfred Rupert (1980), Philosophers at War. Cambridge: Cambridge University Press.

Harstick, Hans Peter, Richard Sperl and Hanno Strauβ (1999) 'Einführung', in MEGA^2, vol IV/32: Die Bibliotheken von Karl Marx und Friedrich Engels, pp.7-102

Holmes, Rachel (2014), Eleanor Marx: A Life. London: Bloomsbury.

Hyndman, Henry, International Institute of Social History (IISH), Marx-Engels Papers, C 261, C 262.

Hyndman, Henry (1911), The Record of an Adventurous Life. New York: Macmillan.

——— (1974), England for All. New York: Barnes & Noble.

Institute of Marxism-Leninism (Ed.) (1957), Reminiscences of Marx and Engels. Moscow: Foreign Languages Publishing House.

Kapp, Yvonne (1979), Eleanor Marx: Family Life 1855-1883, vol. 1. London: Virago.

Kautsky, Benedikt (Ed.) (1955), Friedrich Engels' Briefwechsel mit Karl Kautsky. Wien: Danubia.

Klein, Maury (1997), The Life and Legend of Jay Gould, Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Krader, Lawrence (Ed.) (1972), The Ethnological Notebooks of Karl Marx. Assen: Van Gorcum.

Krätke, Michael R. (2014), 'Marx und die Weltgeschichte', Beiträge zur Marx-Engels-Forschung. Neue Folge: 133-77.

Krysmanski, Hans Jürgen (2014), Die letzte Reise des Karl Marx. Frankfurt/Main: Westend.

Lafargue, Paul (1905), 'Frederick Engels', The Social Democrat, vol. 9, n. 8, pp. 483-8.

Lombardo Radice, Lucio (1972), 'Dai 'manoscritti matematici' di K. Marx', in Critica marxista-Quaderni, n. 6, pp. 273-86.

Mehring, Franz (1962), Karl Marx: The Story of His Life. Ann Arbor: University of Michigan Press.

Meier, Olga (Ed.) (1982), The Daughters of Karl Marx: Family Correspondence 1866–1898. New York: Harcoxurt Brace Jovanovich.

Morgan, Henry (1877), Ancient Society. New York: Henry Holt.

Mulhall, Michael George (1882), 'Egyptian Finance', Contemporary Review, vol. XLII, pp. 525–35.

Musto, Marcello (ed.) (2012), Marx for Today. London: Routledge.

Musto, Marcello (ed.) (2014), Workers Unite! The International 150 Years Later, London: Bloomsbury.

Musto, Marcello (ed.) (forthcoming 2018), The Marx Revival. Cambridge: Cambridge University Press.

Musto, Marcello (2007), 'The Rediscovery of Karl Marx', International Review of Social History, vol. 52, n. 3, pp. 477–98.

Musto, Marcello (Ed.) (2008), Karl Marx's Grundrisse: Foundations of the Critique of Political Economy 150 Years Later. London/New York.

Most, Johann (1873), Johann Most, Kapital und Arbeit. Ein populärer Auszug aus 'Das Kapital' von Marx 1873, Chemnitz 1873, in MEGA^2, vol. II/8, pp. 735–800.

Nieuwenhuis, Ferdinand Domela (1881), Kapitaal en Arbeid. Hague: s.e.

Payne, Robert (1969), Marx: A Biography. New York: Simon & Schuster.

Peters, Heinz Frederick (1986), Red Jenny: A Life with Karl Marx. New York: St. Martin's.

Poggio, Pierpaolo (1978), L'Obščina. Comune contadina e rivoluzione in Russia. Milan: Jaca Book.

Ponzio, Augusto (2005), 'Introduzione. I manoscritti matematici di Marx', in Karl Marx, Manoscritti matematici. Milano: Spirali, pp. 7–44.

Prawer, Siebert S. (2011) Karl Marx and World Literature. London: Verso.

Rae, John (1881), 'The Socialism of Karl Marx and the Young Hegelians', The Contemporary Review XL: 587–607.

Renehan, Edward J. (2006), Dark Genius of Wall Street: The Misunderstood Life of Jay Gould, King of the Robber Barons. New York: Basic Books.

Rubel, Maximilien (ed.) (1972), Karl Marx/Friedrich Engels: Die russische Kommune, Munich: Hanser.

Rubel, Maximilien (1974), Marx critique du marxisme. Paris: Payot.

Rubel, Maximilien (1980), Marx: Life and Works. London: Macmillan.

Ryazanov, David (1925), 'Neueste Mitteilungen über den literarischen Nachlaß von Karl Marx und Friedrich Engels', Archiv für die Geschichte des Sozialismus und der Arbeiterbewegung, vol. 11, pp. 385–400.

s.n. (1882) Stenographische Berichte über die Verhandlungen des Reichstags, I, Berlin.

s.n. (1989) '(Sir Mountstuart Elphinstone Grant Duff's Account of a Talk with Karl Marx: From a Letter to Crown Princess Victoria)', 1 February 1879, in MECW, vol. 24, p. 580–3.

Said, Edward (1995), Orientalism. London: Routledge.

Sawer, Marian (1977), Marxism and the Question of the Asiatic Mode of Production. The Hague: Martinus Nijhoff.

Shannon, Richard (1999), Gladstone, vol. 2, 1865–1898. Chapel Hill: The University of North Carolina Press.

Shanin, Teodor (1984), 'Late Marx: Gods and Craftsmen', in Teodor Shanin (Ed.), Late Marx and the Russian Road. London: Routledge, pp. 3–39.

Shanin, Teodor (Ed.) (1984), Late Marx and the Russian Road. London: Routledge.

Tichelman, Fritjof (1983), Schriften aus dem Karl–Marx–Haus, xxx, Marx on Indonesia and India. Trier: Karl–Marx–Haus.

Tsuzuki, Chushichi (1961), H.M. Hyndman and British Socialism. London: Oxford University Press.

——— (1967), The Life of Eleanor Marx, 1855–1898: A Socialist TragEdy. Oxford: Clarendon Press.

Vesper, Marlene (1995), Marx in Algier. Bonn: Pahl–Rugenstein Nachfolger.

Vorländer, Karl (1929), Karl Marx. Leipzig: F. Meiner.

Wada, Haruki (1984), 'Marx and Revolutionary Russia', in Teodor Shanin (Ed.), Late Marx and the Russian Road. London: Routledge, pp. 40-76.

Walicki, Andrzej (1969), Controversy Over Capitalism: Studies in the Social Philosophy of the Russian Populists, Oxford: Clarendon Press.

Weissweiler, Eva (2002), Tussy Marx: Das Drama der Vatertochter. Köln: Kiepenheuer & Witsch.

Wurmbrand, Richard (1979), Was Marx a Satanist? Glendale: Diane Books.

Venturi, Franco (1960) Roots of Revolution: A History of the Populist and Socialist Movements in Nineteenth Century Russia, New York: Alfred A. Knopf.

Yanovskaya, Sofya (1983), 'Preface to the 1968 Russian Edition', in Karl Marx, Mathematical Manuscripts. London: New Park Publications, pp. vii-xxvi.

Zasulich, Vera (1984), 'A Letter to Marx', in Teodor Shanin (Ed.), Late Marx and the Russian Road, London: Routledge, pp. 98-9.